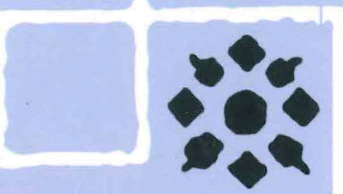
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

مكتبة التاريخ العثماني



التعليم في ولاية دمشق في العصر العثماني

(١٢٧٨-١٣٢٧هـ - ١٨٦١-١٩٠٩م)



دراسة وثائقية

محمد إبراهيم الحوراني

التعليم في ولاية دمشق

في العصر العثماني

١٢٧٨- ١٣٢٧هـ - ١٨٦١-١٩٠٩م

تصميم الغلاف

أحمد يزبك

محمد إبراهيم الحوراني

التعليم في ولاية دمشق

في العصر العثماني

١٢٧٨-١٣٢٧هـ - ١٨٦١-١٩٠٩م

دراسة وثائقية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٥م

التعليم في ولاية دمشق في العصر العثماني: ١٢٧٨-١٣٢٧ هـ/ ١٨٦١-١٩٠٩م: دراسة وثائقية/ محمد إبراهيم الحوراني .- دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٥م .- ٢٢٤ ص ؛ ٢٤ سم.

١- ٣٧٠,٩٥٦ ح و ر ت ٢- العنوان ٣- الحوراني

مكتبة الأسد

إهداء

إلى من علّمني حرفاً..

سأبقى معتكفاً في محراب الكلمة

راجياً الخالق أن يُديم عقلك ويُنير فكرك ودربك..

محمد إبراهيم الحوراني

شكل سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م نقطة تحول مهمة في تاريخ أوربا، ويمكن القول: إن هذا السقوط كان من أهم أحداث التاريخ العالمي عامة والأوربي خاصة، لا بل إن بعض المؤرخين في أوربا عدّوه نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة.

ومن الممكن القول: إن العساكر التي جُمّعت من المناطق الأوروبية، ودُرّبت وجُهّزت قبل التحرك العثماني إلى أوروبة الشرقية، قد ارتكبت أخطاءً اعتاد العسكر منذ ما قبل التاريخ حتى العصر الحالي على ارتكابها، لأنها جزء متأصل في ذهنيتهم المبنية على التسلط والاستبداد والفوقية، لكن هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أن قياداتهم راضية عن تلك التجاوزات، ولاسيما السلطان الحاكم الذي عهِد إلى القاضي حارس الشريعة لدى دولته بمنع تعديات العسكر على مَنْ حولهم.

وقد اعتاد المؤرخون والكتّاب على قراءة تاريخ الدولة العثمانية من الناحية العسكرية ووصفوها بوصف (الترك عساكر) وبعضهم وصفها بدولة استهلاكية، فرضت ضرائب وأتاوات بحججٍ كثيرة لتغطية مصاريفِ قصورها وحملاتها التي كانت تشنُّها على معارضيها في الداخل متى اقتضى الأمر ذلك.

والحقيقة أن الدولة العثمانية دولة عسكر، وعساكرها أثبتوا جدارتهم على مختلف الجبهات، وسجلوا انتصارات باهرة، أرعبت أعداءهم رعباً حقيقياً، ولاسيما ملوك أوروبا، الأمر الذي دفع ملوكها وأمراءها للمسارعة

بتقديم فروض الطاعة والولاء وتقبيل العتبة الهمايونية[1]، معلنين الطاعة والولاء، وتقديم ما تفرضه قيادتها من ضرائب وغرامات عليهم.

ويُلاحَظ القارئ لتاريخ الدولة العثمانية، وما كُتب عنها، أن المؤرخين الذين تحدثوا عن عسكرة الدولة لكيانها، لم يقولوا سوى نصف الحقيقة، وتناسوا أن العسكرة العثمانية مؤطرة في تحركاتها بالقضاء الذي يحدّ من تجاوزات قادتها وعسكرهم، لاسيما وأنها امتازت بمتانة إدارتها القضائية، القادرة على ضبط مناطقها وربطها بصورة تشعر أهالي تلك المناطق بالأمان والاستقرار.

فالصفة العسكرية التي تجذّرت في مقاتلي القبيلة العثمانية، ولّدتها شجاعة شبّانها الذين تصدوا للإمبراطورية البيزنطية، التي أقضت مضاجع الخلافة العباسية لقرون، وبهذه العسكرية المتماسكة، تمكنت من تحقيق وجودها على أكثر الساحات اضطراباً وهي الساحة الأناضولية التي لم تعرف الأمن والهدوء، لخلل ولدّه عبث قياصرة بيزنطة، ولهذا حكمت الأقدار على عرشهم أن يتهاوى على يد مقاتلي أحفاد عثمان المؤسّس سنة ١٤٥٣م.

وقد دأب العثمانيون على جمع أمراء العسكرة وأمراء الجهاد في آن واحد على إخضاع ما جاورهم من بلدان ومناطق، وعاملوا سكان المناطق التي فتحوها بموجب الشرع الحنيف، لكن قادة تلك المناطق لا تنطبق عليهم قوانين دينية وأخلاقية، لأنهم قاوموا وقَتلوا وقُتلوا، وكان لا بد من مصادرة أملاكهم وتطبيق الشرع على قادتهم الذين مارسوا الظلم والقهر على رعيتهم.

ولكن هل يمكننا القول: إن العثمانيين طبّقوا العدالة الكاملة في فتوحاتهم، وبالمقابل أيضاً هل مارسوا الظلم رغم صلافة جندهم وقساوة طبيعتهم، التي لا تخضع في وقت من الأوقات إلى حكم أو تحكيم، وإنما تتبع المزاجية في تصرفاتها.

---

(١) نسبة إلى همايون، وهي كلمة تعظيم خاصة بالسلاطين العثمانيين.

ولئن قدم العثمانيون إلى الوطن العربي ودخلوه من مرج دابق سنة ١٥١٦م، فإن قتالهم كان بالدرجة الأولى للمماليك الذين ورثوا السلطة من الأيوبيين، وينبغي هنا أن لا ننسى للمماليك بصفة عامة دفاعهم عن الإسلام وأهله ودياره ضد التتر، فلقد أبلوا بلاء حسنًا، وكانوا خير عَونٍ للإسلام والمسلمين في كل مرحلة من مراحل تاريخهم، وحُق لهؤلاء المماليك الشجعان، الذين جُلبوا بالأساس للاستخدام العسكري، بعد أن تم شراء معظمهم من أسواق النخاسة، أن يحملوا لقب أمراء الجهاد، وظلوا لقرون يتباهون به، غير أن الأتراك العثمانيين الذين أزالوا الدولة البيزنطية وغيروا وجه التاريخ عندما فتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣م رفضوا الاحتفاظ بلقب أمراء الحدود الذي باركه المماليك لهم، وأصروا على انتزاع لقب أمراء الجهاد منهم بقوة السلاح، لأنها الوسيلة الوحيدة التي يفهمها المماليك آنذاك.

أدار العثمانيون بلاد الشام منذ سنة ١٥١٦م وقسموها إدارياً إلى ولايات وسناجق (ألوية) وأقضية ونواح وقرى، وعينوا عليها قادة عسكر، وعهدوا إليهم الإدارة والالتزام بمبادئ الشرع الإسلامي أو العدالة التي تغنوا بها لسنوات، وإن كانت الكثير من المصادر والمراجع تشير إلى مساحات واسعة من الظلم والقهر والاستعباد، وبدأت علائم الضعف ترتسم على وجوه السلاطين الذين أسرفوا في اقتناء الجواري المستوردات، وكلفوا الصدور العظام بإدارة الدولة نيابة عن السلطان القابع في الحرملك.

وكانت أوروبه سباقةً في خلخلة بنيان الدولة العثمانية، وتكريس الفساد والضعف فيها، وفعلاً حققت أوروبه مرادها في زيادة ضعف الدولة العثمانية لأكثر من قرنين من الزمن، وقامت إثر ذلك ثورات الجند طوال القرن السابع عشر وأعقبتها ثورات الأمراء المحليين في القرن الثامن عشر، وتعالت الصيحات المطالبة بإيقاف التدهور المتسارع للدولة، والحد من عبث الإنكشارية وتدخلها في شؤون الحياة اليومية، وغدا السلاطين لا يصلون إلى عرش السلطنة إلا بعد دفع الرشاوى للإنكشارية، فازداد سئم السلاطين

والرعية من عبثها وقساوة تصرفاتها، ويعد النصف الثاني من القرن الثامن عشر بداية استفاقة الضمير العثماني لدى بعض السلاطين الذين استمعوا إلى ضمير الوجدان المتجسد بالعلماء حراس الوطن ودرعه القوي.

وقد كانت بدايات الإصلاح خجولة جداً، وكان السلطان يشعر بالخوف والخجل من المطالبة بالإصلاح أو العمل عليه، بدءاً من السلطان أحمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠م. وكان السلطان يخاف من رفع صوته بضرورة تسوية الأمور وإصلاحها، لأنه كان يخاف ممن حوله ومن غضب الإنكشارية وغضب زوجاته الأوربيات اللواتي كنَّ يتحركن بحسب واقع بلادهن، التي كانت هي الأخرى تعاني مشكلات عدة، وغير مهيئة ولا مؤهلة للسيطرة على الآخرين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عدم تأصّل الفساد في مفاصل الدولة العثمانية، وتسرّب الضعف والترهل إليها، سيجعل أوروبة خائفة من استفاقة الغول العثماني النائم، ولذا أصدرت أوامرها إليهن (زوجات السلاطين) بتوسيع دائرة الفساد ونشر الفوضى والخلل في كل مفاصل الإمبراطورية العثمانية.

واستجاب قسم من سلاطين النصف الأول من القرن الثامن عشر أمثال السلطان أحمد الثالث ١٧٠٣-١٧٣٠م والسلطان محمود الأول ١٧٣٠-١٧٥٤م والسلطان عثمان الثالث ١٧٥٤-١٧٥٧م، وحاول السلطان مصطفى الثالث ١٧٥٤-١٧٧٤م تكرار عبارات من سبقوه فدُسَّ السُمُّ له بعد أشهر من مقولته.

لقد اتسعت دائرة المطالبة بالإصلاح، وبدأها السلطان عبد الحميد الأول ١٧٧٤-١٧٨٩م الذي ظل حبيس الغرفة الفولاذية لمدة خمسين سنة، وصرخ بوجه الفساد وسانده الشرفاء، فبدأ خطواته باتجاه الإصلاح المدني، وكان من أولويات اهتمامه بعد محاربة فساد التعليم الذي أصيب بالركود منذ عهد سليم الثاني ابن سليمان القانوني، فعمل على بناء المدارس، وطلب نشر المعرفة، ومنح المعلمين رواتب عالية، وصمم على النهوض بالأجيال، وافتتح مدارس

مختلطة، وطبع الكتب المدرسية على نفقة الدولة، ووزعها على طلاب المدارس مجاناً، وأصدر فرماناً إلى كل ولاية يأمر واليها بافتتاح المدارس ومحاسبة أولياء الأولاد الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس.

من هنا تبدأ استفاقة الدولة العثمانية باتجاه الإصلاح، وتبدأ قراءة تاريخ الدولة العثمانية والضرورة لتسليط الضوء على جوانبها المضيئة، فالعسكر مؤسسة لحماية الأوطان والعروش، أما العلم واحترام العلماء وتكريمهم فهو الجوهر وفيه متانة بنيان الدولة ورصانة مستقبلها الذي يحميها ويحمي عروشها وحدودها.

إن العديد من المؤرخين والكتّاب أغفلوا هذه الناحية بصورة شبه تامة، وركزوا على العساكر وبطولاتهم أو فسادهم وتجاوزاتهم، وتناسوا أن السلاطين الذين تكاسلوا في ضبط شؤون الدولة، وتركوا العلم والتعليم ضائعاً وراقداً في جدران الزوايا والتكايا حيث تولاها رجال ارتدوا جبّة وعمامة رجال الدين، بعدما صوّروا للسلطان الحاكم أن العلماء والفقهاء يعارضون سلطانه وتواصلوا بفسادهم إلى حد التعامل مع نسائه، فأهمل السلطان العلماء وانزوى أهله ومحبوه، وظل الأمر على ما هو عليه حتى صرخة عبد الحميد الأول.

والحقيقة أن عدداً قليلاً من الباحثين المخلصين، تطرقوا إلى التعليم في الدولة العثمانية، والحال نفسه في ولاياتها العربية، وانصرف الناشطون علمياً إلى مدح السلطان أو ذمه أو مدح الإنكشارية وتعداد مساوئها، وهناك رجال وباحثون تعرضوا للسلطان وإنكشاريته، ولكنهم ركزّوا على الجانب العلمي لبلادهم.

وقد تكون هناك إضاءات علمية، دُوّنت قبل إضاءة السيد محمد الحوراني حول التعليم في دمشق في العصر العثماني، إلا أنه ما من دراسة علمية وثائقية توازي هذه الدراسة القيّمة.

فقد قدم في بحثه معلومات قيمة ونادرة، وجمالية ما قدمه أنه لم يتحدث عن افتتاح المدارس فقط، وإنما ركز من خلال الوثائق على ماهية التعليم

وخطوات سلاطين الإصلاح والمواد التي تُدرس، وعدد ساعات التدريس، ونوع الشهادة وأهليتها ومستقبلها، ناهيك عن معلومات مهمة ذكرها المؤلف لأول مرة في كتابه هذا.

لقد خطا السيد محمد الحوراني في كتابه هذا التعليم في ولاية دمشق في العصر العثماني، خطوات علمية متميزة، علماً بأن المرحلة التي عمل على دراستها عن التعليم في دمشق، تُعد من أعقد المراحل وأشدها اشتباكاً في أحداثها، وأكثرها تعقيداً في فرمانات السلاطين، وبروح علمية تناول قراءة التعليم ومؤسساته، والتزم العلمية بكل حدودها وأطرها، فجاء كتابه هذا غاية في الدقة والانضباط العلمي واللفظي، وما من قارئ يقرأ هذا المؤلف العلمي إلا وسيدرك الجهد الكبير الذي بذله المؤلف، والعلمية التي أطرت مؤلَّفه، ولأول مرة يُثبت المؤلف أن الدولة العثمانية اهتمت بالتعليم بمستوياته كافة، كما أكد أن العلم الذي التزمت به الدولة يوازي بحق العسكرة التي اشتهرت بها.

إنني أقدر جهده وصبره على دراسة التعليم في مدينة دمشق، ويُعدُّ بحقٍ مؤلَّفه الأول من نوعه في مجال التعليم، ولئن تفاخر العثمانيون بدولتهم على أنها دولة علمية، جمعت المجد من أطرافه وكانت دمشق تابعة لها، إلا أنهم تناسوا أن دمشق هي أساس الحضارة العربية وملهمتها، كما أن لها مساهمة خلاّقة ومبدعة، وباعاً طويلاً في صيانة هذا المجد الخالد الذي نسبته لها.

أ.د. محمود علي عامر

أستاذ التاريخ العثماني في جامعة دمشق

تمهيد

لم يترك الاحتلال العثماني في الوطن العربي أيَّ أثرٍ علمي، أو حضاري تستذكره الأجيال اللاحقة، بل على العكس من ذلك؛ عمد العثمانيون إلى تجهيل المجتمع العربي، وتدمير تراثه الحضاري، والإنساني، محاولين بناء حضارة وهمية هشّة وعلم خرافي، يعتمد على الزوايا، والتكايا وتقديس الأشخاص، وقد اعتمدت الدولة العثمانيّة على البداوة العثمانية المغلفة بغلاف التدين المذهبي، والعرقي واستنهاض العصبيات، وإثارتها بالفتن، وإدامة الفوضى، مع حرص عثماني كبير على تغييب العروبة عن الوعي العام، وإضعاف لغة القرآن الكريم، وطمس الذات العربية الإسلامية النهضوية، وتعويم تراث التخلّف والتبعيّة. ومع أن الصوفية انتشرت في العصر العباسي، وما بعده، إلا أنها بقيت ركنًا منعزلاً عن مجتمعنا العربي قبل السيطرة العثمانية على الوطن العربي، أما في ظل الدولة العثمانية، وفي تركيا بالذات والمناطق التي عانت من الاحتلال العثماني، فقد انتشرت الصوفية المنحرفة في المجتمع، وصارت هي الدين، وانتشرت – في القرنين الأخيرين بصفة خاصة – تلك المقولة العجيبة: من لا شيخ له فشيخه الشيطان! وأصبحت – بالنسبة إلى العامة – هي مدخلهم إلى الدين، حيث غيرت مجال ممارستهم للطقوس الدينية" وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصوفية المنحرفة، ويفيضون عليها من عطفهم، وحدبهم، إلى أن غدت الصوفية بجميع أصنافها وطرقها

تشكل ثقلاً، وعبئاً على الأمة ووحدتها، وغدا هذا العصر، عصر الصوفية التي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه، ولم تبق مدينة، ولا قرية إلا دخلتها، وقد سيطرت الصوفية المنحرفة على العالم الإسلامي، في تلك الفترة، ووقع جمهور من المسلمين في أسرها، وعظم سلطان المتصوفة في ذينك القرنين، وبلغ مبلغًا عظيمًا، لو لم يكن من قوته، ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة وتجهيلها في طول البلاد وعرضها لكفى، فكيف إذا تبنّته الدولة، وناصره الحكام، وكانت نظرة المتصوفة المنحرفة تحترم البطالة، وتبيح التسول، وتصطنع الضيق، وتسعى إلى مواطن الذل، وتغتبط بالهوان، وكانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جدًا، «فما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته! وما أفشل من سافر منهم طلبًا لكسب، أو رغبة في مال! فإن الرزق في طلب صاحبه دائر، والمرزوق في طلب رزقه حائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر. وإذا ما استثنينا التتر، والمغول، فإنّ العثمانيين كانوا الأسوأ بين محتلّي الوطن العربي وغاصبيه، كما أنّهم مهّدوا الطريق أمام الاحتلال الأوربي للدول العربية، فالقبائل التركية التي اجتاحت جحافلها الدول العربيّة، كانت تفتقر لأبسط المقوّمات الحضاريّة، والإنسانية، وليس هذا بمستغرب على الدولة العثمانية التي قامت في أساسها وبداياتها الأولى على الغدر، حتى بالمسلمين، الذين يخالفونها التوّجه، فقد غدر القادة العثمانيون بالسلاجقة وسلاطينهم ، الذين كانوا سبباً في نشوء أول إمارة عثمانيّة في آسيا الصغرى، وقد بدأت تلك الإمارة بالتوسع على حساب ممتلكات الدولة السلجوقية المسلمة، وهو ما يعني أنّ البدايات الأولى للعثمانييّن لم تكن موّجهة ضدّ (الشرك والمشركين)، ولم تكن امتداداً للحروب الإسلاميّة التي انطلقت مع بزوغ الإسلام، بل إنها

كانت محاولة للتوَّسع على حساب دولة أخرى تعتنق الإسلام، وتدين به «تماماً كما يفعل الأتراك اليوم». والحقيقة أنَّ معظم الحروب التي خاضها العثمانيون عبر تاريخهم، كانت ضدَّ المسلمين في المقام الأول، كما هو الحال مع أسرة الخان، والدولة الصفوية، ودولة المماليك، كما تميز العثمانيون بالتآمر، والحقد، وخيانة الحلفاء والأصدقاء. ولم تكن ثقافة التجهيل، وتدمير الحضارة مقتصرة على دولة دون الأخرى من الدول العربية التي احتلها العثمانيون، بل إنها شملت الدول العربية جميعها التي عانت من الكابوس العثماني الطويل، ويصف الدكتور حسنين فوزي أستاذ علم المحيطات في كلية العلوم بجامعة الإسكندرية الاحتلال العثماني لمصر بقوله: «لا أحسب مصر، في تاريخها الطويل، عرفت عهداً أظلم من تلك القرون الثلاثة، بل الأربعة التي مرَّت على مصر، بعد موقعة مرج دابق بالشام وموقعة سنبل علاَّن بمشارف القاهرة». ذلك أنَّ السلطان سليم حين غزا مصر، وضع حداً لألف سنة من الاستقلال الذاتي، بقتل طومان باي قائد المماليك، ودمّر بصورة منتظمة،- ثروة مصر في العصور الوسطى، وفنونها، وصناعتها، وثقافتها. ويؤكد الدكتور عفيف البوني: «إنَّ العثمانييّن قاموا بنهب ثروات تونس، وأفقروا الثقافة العربيّة الأصيلة روحيّاً، وعملوا على تتريك نمط الحياة، وإفساد الإدارة، ولذا أُنهك اقتصاد تونس، وأصيب الشعب فيها باستلاب سياسي، واقتصادي ترك آثاره في مختلف مناحي الحياة، الأمر الذي أدى إلى خلق فراغ سياسي، وضعف اقتصادي خطير، أنهك مقاومة الشعب، ممّا مكّن الفرنسييّن من احتلال البلاد في مراحل لاحقة، كما ساهم العثمانيّون في تشويه الصورة الناصعة للإسلام، بإجبارهم الناس على الدخول في الدين الإسلامي، وأخذهم الأطفال من أبناء غير المسلمين، وتجنيدهم في الجيش الانكشاري، مخالفين بذلك قوله تعالى: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾. وفي المراحل الأخيرة من احتلال

الدولة العثمانيّة للوطن العربي، بدأ تنفيذ المخطط الصهيونيّ لاحتلال فلسطين، وذلك مع بدء الصهاينة الهجرة الأولى عام ١٨٨٢م إلى فلسطين بموافقة السلطان العثماني، وقد استمرت هذه الهجرة بالتزايد حتى أصبحت، في مراحل لاحقة، تشكّل تهديداً حقيقياً للوجود العربي في فلسطين، كما عمد العثمانيّون إلى القيام بمجازر تاريخيّة منظّمة ضد خصومهم، ومخالفيهم، إذ تمَّ إعدام أكثر من مليون ونصف أرمني، وتشريد الباقين،كما عمدوا إلى إحراق مخالفيهم، تماماً، كما يفعل أحفادهم اليوم، فقد أحرق العثمانيّون ١٥٠٠أرمني أحياء لجؤوا من ماكينة الذبح العثمانيّة إلى كاتدرائية مدينتهم، فتمَّ إحراق الكاتدرائية بمن فيها.

واليوم يستعيد العثمانيّون الجدد سياسة أجدادهم في العراق، وسوريا، والوطن العربي والعالم الإسلامي بأسره، من خلال عدائهم للعروبة، وأهلها وإثارتهم للفتن الطائفية، والمذهبيّة، واستخدام الميليشيات المذهبيّة التكفيريّة الاحترافيّة للقيام بهذا، رغبة منهم في استعادة السيطرة على المشرق العربي وغيره إن استطاعوا.

مقدمة

أكدت الديانات السماوية قاطبة على أهمية التعليم والتعلّم، وحثّ الدين الإسلامي على السعي في طلب العلم مهما كانت الصعاب والمعاناة كبيرة، فقد ورد في الحديث الشريف: «اطلبوا العلم ولو في الصين»[1]، وقد دأبت الكنائس المسيحية على فتح المدارس لتعليم الناس، ومع أن الأهداف كانت سياسية، فإن تلك المدارس أسهمت في زيادة المعرفة، وقد عملت المرجعية الإسلامية على إقامة المدارس وتقديم الدعم المادي والمعنوي، مع تأييدٍ ودعمٍ من السلطة الحاكمة. لذا، سارت الدولة العثمانية على نهج الدول الإسلامية التي سبقتها، ودأبت على تشجيع التعليم، ومنحت العلماء مكانة مرموقة بين طبقات المجتمع العثماني، وحذرت ولاتها من إهانة العلماء أو الإساءة إليهم.

والحقيقة أن مدينة دمشق سبقت مدينتي بغداد والقاهرة إلى تأسيس المدارس والعناية بها، والاهتمام بطلبة العلم فيها وتقديم كل مايحتاجونه.

فبغداد لم تعرف المدارس بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا عندما بوشر بالتدريس في المدرسة النظامية، وذلك في سنة ٤٥٩هـ -١٠٧٧م، أي بعد نصف قرن على إنشاء المدرسة «الصادرية» و«الرشائية» بدمشق.

---

(١) رواه أبو نعيم في أخبار أصفهان وأبو القاسم القشيري في الأربعين (١٥١) والخطيب في التاريخ (٣٦٤/٩) والبيهقي في المدخل (٣٢٤/٢٤١) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٧/١-٨) من طريق الحسن بن عطية حدثنا أبو عاتكة عن أنس مرفوعاً.

فالرشائية : أسسها مقرئ دمشق رشأ بن نظيف في حدود سنة أربعمئة ونيف.

والصادرية: أنشئت في سنة ٣٩١هـ -١٠٠٠م، أسسها شجاع الدولة، صادر بن عبد الله، وهي على المذهب الحنفي.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد سبقت غيرها من الدول والإمبراطوريات في افتتاح المدارس العامة ومدارس التعليم الخاصة لأبناء الأمراء ورجال البلاط، إلا أن الدولة المملوكية قد أسهمت في التعليم لاسيما التعليم الديني، لكن الدولة العثمانية تجاهلت مدارس المماليك بعثمنتها أي أنها لم تبقها على طابعها التعليمي والإداري المملوكي لها، فضلاً عن ذلك، فقد افتتحت مدارس لتعليم الإنكشارية التي غدت العصب الحيوي لدولتها الفتية، وإذا كان التعليم في الدولة العثمانية قد شهد تراخياً إدارياً وسلطوياً غير مقصود، فإن السلاطين عانوا من هذا لتجاهلهم مبادئ المؤسس عثمان غازي (٦٨٠-٧٢٥هـ/١٢٨١-١٣٢٤م)، إلا أن محاولة سلاطين الإصلاح النهوض بالدولة من مختلف نواحيها لاسيما التعليم وإعطاءه أولوية مهمة إلى جانب القضاء، أسهم في تسارع خطوات السلاطين العثمانيين للحاق بالركب الحضاري الذي سبقتهم إليه الدول الأوروبية بأشواط، وكان من الصعب على الدولة العثمانية اللحاق به لولا توجهها إلى التعليم وافتتاح المدارس، ولم تكتف الدولة بالاهتمام بمركزها، بل أولت اهتمامها إلى الولايات التابعة لها، وكانت ولاية دمشق من أولى الولايات التي أنشئت فيها المدارس، وعُدّت الولاية الثانية بعد ولاية بيروت من حيث عدد المدارس الدينية والمدنية، وتوافد إليها طلاب العلم من مختلف المناطق نظراً للمكانة التي تحتلها سياسياً واقتصادياً، ولاسيما سياسة حُسن التعامل مع الغرباء، إضافة إلى موقعها الجغرافي، وتوافر المواد المعيشية فيها.

وقد اهتمَّ السلاطين العثمانيون بالمدارس اهتماماً كبيراً، ولم يبخلوا عليها بأي نوع من أنواع الدعم المادي والمعنوي، ومع أن الغالبية العظمى من طلاب

هذه المدارس كانوا من غير المسلمين (مسيحيين ويهود)، فإن بعض هذه المدارس استقبلت الطلاب المسلمين. وقد حظيت المدارس المسيحية بدعم من الدول الأوروبية، وكذلك المدارس اليهودية، لكن الجالية اليهودية غير المستوطنة في دمشق لم تجاهر بسياستها التعليمية، بل كانت بسيطة وغير ممنهجة كالمدارس المسيحية التي حملت بين طياتها أهدافاً تبشيرية، وبفضل التعايش الذي عاشه المسلمون والمسيحيون أُسقطتْ المحاولة وأُفشلتْ، واضطرت المنظمات الدينية المسيحية إلى التخلي عن سياستها التبشيرية المكلفة بها.

لقد تميزت الولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية ولاسيما دمشق باتباع سياسة تسامحية مع إخوانها المسيحيين، لأنهم جزء من النسيج الوطني، كذلك فإن المسيحيين أسهموا في النهضة العربية بإدخالهم وسائل الطباعة الحديثة وتوزيع المطبوعات، وتنظيم البرامج اللازمة، وانسجموا انسجاماً عضوياً بالتعليم وافتتاح المدارس واقتناء المكتبات التي هي جزء من تراثهم الديني والوطني.

لم تأمل ولاية الشام (دمشق) من السلاطين العثمانيين أكثر من السماح لها بافتتاح المدارس ورفع أيديهم عنها، وقد كانت استجابة الدولة كبيرةً فهي لم تكتفِ بافتتاح المدارس الرسمية والأهلية، بل قدمت للأهالي دعماً سياسياً واقتصادياً حيث أجازت لهم استيراد لوازم ومعدات التعليم من أوروبه، وكلفت الولاة بالإسهام في تأمين حاجات المدارس وطلابها، علماً بأن الدولة العثمانية حافظت على حقوق الأقليات من مسيحيين ويهود بكل أطيافهم، وتفيد معظم المصادر العثمانية أن الدولة لم تجد وسيلة أنجع من تشجيع سياسة أهالي دمشق لحسن تعاملهم ليس مع إخوانهم فقط، بل مع ضيوفهم من أتراك وأوروبيين أيضاً.

ويهدف هذا الكتاب إلى إيضاح واقع التعليم والمدارس التي تم افتتاحها قبيل القرن التاسع عشر، والمدارس التي افتتحت في القرن التاسع عشر، خلال أيام

سلاطين الإصلاح: السلطان عبد العزيز (١٢٧٨-١٢٩٢هـ /١٨٦١-١٨٧٥م) والسلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)، وما هو دورهم؟ وماذا قدموا للولاية من مختلف النواحي ولاسيما في مجال التعليم؟

كما يهدف إلى إيضاح المواد التي كانت تُدرَّسُ في تلك المدارس، وعدد الطلاب؟ وكيف كان يُعامل المُعلِّم معنوياً ومادياً؟ هذه التساؤلات كُلّها يجيب عنها الكتاب من خلال الأهداف التي يسعى إليها، وتذليل بعض الإشكاليات التي تواجه الدارسين لتلك الفترة، التي تناولتها بعض الأقلام دون الرجوع إلى الوثائق العثمانية والمصادر والمراجع التي توضح سياسة الدولة العثمانية التعليمية، وماذا قدمت للولاية من خدمات سهلت المسألة التعليمية فيها؟

أما مشكلات الكتاب أو إشكاليته، فتتعلّق بواقع الولاية سياسياً واقتصادياً وواقع الأهالي، وموقفهم من الدولة العثمانية، وموقفهم من تعليم الإناث ولاسيما المسلمات.

وقد تطلعوا إلى أن تتفوق الفتاة المسلمة تعليمياً بما لا يتعارض مع الشريعة، ولكن هل يجوز لها الانخراط في المدارس المختلطة بالمسيحية أو اليهودية؟ وهي ناحية تُعد من أبرز الإشكاليات التي وقف عندها الكتاب وأكثرها تعقيداً، لأن الكثير من الأهالي استفتى العلماء في تعليم الفتيات؛ غير أن الأعيان وكبار العائلات ورجال المناصب أرسلوا بناتهم إلى المدارس دون الاهتمام بما يشاع عن تعليم الفتاة.

إن تأليف كتابٍ بهذا الموضوع شاق وصعب ومعقد؛ لأن مصادره شبهُ نادرة، ولاسيما في مدة الدراسة، ويُعّد كتاب «الدارس في تاريخ المدارس» لمؤلفه عبد القادر محمد النعيمي بجزئيه من أكثر المصادر التي اهتمت بالتعليم ما قبل التنظيمات، ويليه في الأهمية «خطط الشام» لمؤلفه محمد كرد علي، وكذلك كتاب «منادمة الأطلال ومسامرة الخلاّن» لعبد القادر بدران،

إضافة إلى وجود مخطوطات في مكتبة الأسد الوطنية. كذلك أفادتنا التقويمات السنوية (السالنامات).

أما عن التعليم الديني فقد تمَّ الاستفادة من كتاب أحمد حطيط بعنوان «قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري».

ومن المراجع التي اعتمد عليها الكتاب: مُؤلَّف عدنان الخطيب عن الشيخ ضاهر العمر، ومؤلف محمد جميل الشطي «روض البشر في أعيان القرن الثالث عشر»، ومؤلف يوسف عبد الهادي «ثمار المقاصد في ذكر المساجد»، ومؤلف المرادي «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر»، وغيرها من المصادر والمراجع التي أغنت الكتاب وسهلته.

لقد اعتمد الكتاب على المنهج الاستقرائي التحليلي، فقرأ الأحداث وحللها حسب واقعها، ولإتمام مسألة القراءة الناضجة أخضع التحليلات إلى المنهج العلمي المقارن النقدي بهدف الوصول إلى قراءة تخلو من العواطف والانفعالات أو التحيز لطرف دون آخر وصولاً إلى المنهج التركيبي الذي يجمع الأحداث ويحللها ويُعيد تركيبها بدقة.

محمد إبراهيم الحوراني

الفصل الأول

السياسة التعليمية في الدولة العثمانية
خلال القرن التاسع عشر

١- اهتمام السلاطين بالتعليم .

٢- التعليم في الدولة العثمانية قبل التنظيمات (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) .

أ - التعليم الحكومي الحديث .

ب- التعليم الأهلي (تكايا وزوايا) .

ج- التعليم في عهد السلطان عبد الحميد الأول (١١٨٨-١٢٠٤هـ/ ١٧٧٤-١٧٨٩م) .

د- التعليم في عهد السلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ/١٧٨٩- ١٨٠٧م) .

٣- حركة الإصلاح وانعكاساتها على التعليم (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) .

٤- التعليم في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥هـ/١٨٠٨-١٨٣٩م).

٥- التعليم في عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥-١٢٧٨هـ/١٨٣٩-١٨٦١م) .

٦- دور خط شريف كلخانه في تطوير التعليم (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) .

٧- النشاط التعليمي في دمشق خلال القرن التاسع عشر .

أولاً: مدارس قبل التنظيمات :

أ- المساجد والجوامع .

ب- الكتاتيب .

ج- الزوايا والربط والتكايا :

١ - المدارس غير الدينية :

٢- المدارس المذهبية .

١- مدارس الشافعية .

٢- مدارس الحنفية .

٣- مدارس الحنابلة .

٤- مدارس المالكية .

٨- المدارس الإسلامية الخاصة في دمشق .

- استنتاج الفصل الأول .

دأب العثمانيون منذ نشوء دولتهم على اعتماد التعليم والقضاء كأسس رئيسة لتوطيد أركان دولتهم، وإذا كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية بامتياز، فإنّ سلاطينها تمكنوا من إقامة توازن منطقي مع الجوانب الأخرى التي تسهم في توازن دولتهم للمحافظة على خطواتها التوسعية من جهة وعلى تقويتها وتثبيت أركانها بالعلم من جهة أخرى.

اعتمد العثمانيون تجاهل الماضي تحاشياً لإشكالات كثيرة قد يقعون فيها، ولهذا فعندما فكّر سلاطين الإصلاح بالسعي إلى التخلص سن كابوس الإنكشارية، لم يفكروا بما قدمته من خدمات، علماً بأنها منحت سلاطين القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر مرجعية البت في السياسة الدولية، وأن رأيها يحدد الغالب والمغلوب على مختلف الأصعدة المحلية والدولية.

لقد تناسى سلاطين الإصلاح الماضي بكل انتصاراته ومآسيه، وسَعوا جادين لبناء دولة تعتمد الأنظمة والأساليب الحديثة المتطورة، وأدركوا أن التعليم هو السبيل الأنجع للّحاق بالركب الحضاري، فضلاً عن ذلك، فقد أدرك الساسة العثمانيون أن الدول الأوروبية، بدأت بالتسلل السياسي والاقتصادي العلني إلى ولاياتها متذرعة بأسباب من أبرزها حماية الأقليات، ولاسيما في سورية ولبنان، وحماية الأماكن المقدسة في فلسطين من الخطر الروسي، متجاهلة، عن قصد أو من غير قصد، توافد البعثات الدينية الأوروبية إلى سورية ولبنان، حيث أقامت تلك البعثات مدارس ومشافيَّ خاصة بالمسيحيين على مختلف أطيافهم، وتذرعت بالامتيازات التي منحت لهم منذ الثلاثينيات من القرن السادس عشر، واحتموا أيضاً باسم المستأمنين وغيرها من الحجج الواهية التي أرغمت الدولة العثمانية على قبول الواقع، خاصة بعدما قضى السلطان محمود الثاني على

الإنكشارية سنة ١٨٢٦م، واستبدل ابنه عبد المجيد أنظمة دولته بأنظمة مستوردة من أوروبه ومستوحاة بالدرجة الأولى من القوانين الفرنسية(١).

ولئن كانت النهضة الأدبية والفكرية العربية، قد تزامنت مع مرحلة الضعف العثماني، وزيادة الأطماع الأوروبية في أملاك السلطنة العثمانية، في وقت كان «سلاطين الإصلاح» عاجزين عن اتخاذ قرارات حاسمة في مجمل القضايا من دون الحصول على موافقة كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا، فإن تحركات محمد علي باشا وتجاوزاته حدود أطماعه، دفع الدول الأوروبية إلى مساندة سلاطين الدولة العثمانية، ولاسيما عندما حاول إبراهيم باشا تجاوز كوتاهية(٢).

لم تكن مساندة فرنسا وبريطانيا للسلطان العثماني للحفاظ على دولته، كما تصور بعض المؤرخين ولاسيما العثمانيين منهم؛ بل حفاظاً على مصالحهما، ولهذا مارست الدولتان الأوروبيتان ضغطاً على محمد علي لإرغامه على توقيع معاهدتي لندن الأولى والثانية (١٨٤٠ و ١٨٤١م)(٣).

١ – اهتمام السلاطين بالتعليم:

أدرك الغازي عثمان وخليفته أورخان منذ اتخاذ "بورصة" عاصمة لدولتهم الناشئة أن توطيد دولتهم هذه لن يتحقق إلا بالانخراط في نظام المؤسسات، ولاسيما التعليمية والقضائية المعتمدة للمنطقة التي استوطنوا فيها وأصبحوا جزءاً رئيساً منها. وبعدما تأكدوا من ثبات دولتهم اتجهوا إلى التعليم فطبقوا مؤسسات شبه تربوية وتعليمية، وعُدّت خطوتهم هذه أول خطوة فعلية تُعتمد في هذا المجال، ثم عمدوا إلى ما يشبه الدعاية العلنية وهي الحضّ على التعليم، فقدموا جوائز نقدية إلى العلماء الذين ألفوا كتباً تربوية وتعليمية أمثال

---

(١) Move ley, the life of william, ewart gladstone, vol, 1 (1801-1857) London, 1903, P 476.

(٢) Ismail hakki, osmanli tarihi, ankara 1954, S. 129.

(٣) نادر العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، ج١، مطبعة الإنشاء بدمشق ١٩٦٢م، ص٢١٧.

«لطفي باشا» و«قوجي بك» و«حسن بك زاده»، ويُعد لطفي باشا من خيرة المؤلفين في مجال التربية والتعليم ولاسيما مؤلفَّه «أصفنامه» حيث تضمن مؤلَّفه هذا معاني وتراكيب لفظية، علماً بأنها لم تكن مفهومة آنذاك وثقيلة الفهم على طلاب العلم.

لقد وجَّه السلاطين الأوائل أنظار علمائهم للاستفادة من العربية والفارسية ولاسيما الكلمات الشعبية والأمثلة المتداولة، كما شجعوا فتح المدارس، وأسندوا التدريس إلى علماء عرب وفرس ممن كانوا يتقنون اللغة العثمانية[1].

توافد المدرسون من بلاد الشام واليمن للتدريس في المدن العثمانية؛ مثل بورصة وإزمير واستانبول، وقد قدَّم هؤلاء المدرسون النموذج المثالي للتدريس والتعليم، وفي الوقت نفسه قوبل جهدهم ونشاطهم من قبل الإدارة العثمانية بالاحترام والتقدير، وقدِّمت لهم مكافآت مجزية، كما قدِّمت للمؤلفين العثمانيين أموالاً كثيرة عن جهدهم في التأليف وكتابة التاريخ العثماني[2].

٢- التعليم في الدولة العثمانية قبل التنظيمات (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م):

اعتُمد منذ بداية قيام الدولة على مدارس التعليم العام، وقد أشرفت الدولة على تلك المدارس، حيث أنشئت هذه المدارس على النمط السلجوقي وإمارات الأناضول، غير أنهم بدؤوا بتطوير المدارس مستفيدين من واقع المنطقة وخبرات بعض المدرسين من عرب وفرس، كما استمدوا تدريس العلوم التعليمية الفلسفية من بغداد وسمرقند.

وتُعد المدرسة التي أنشأها الغازي أورخان سنة (٧٣٥هـ-١٣٣٤م) من أوائل المدارس التعليمية في مناطق الأناضول عامة والدولة العثمانية خاصة، وكان من أوائل المدرسين في تلك المدرسة «داود القيصريِّ» الذي

(١) جاويش بينار، الحركة العلمية في الأناضول ١٣٠٧هـ، ص ٥٧.

(٢) رجب سليمان ثروت، الحركة العلمية والسلاطين الأوائل، إزمير ١٣١٧هـ، ص ١٧١.

تلقى علومه الدينية من قيصري والقاهرة؛ وأفادت الوثائق ومجالس مخصوص أن المدارس رافقت نشأة الدولة مرحلة مرحلة، لأن السلاطين الأوائل عمدوا إلى عثمنة الدولة من خلال التعليم؛ لأنه الوسيلة الوحيدة للنجاح، كما شجعوا تدريس المنطق، وعلم الكلام، وعلم الحديث، والبلاغة والنحو، والرياضيات، وغدت المدارس العثمانية تدرّس تلك المواد إضافة إلى اللغة العثمانية[1]، ولهذا فقد ضمت الحياة التعليمية آنذاك مجموعتين رئيسيتين:

أ – التعليم الحكومي الحديث:

إن تطور الحركة العلمية ومسايرتها للنشاط العسكري للدولة وتوسعاتها أسهم في إنشاء مدارس مواكبة للحركة العلمية التي شجعتها الدولة، ولم تكن المدارس الحكومية وقفاً على مركز الدولة ومدنها الرئيسة[2]؛ بل افتتحت في معظم ولاياتها ولاسيما دمشق.

١ – مدارس حاشية التجريد (ذات العشرين):

سميت بهذا الاسم لأنها تنضوي تحت كتاب اسمه «حاشية التجريد» للسيد الشريف الجرجاني، وهو كتاب خاص بعلم الكلام، مضافاً إليه «تجريد الاعتقاد» أو «تجريد الكلام» لنصر الدين الطوسي، كذلك فإن هذه المدارس اهتمت بتدريس كتاب «شرح الفرائض» للسيد الشريف وكتاب «المطوّل في البلاغة» لسعد الدين التفتازاني[3].

٢ – مدارس المفتاح (الثلاثينية):

وهي تحمل اسم المفتاح تيمناً بكتاب «المفتاح في البلاغة» لمؤلفه سعد الدين التفتازاني، وقد دُرّس في هذه المدرسة كتاب «التنقيح والتوضيح» في الفقه،

---

(١) بينار، مصدر متقدم، ص ٨٥.

(٢) كوك بلقين، المؤسسة العلمية في بورصة، أنقرة ١٩٦٨م، ص ٢٦١-٢٧٣.

(٣) أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، استانبول ١٣٠٩هـ، ج١، ص ٣٨٧.

وتفيد الوثائق عن السلطان محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ/١٤٥١-١٤٨١م)، أنه طلب من هيئة التدريس تدريس «مفتاح المعاني»، وكتاب «صدر الشريعة» في تلك المدرسة[١].

٣- مدارس الخمسينيات :

سميت بهذا الاسم؛ لأن المدرسين يتقاضون خمسين أقجة، وقد أنشئت هذه المدارس منذ العصر السلجوقي، وعمل العثمانيون على تطويرها وتدريس المواد الرئيسة والمهمة في تلك المدارس، وعلى وجه الخصوص علوم الدين والفقه، حيث خصص تدريس «الهداية في الفقه» و«التلويح في أصول الفقه «للبخاري» في الحديث الشريف، والكشاف، و«البيضاوي في التفسير للبيضاوي»، وقد وسّع السلطان محمد الفاتح من اختصاصات تلك المدارس، وجعل فيها قسماً داخلياً[٢].

٤- مدارس الصحن الثماني[٣]:

أنشئت هذه المدارس الثماني من قِبَل السلطان محمد الفاتح، وخَصص قسماً من جامعه لتلك المدارس التي تُعد من أرفع المدارس العثمانية وأعلاها شأناً ومكانة. ويتقاضى فيها المدرسون أجراً قدره خمسون أقجة يومياً.

ومع مرور الأيام ونظراً للتفوق العلمي الذي حققه طلاب تلك المدارس والسمعة الحسنة لها، عمد السلطان سليمان القانوني (٩٢٧-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م) إلى إنشاء مدارس الستين والسبعين والثمانين وحتى التسعين أقجة للمدرّس باليوم الواحد، وقد دُرّس في مدارس الصحن الثماني «الهداية في

---

(١) أحمد طاشكبري زاده، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، استانبول ١٣٩٥هـ، ص ٨٧، وقد ترجم هذا الكتاب في بيروت سنة ١٩٧٩م.

(٢) بلقين، المرجع السالف، ص ٢٨٣.

(٣) كلمة صحن عربية الأصل، وتعني بالعثمانية الميدان الفسيح، والثماني عربية الأصل وبالإجمال عني بها «المدارس الثماني»، وقد استقبلت الطلاب بعد المرحلة الابتدائية.

الفقه»، و«التلويح»، و«شرح النصوص» في أصول الفقه، والبخاري في الحديث الشريف، و«الكشّاف» و«البيضاوي في التفسير»، وكان الخريج من تلك المدارس ينال احترام العلماء والفقهاء.

٥- مدارس الستينيات[١]:

سميت بهذا الاسم؛ لأن مدرسيها يتقاضون أجراً قدره ستون أقجة، وكان يدرّس فيها «علم الهداية» «وشرح الفرائض» في الفقه، و«التلويح في أصول الفقه»، و«شرح المواقف» في علم الكلام و«البخاري» في الحديث الشريف، وعلم التفسير.

وقد حظيت المدارس باهتمام السلاطين العثمانيين حيث واظبوا بشكل منظم وعلمي على مراقبة برامج التدريس في مختلف المدارس، كما حضّوا المدرّسين على اعتماد الجدية وتدريب الطلاب على حسن تلاوة القرآن والخطابة وقراءة سيرة الخلفاء الراشدين، ومنحوا الجوائز للمتفوقين سواء للطلاب أو للمدرسين[٢]، ومن المدارس التي أنشأها السلطان سليمان القانوني:

١- المدارس الابتدائية الخارجية.

٢- المدارس الابتدائية الداخلية.

٣- مدارس الحركة الخارجية.

٤- مدارس موصلة صحن[٣].

كما وجدت مدارس مماثلة لها في كل من القدس وحلب ودمشق وسلانيك ويني شهر وإزمير وصوفيا وطرابزون[٤].

---

(١) أحمد سليم طاشا، المدارس ومهامها العلمية، أنقرة ١٣٢٩هـ، ج٣، ص ٥٨.

(٢) نامق كمال، الطرائق ،مجلة الترقي، عدد (٩١) ١ كانون الأول سنة ١٨٧٣م.

(٣) نامق كمال، مدنيات، مجلة العبرة، العدد ٤٨، ١٨ آذار ١٨٧٣ م.

(٤) محمد سامي الدين أوغلو، المجلس المخصوص في دور التنظيم ١٨٣٨-١٨٦٨م، أنقرة، ١٩٩٤م، ص ١٤٤.

ب – تعليم التكايا والزوايا:

أما المجموعة الثانية من التدريس والتعليم، فقد اقتصرت على التكايا والزوايا، الدينية وأصحاب الطرق الصوفية، وقد راقبت الدولة بعناية التدريس في تلك التكايا والزوايا؛ وحذّرت أصحابها ومدرسيها من التطرف في تعليمها للطلاب؛ لأن الدولة العثمانية غير مؤهلة للتطرف، لمجاورتها للدول الأوروبية.

وحينما تولى السلطان عبد الحميد الأول الحكم (١١٨٨-١٢٠٤هـ/ ١٧٧٤-١٧٨٩م) عمد إلى إغلاق عدد من المدارس الدينية التي لا تشرف الدولة عليها. علماً بأنه وُضع في الغرفة الفولاذية خمسين سنة، وربما هذا ما دفعه إلى الاهتمام بالتعليم وتخصيص أموالٍ للمدارس والمدرسين(١).

ج – التعليم في عهد السلطان عبد الحميد الأول (١١٨٨-١٢٠٤هـ/١٧٧٤-١٧٨٩م):

أفادت المصادر العثمانية أن السجن الذي عاناه السلطان عبد الحميد الأول أيقظ فيه ضرورة التخلص من الروتين المزمن الذي يطبق على الدولة العثمانية(٢)، فوقَّع معاهدة «قينارجه» مع روسيا أملاً في توجيه أنظاره إلى دولته التي أكلتها الفوضى وعمت ولاياتها الانتفاضات المحلية كالموره ومصر ولبنان، وحالما فرغ من مشاغل القصر عمد إلى إصلاح أوجاق المدفعية

(١) بينار، مصدر متقدم، ص ١٣٧.

(٢) أفادت المصادر العثمانية أن عبد الحميد الأول سجن في الغرفة الفولاذية مدة خمسين سنة، وكان السلطان أحمد الأول ١٠١٢-١٠٢٦هـ/١٦٠٣-١٦١٧م، قد ألغى مرسوم قتل الأخوة الذي أصدره السلطان محمد الفاتح سنة ٨٦٦هـ/١٤٦٢م، للمزيد انظر: محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني بيروت ١٩٥٤م، ص١٥-١٦.

(طوبجي أوجاغي)، وأوجاق حفاري الإنفاق (لغمجي أوجاغي)[1]، ثم اتجه إلى التعليم، فأمر بتوسيع مدرسة الرياضيات التي أنشأها مصطفى الثالث (١١٧١-١١٨٨هـ/١٧٥٧-١٧٧٤م) وأغدق الأموال عليها، وأمر بإلغاء كل مدرسة غير تابعة لنظارة المعارف، وجدد المدارس وأمر بتنظيمها، وكلف الصدر الأعظم محمد باشا الأسود بالإشراف عليها، وبعد وفاته عُيِّن خليل حامد باشا صدراً أعظم وكلفه بالإشراف عليها، وحذَّر رجال البلاط من التدخل في شؤون المدارس، كما كلَّف العلماء بالإشراف على المدارس[2]، ومنع مفتي الإسلام من تعيين المدرسين، وأجاز للخريجين أن يصبحوا قضاة إذا اجتازوا الامتحان، كما عمد إلى إلغاء فرمانات من سبقوه، وشكَّل لجاناً علمية لاختيار المدرسين، وأجاز لقاضي الإسلام أن يكون مراقباً على عدالة ودقة الاختيار[3].

أجمعت المصادر والمراجع على أن التطور الذي شهده التعليم في عهد السلطان عبد الحميد الأول قد سبق عصره بعدة مراحل، فلقد استفاد من الخبرات الأوروبية، وسهر بنفسه على مراقبة الهيئة العليا المسؤولة عن المدارس وبرامجها، وكلفَ الصدور العظام آنذاك بتقديم تقارير عن الخطوات التي تحققت في مجال التعليم؛ لأنه أزال المعوقات كلها التي تعيق تطوير التعليم، وأجاز للمدرسين أن يُدِّرسوا مختلف العلوم، وأدخل اللغات الأوروبية في المدارس الإعدادية، وركز بشدة على الدراسات اللغوية والنحوية لكبار المؤلفين والمهتمين بالشعر والأدب[4].

---

(١) أوجاق: مصطلح عسكري اشتق من لفظة الموقد الذي يستخدم في التدفئة شتاءً، وهنا يأتي بمعنى «الفرقة»، وقد أطلق على العساكر العثمانية في مناطق الشمال الأفريقي (أوجاق الغرب).

(٢) أورهان هاوونتش: تطور المدارس في عهد السلطان عبد الحميد الأول، أنقره ١٩٦٨م، ص ١٧.

(٣) المرجع السالف، ص ٢٠.

(٤) جودت باشا: مصدر متقدم، ج١، ص ٢٥٧، (آثرنا عدم التعرض هنا للدراسات الدينية سواء الحكومية أو الأهلية (التكايا والزوايا) لأننا سنعالجها في الفصل الرابع.

د – التعليم في عهد السلطان سليم الثالث

(١٢٠٤-١٢٢٢هـ/١٧٨٩-١٨٠٧م):

لم تكن طفولة سليم الثالث أقل تعاسة من أبناء عمومته، ولهذا فور استلامه العرش عمد إلى إجراء إصلاح جريء، فأنشأ فرقة من العسكر سماها (الجند الجديد) وألزمه بلباس مغاير للإنكشارية، وخصَّه بميزات أكثر من مميزات الإنكشارية، وكأنه أعلن الحرب على نفسه(١).

دأب السلاطين العثمانيون على إلغاء فرمانات أسلافهم، وظهر جلياً للقارئ أن معظم السلاطين العثمانيين تنافسوا في تحسين التعليم ومنح المعلمين رواتب.

ولمّا كان السلطان سليم الثالث أكثرَ ثقافة من أسلافه ولاسيما السلطان عبد الحميد الأول، فقد توسع في زيادة المواد التدريسية، وأكثر من التخصصات، وجدد بناء المدارس القديمة(٢)، وأقام مدارس متطورة بناءً وكوادر، وخصص لطلاب المدارس لباساً خاصاً بهم، وافتتح مدارس للجميع يحق لعلية القوم أن يرسلوا أبناءهم إليها(٣)، وعيّن موظفين على المدارس للإشراف على نظافتها.

كما طلب من المدرسين إجراء اختبارات شهرية للطلاب وإعلام ذويهم بمستوى أبنائهم، وخصص للمتفوقين مكافآت وهبات مادية وعينية، وفي سنة (١٢١٤هـ/١٧٩٩م) أمر بإنشاء مدارس للصبيان، وهي مدارس مفتوحة للجميع.

---

(١) هاووتش: مرجع متقدم، ص ١٢٢.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء: إرادة داخلية رقم ٣٦٨٥ لف ٢ و٣.

(٣) لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية وولاياتها يتم الخلط ما بين أولاد الخاصة وأولاد العامة، وقد حذرت الفرمانات من التفريق في المعاملة أو اللباس.

لم تكن إجراءات السلاطين بدءاً من السلطان سليمان القانوني حتى سليم الثالث وقفاً على استانبول؛ بل أجمعوا على أن فرماناتهم تشمل الولايات، وعلى الصدور العظام إبلاغ الولاة بالإجراءات التي صدرت بشأن تطوير التعليم، ويذكر جودت أنه تم افتتاح ١٣ مدرسة للصبيان في دمشق، و١٧ مدرسة في بيروت، و١٣ في حلب و٩ مدارس في لواء اللاذقية، ١٢ في لواء طرابلس الشام، و١٥ مدرسة في طرابلس الغرب، و١٧ مدرسة في ولاية تونس، و١٢ مدرسة في بغداد، وغيرها من الولايات الأخرى(١).

لقد تم تدريس القراءة والكتابة والقرآن الكريم وغيرها من المعلومات البسيطة التي يمكن للصبيان استيعابها، كما قام مدرسو الصبيان برحلات ترفيهية في مواسم الربيع على نفقات المدرسة، وحُذر المدرسون والمدرسات من تعرض الصبيان للخطر، كما تضمن الفرمان إقامة حفلات في آخر كل سنة احتفاء بالمتفوقين، ولم يكتفِ السلطان سليم الثالث بذلك؛ بل ألغى المدارس الخاصة التي بناها أسلافه لخاصتهم داخل القصور، وأفسح المجال أمام العامة والخاصة للدراسة في مدارس عامة، وألغى أي امتياز حتى لأبناء السلاطين(٢).

كما عدّل نظام مدرسة (الغلمان الأغرار) وجعلها تسعة صفوف بدلاً من سبعة(٣). لذلك فقد كلف لجنة اختيار المدرسين بانتقاء المدرسين الجيدين خُلقاً وخَلقاً، وحذر من انتقاء مدرسين يعانون من عاهات خلقية؛ لأن هذا قد يؤثر على الصبيان وبخاصة النطق السليم.

---

(١) ايستاتستيق عمومي إدارة س، استانبول ١٩٠٢م، ص ١٣.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء: استانبول، إرادة داخلية ٣٦٨٥ لف ٤.

(٣) مصطلح الغلمان الأغرار: يعني الشبان الذين يجمعون من المناطق المسيحية سنوياً بموجب نظام الدفشرمه الذي أصدره مراد الأول سنة (٦٦١هـ/١٣٦٢م) ولفظة دومشرمه (دومشرمه) تعني القطف الجمع، وبموجبها تم جمع الإنكشارية. للمزيد مدحت سرت أوغلو: التاريخ العثماني المصور، استانبول ١٩٥٤م، ص ١٦.

وقد امتازت مدارس «السبع غرف» التي استُبدلت بصفوف، بتدريس كلّ صف علوماً اختصاصية، وفي سنة (١٢١٨هـ ١٨٠٣م) أمر بجعل كل صف مدرسة مستقلة، وأمر بتطبيق هذه التجربة في مختلف الولايات(١).

لم تكن أسس التعليم خلال القرن الثامن عشر تختلف كثيراً عن أسس التعليم خلال القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين، فقد وجد خلال تلك القرون أساتذة مختصون بمواد محددة، كما وجدت المعاهد التي تشرف الدولة عليها وتتحمل نفقاتها، وهناك البروفسور والأستاذ المساعد وغيرهما من الدرجات العلمية، وكان المدرّس غير المختص يتقاضى يومياً خمس أقجات، وله تقاعد دائم إذا بلغ الستين من العمر، أما الأستاذ المختص فكان يتقاضى ١٠٠ أقجة يومياً، والبروفسور ١٥٠ أقجة، وقد أمر السلطان سليم الثالث بدفع رواتب المدرسين والمعلمين في اليوم الأول من كل شهر، وأقام لهم نادياً خاصاً بهم ودائرة تسمى (دائرة حفظ الشيخوخة) تداويهم مجاناً في المشافي الحكومية أو المشافي العسكرية على حدٍ سواء(٢).

لم يكن نظام التعليم في الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر وما قبله أو بعده يجيز غير شعبتين للصف الواحد، ونص نظام نظارت المعارف على ألا يزيد عدد طلاب الشعبة عن ثلاثين طالباً، وإذا زاد العدد عن ذلك يوزع الزائد من الطلاب على المدارس الأقرب لسكن هؤلاء الطلاب، أو يتم استئجار بناء قريب ريثما يتم بناء مدرسة بحسب المواصفات المتفق عليها(٣).

يذكر جودت باشا في مؤلَّفه: «أن السلطان سليم الثالث دأب على عقد مجلس للعلم مؤلف من مقرر واحد يحضره سبعة أو ثمانية من فحول العلماء،

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء: استانبول، إرادة داخلية ٣٩٥٧ لف ١ و ٢.

(٢) جودت باشا: مصدر متقدم، ج ٦ ص ٣٠٠.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء: فرمان رقم ٨٥٤ تاريخ ذي الحجة (١٢١٣هـ ١٧٩٨م)، يمكن الاطلاع على قسم الملاحق.

يبدأ سنوياً في الأول من رمضان المبارك ويحضره السلطان أو كبار خاصته يقرؤون فيه «تفسير البيضاوي» ويشارك أولياء الطلاب فيه[١].

وبالرجوع إلى رحلات أوليا جلبي يلاحظ القارئ أن معظم السلاطين اهتموا بالعلم والتعليم وشجعوا بجدية العلماء ومنحوهم الجوائز والهبات وقربوهم من مجالسهم، ويضيف كاتب جلبي نقلاً عن صولاق زاده إن مدينة أزمير وحدها وُجد بها (٩) دور للقراء، ويضيف صولاق عن كاتب جلبي أن هذه الصفة اقتبسها العثمانيون من العرب المسلمين، وأما الرمضانية التي أقرها السلطان سليم الثالث فهي الأخرى إسلامية التراث، لكنها تميزت بحضور السلطان وكبار خاصته، هذه الرمضانية، وهو ما لم يفعله خلفاء العرب وملوكهم[٢].

من يقرأ عن مرحلة ما قبل التنظيمات ولاسيما مرحلة القرن الثامن عشر، يجد أن التعليم في الدولة العثمانية ترافق مع المراحل التي مرت بها الدولة العثمانية قوة وتوسعاً ثم ضعفاً وجموداً، لكنه لم يصل إلى مرحلة الفساد الأخلاقي الذي تسلل إلى الدولة، فقد ظل المدرسون والمعلمون ملتزمين بمبادئهم الأخلاقية من حيث العطاء وتقديم الأجود علماً وخلقاً إلى الطلاب، لكن المدارس تعرضت إلى فوضى في عمل موظفيها، وتخلفت الإدارة عن دفع رواتب المدرسين والمعلمين، علماً بأن كثيراً من المدارس قد تدفع الأهل داخل أملاك الدولة أو في ولاياتها وعلى الأخص ولايات بلاد الشام (بيروت ودمشق وحلب) لتقديم المساعدات المادية للطلاب وللمدرسين على حد سواء)[٣].

---

(١) جودت: المصدر السالف، ج٧ ص ١١٣.

(٢) صولاق باشا زاده، تاريخ صولاق باشا زاده، استانبول (١٣١٨هـ) – ص ٢٥٤.

(٣) للمزيد حول المساعدات التي قدمها أهالي استانبول وحلب وبيروت ودمشق، راجع ايستاستينق عمومي اداره سي، مصدر متقدم ص١٧ و١٨ و١٩.

وإذا كان السلطان عبد الحميد الأول قد اهتم بالمواد التي تدرَّس وبرواتب المدرسين والمعلمين، فإنه لم يدخل إليها تعدد الصفوف وتخصصها، ولم يقم بزيادة عدد المدارس، كما فعل السلطان سليم الثالث الذي نقل كثيراً من مبادئ الفرنسيين والإنكليز في التعليم والبناء إلى بلاده، وأدخل اللغات الأوروبية، وجعلها مواداً رئيسة، وربما هذا ما عجل بسجنه ثم قتله سنة (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م).

٣- حركة الإصلاح وانعكاساتها على التعليم (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م):

عدة عوامل دفعت السلاطين للإصلاح بغية تغيير واقع الدولة العثمانية المتردي من مختلف الجوانب، وفي مقدمتها الهزائم التي لحقت بالدولة، ومحاولة سلاطين القرن الثامن عشر التسلل لتوقيع معاهدة «إذعان» مع خصومهم من نمساويين وروس، وإذا كانت فكرة الإصلاح لإعادة مكانة العرش وعودة العسكر إلى سابق عهدهم بغية ضرب أعدائهم وإلحاق الهزائم بهم، فإن جرس إنذار إزالة دولتهم قرعه نابليون بونابرت بما حمله من مبادئ ديمقراطية، وأسس ونظم عسكرية تجهلها عساكر بني عثمان.

لقد كَبُرَ على العثمانيين، سلاطين وأفراداً؛ أن يرفع الفرنسيون راية رسل الحضارة، وفي الوقت نفسه يسعون لسلخ مصر عن الدولة العثمانية وجعلها قاعدة لهم في الشرق[١].

والحقيقة أن الدولة العثمانية تعرت نتيجة ضعف الإنكشارية، وفقدت عوامل حمايتها خارجياً وكذلك سلاطينها فقدوا الحماية الداخلية وأصبحت قصورهم مفتوحة أمام الجماهير، إذ أرادوا أن ينتقموا من سلاطينها الذين أوصلوهم إلى هذا المأزق الدولي[٢].

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩م، ٢٢ شارع الجمهورية ١٣٩٨-١٩٧٨م، ص ٦١-٦٥.

(٢) أحمد عطا: تاريخ عطا، خمسة أجزاء، استانبول ١٢٩٣هـ، ج ٣ ص ١٥٧.

كما دفع عدد من السلاطين حياتهم ثمناً لتفكيرهم، وليس لمحاولتهم، كمحمود الأول الذي تمَّ تدمير استراحته، والسلطان عثمان الثالث (١١٦٨هـ/١٧٥٤م) بإعدامه، ومن ثمَّ تتالت مسألة قتل السلاطين أو عزلهم حتى وصول السلطان محمود الثاني إلى سدة العرش (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) بعدما قُتل السلطان سليم الثالث والسلطان مصطفى الرابع، الذي امتلك الإيمان بضرورة الإصلاح رغم ما يحيق بدولته من مشكلات جسيمة ولاسيما المسألة اليونانية التي تأثرت بالإصلاحات التي أثارتها بريطانيا في الجزر الأيونية[١].

لقد واجه السلطان محمود الثاني جزءاً من الثورات التي اشتعلت في أوروبا، وعجز عن سحقها؛ لأنها «ثورات دبلوماسية وثقافية وحربية تستند إلى وعي قومي قوامه تعليم منظم وصحافة وثقافة مدعومة برأي أوروبي عام»[٢].

وأجمعت مصادر الإمبراطورية العثمانية على أن السلطان محمود الثاني أدرك صعوبة خلط مشكلاته الخارجية بالمشكلات الداخلية التي بدأت تتفاقم، فلم يجرؤ على تسويتها ما دامت الإنكشارية تمارس الفوضى وتتدخل في شؤون الدولة المدنية بعدما تخلت عن البندقية تاركة الحدود للتسويات السياسية والدبلوماسية، ولهذا عهد إلى واليه على مصر محمد علي باشا بإخماد ثورة اليونان، وقبلها كان قد أخمد الحركة الوهابية التي جردت السلاطين العثمانيين من الصفة الإسلامية، والتفت إلى تهدئة المشكلات وغضب الإنكشارية وإقناع الحرس القديم بضرورة تطبيق الإصلاح، لكن محاولاته باءت بالفشل الذريع وهُدد أكثر من مرة[٣]، لكنه تعامل مع تطبيق الإصلاح؛ فباشر عمله بتقليد مصطفى البيرقدار منصب

---

(١) عاصم باشا، عاصم تاريخي، استانبول ١٢٨٤هـ، ص ٩٨.

(٢) البحراوي، المرجع السالف، ص ١٤١.

(٣) شاني زاده عطا الله، تاريخ شاني زاده، استانبول ١٢٩٠هـ ص ٧٦-٧٧.

الصدارة العظمى، وكلفه بتنظيمها إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، في حين التفت السلطانُ محمود الثاني ومؤيدوه إلى إقناع مجموعة من العلماء المعارضين لفكرة الإصلاح(١).

تجاهل السلطان محمود الثاني بحسب رأي عطا الله أعمال الشغب التي مارسها بعض الأشقياء، ولهذا أمر بعقد مجلس خاص في بيت شيخ الإسلام في ١٨ شوال (١٢٤١هـ/١٨٢٦م)، حضره كلٌّ من الصدر الأعظم محمد سليم باشا، وشيخ الإسلام قاضي زاده محمد طاهر أفندي، والحاج صادق أفندي، قاضي استانبول، وجعفر بك أفندي، رئيس الكتاب وأحمد خلوصي أفندي كتخذا الصدر العالي وأسعد أفندي ضرب خانة ناظري وصادق أفندي، طوبخانه ناظري، وتداول الحاضرون للاجتماع دراسة مسألة تعليم العسكر، وقد وافق آغا الإنكشارية جلال الدين على تعليمها فنون الحرب، فحوّل ربع الإنكشارية إلى فرقة جديدة أطلق عليها ايكنجي (الثانية) لتدريبها، وعُملت لهم لائحة جديدة وكأنهم خضعوا إلى النظام الجديد(٢).

وافق أعضاء المجلس بما فيهم السلطان محمود الثاني على التخلص من الإنكشارية؛ لكن قسماً من الحضور وعلى رأسهم الصدر الأعظم خطب بالحضور موضحاً لهم الضعف الذي وصلت إليه الإنكشارية، وعدّها من أكبر العوامل التي أسهمت في تأخر الدولة، وقد مهّد الصدر الأعظم بخطابه إلى ضرورة استبدالها؛ لأن الإنكشارية الحالية غير قابلة للتعلم، ولا يمكن ترك الدولة في عهدتها(٣)، وفي الاجتماع الذي عقده السلطان محمود الثاني تظاهر بأنه حريص على أوجاق الإنكشارية، ولكن سيد أفندي رئيس الكُتّاب اعترض على ذلك، وأظهر للجميع ما حل بهم من مصائب.

---

(١) المصدر السالف، ص ٧٧-٧٨.

(٢) البحراوي، حركة الإصلاح، مرجع متقدم، ص ١٧٤.

(٣) جودت: مصدر متقدم، ج ٣ ص ١٦٩-١٧١.

وقد أسفر رأي سيد أفندي عن دعوة الوزراء الصدور العظام والموالي والعلماء ورجال الدولة وتليت عليهم مسودة قرار بإلغاء الإنكشارية، فقوبل هذا القرار بالاستحسان ثم رُفع للسلطان الذي قرر التخلص من الإنكشارية في يوم ٨ ذي القعدة سنة (١٢٤٢هـ ٢٤ حزيران ١٨٢٦م)(١).

لقد تحرر السلطان محمود الثاني من كابوس الإنكشارية، وأصبح بمقدوره إصدار القرارات الإصلاحية التي تهيئ دولته للحاق بالتطور الحضاري الذي تخلفت دولته عنه كثيراً، فعمد قبل القضاء على الإنكشارية إلى تعيين اثنين من الشيوخ لتعليم اللغتين العربية والفارسية وآدابهما في جامع شريف المسمى «باب دفتري»، ووجه اهتمامه للعناية بالمكتبات البالغ عددها في استانبول وحدها ٤٠ مكتبة عامة منها ١٥ مكتبة رئيسة و٢٥ مكتبة فرعية، وألحق معظمها بالمساجد، وحض الصدور العظام والوزراء والمفتين على تزويد المكتبات بأحدث ما لديهم من كتب ومؤلفات، وأنشأ مكتبات أخرى نوعية كمكتبة البحرية ومكتبة الطب(٢).

ومن الخطوات الإصلاحية توجهه إلى القضاء؛ للحد من نفوذ الارستقراطية الإقطاعية الوراثية التي نشأت في معظم مراكز الولايات، وقسّم الوظائف إلى خمسة أقسام رئيسة هي:

وظائف علمية، وهي: القضاء والتدريس.

وظائف قلمية، وهي: صدر أعظم، دفتر دار، ديون، خزنة.

وظائف حربية، وهي: إنشاء جيش متطور وعلمي.

وظائف القصر وهي: السراي، الحريم.

الإيالات: تنظيمها وتطبيق القضاء والتدريس في مختلف الولايات(٣).

---

(١) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة إحسان حقي، ص ٤٨١، القاهرة ١٩٨١م.

(٢) جودت، تاريخ جودت، المصدر السالف، ج ١٢ ص ١٦.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، تصنيف جودت وثيقة رقم ٣٨٩٦.

كما أمر بإنشاء سبعة عشر مكتباً، لتنظيم أمور الدولة بشكل علمي ومنظم، واستدعى سنة (١٢٥٢هـ ١٨٣٦م) أحد الفرنسيين كخبيرٍ في تنظيم عام لشؤون الدولة لوضع تخطيط عام للنظام الإداري في الدولة[١].

ما يمكن قوله: إن رجال الإصلاح أولوا مسألة التعليم أهمية كبرى، فعملوا على تحديث التعليم، وشجعوا على تحصيل العلوم التكنولوجية الغربية والفنون وتطبيقها، وتقرر إنشاء دار للفنون، التي تحولت سنة (١٢٦١هـ ١٨٤٥م) إلى جامعة، ويُعد معظم المؤرخين أن تحسين التعليم وتطويره في الدولة العثمانية وولاياتها يعود إلى فرمان السلطان محمود الثاني سنة (١٨٢٤م) الذي أحدث ما يسمى بالانقلاب العلمي في دولته، إذ كان التعليم فيها يدور في كنف مفتي الإسلام ورجال الدين، فقد ظل المثقفون لقرون عدة يُدرِّسون بجدية دون أن يكون لهم رأي في تطوير التعليم وتحديثه[٢].

إن إصلاحات السلطان محمود الثاني تعثرت خلال العشرينيات وأوائل الثلاثينيات بسبب افتقار الدولة إلى مناهج ومدارس لاستيعاب الطلاب لتعليمهم، فعمد لتنظيم التعليم وتطوير نظامه بسرعة، وأمر بإنشاء نظارة المكاتب العمومية وعهد بالإشراف عليها إلى شخصيات مثقفة لها خبرة بالتعليم والإدارة، غير أن نجاحاتها كانت محدودة بسبب الافتقار إلى جهاز إداري ومدارس كثيرة، فأمر بإنشاء «نظارت المعارف العمومية» وهي تعادل أو تساوي وزارة التربية[٣]، وبإنشائه لنظارت المعارف العمومية، تكون المسيرة العلمية في الدولة قد بدأت تتحمل مسؤوليتها، ويذكر لطفي أفندي في تاريخه أن السلطان محمود الثاني قد فعّل التعليم ولاسيما بعد إلغائه للتكايا والزوايا وحدّ من صلاحيات مفتي الإسلام حيث

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، تصنيف جودت نافعة، وثيقة رقم ٣٨٨٧.

(٢) رضا نور، عثمانلي تاريخي، استانبول ١٩٢٤م، ج ٣ ص ٢٧٨.

(٣) Sami, ozcan milli egitim kurulus, Istanbul 1953. S.5.

اقتصرت مهمته على مراقبة لجان اختيار المدرسين منذ أيام السلطان عبد الحميد الأول[١].

ومع أوائل الثلاثينيات أمر السلطان محمود الثاني مفتي الإسلام بعدم التدخل بشؤون التعليم بشكل مباشر، وعهد إليه بمراقبة التعليم الديني فقط، والإشراف المستمر والمراقبة الدقيقة للكتب الدينية، ومنع المؤلف من اعتماد الدروس كلها التي تتعرض للمرأة بسوء أو خير، وكلفهم بالاعتدال في الأحاديث الدينية المنسوبة إلى أئمة المذاهب[٢]. إن خطوات السلطان محمود فتحت الباب أمام «نظارت المعارف العمومية» للإشراف على المدارس والمدرسين بآن واحد، وعدّت المسؤولة الأولى والأخيرة في ذلك.

٤- التعليم في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥هـ/١٨٠٨-١٨٣٩م):

بعد محاولات الإصلاح التي قام بها أسلافه، وبخاصة السلطان سليم الثالث الذي تجرأ علناً على التفكير بإنشاء جيش جديد إلى جانب الإنكشارية، وهدد بإلغائها إذا لم تلتزم بالنظم الجديدة التي قررها، غير أن الحرس القديم وبدعم من الإنكشارية أسقطه من عرشه وقُطع رأسه بتوجيه من والدة مصطفى الرابع الذي فقد هو الآخر حياته جزاء لقتله سليم الثالث[٣].

عقب هذه الأحداث قرر السلطان محمود الثاني المجاهرة بالإصلاح واستحصل من علماء استانبول وكبار شخصياتها ومسؤوليها على ضرورة إلغاء الإنكشارية، وكان السلطان محمود الثاني قد هيأ للحصول على تلك الموافقة إذ طالب بتحديث الدولة وتطوير مؤسساتها، فقاوم أعداءَ الإصلاح وتذرع بأنهم

(١) لطفي، مصدر متقدم، ص ٣٨٧.

(٢) جودت، تاريخ جودت، مصدر متقدم،ج ٩ ص ٣٨٣.

(٣) Ayas nevzet. milli egitim ve tarihiceler, Ankara 1948. S. 49.

يقاومون العلم والتعليم، فاضطروا إلى مسايرته لتأكدهم بأنه جاد بالإصلاح وأنه مدعوم من فرنسا الحاضنة لكل تحديثه(١)، فاقتدى بأسلافه وأنشأ مدرسة للطب سنة (١٢٥٥هـ) قبل وفاته بأشهر، لكن خطواته العلمية فعّلها فرمانه الذي أصدره سنة (١٨٢٤م) والقاضي بإنشاء المؤسسات الإدارية المكلفة بتحسين أمور التعليم وبناء المدارس وربط جميع المدارس بنظارة المعارف(٢)، ما عدا المكتب الحربي والبحري والطبي المرتبطة بقيادة الجيش(٣).

عمّت الفرحة مختلف الولايات بفرمان السلطان محمود الثاني سنة (١٢٤٠هـ/١٨٢٤م) القاضي بأحقية جميع رعاياه بممارسة التعليم المجاني وزيادة عدد المدارس في مختلف الولايات، وقد بيّن الجدول عدد الطلاب في ولاية دمشق سنة (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) رغم معاناة الدولة وزيادة مشكلاتها، لاسيما من قبل محمد علي باشا الذي هاجم سورية وتوجه إلى استانبول، وذلك على النحو الآتي:

السنة	عدد المدرسين	عدد الطلبة الذكور	عدد المعلمات	عدد الطالبات
١٨٣٤	١١٧	١٣٧٨	١٣	١٦٧٨
١٨٣٧	١٢٨	١٧٤٢	١٨	١٩٩٧

عدد الطلبة في دمشق بين عامي ١٨٣٤ و١٨٣٧

السنة	عدد المدرسين	عدد الطلبة الذكور	عدد المعلمات	عدد الطالبات
١٨٣٩	١٣٤	٢٦١٦	١٩	١٩٧١

(١) جودت: مصدر متقدم، ج ٩ ص ٦٦.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء: استانبول، معارف نظارتي دفتر رقم ١١.

(٣) لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية يستخدم مصطلح (أوردو) بمعنى الجيش بدلاً من الإنكشارية.

والجدير بالذكر أن الطلاب والطالبات يتلقون تعليمهم مجاناً في مدارسهم، ويتقاضى الأستاذ في الرشدية ٥٠٠ أقجة، فيما يصل راتب مدرّس مكتب الفنون المتنوعة (المدارس الإعدادية)، التي تضم طلبة مسلمين وغير مسلمين، إلى ٦٠٠ أقجة.

وهكذا فإن السلطان محمود الثاني أحدث انقلابات متعددة الاتجاهات في دولة عاشت على قرار واحد واتجاه واحد، فقد ألغى الإنكشارية التي كانت متحكمة بمصير الدولة، كما أبعد سلطة مفتي الإسلام عن التعليم، حيث ألغى التكايا والزوايا وما بقي منها، واشترط للقبول بالتدريس أن يواظب المعلم على المعارف وحسن التربية ومعاملة زملائه، كما أمر «نظارات»(١) المعارف العمومية بزيادة عدد المدارس ومراقبة الكتب وتأمينها للطلاب(٢).

ومن أهم المواد التي كانت تُدرَّس في مدارس الصبيان:

القراءة والكتابة والرسم والخط والإملاء والحساب، واللغة العثمانية، أمّا في المدارس الرشدية فتدرَّس اللغة العثمانية واللغة العربية واللغة الفارسية والنحو والصرف والتاريخ والفلسفة والمنطق والرياضيات والفيزياء، والكيمياء والجغرافية، وفي المدارس الإعدادية تدرَّس اللغة الإنكليزية والفرنسية والعروض والأدب العثماني والتاريخ العثماني وجغرافية الدولة العثمانية.

وقد طبِّق الدوام في مدرسة الصبيان صباحاً من الساعة الثامنة حتى الرابعة بعد الظهر، وقد اختلف الدوام بحسب التوقيت الشتوي والصيفي، أما المدارس الإعدادية والرشدية فالدوام صباحي من الثامنة وحتى الثانية بعض الظهر.

---

(١) قد يلحظ القارئ أن بعض الكلمات تنوعت في كتاباتها مثل دولت عثمانية ونظارت معارف، وقد قصد البحث التنوع في الكتابة للقول: أن ليس لدى العثمانيين تاءٌ مربوطة كالعربية.

(٢) للمزيد يمكن مراجعة سجلات نظارت المعارف، استنانبول، سجل رقم ٧١.

٥- التعليم في عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥-١٢٧٨هـ/١٨٣٩-١٨٦١م):

يعّد السلطان عبد المجيد رائد التنظيمات التي نقلت الدولة العثمانية من عشوائية الإدارات والمؤسسات إلى تنظيم تلك الإدارات والمؤسسات بموجب أسس إدارية وقانونية جديدة، بدءاً من خط كلخانه (١٢٥٥هـ/١٨٣٩) حتى صدور الدستور سنة (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، وقد استندت أسس تنظيم الدولة على المرسومين اللذين أصدرهما السلطان «عبد المجيد» أولهما «كلخانه خطي» (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) وثانيهما «شريف همايون خطي» (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م)[(١)].

عهد السلطان عبد المجيد إلى المصلح مصطفى رشيد باشا إصلاح المعاهد التعليمية القائمة (الكتاتيب، والمدارس الدينية)، فشكل مجلس المعارف سنة (١٢٦١هـ/١٨٤٥م)، وقد قاوم العلماء الإجراءات متذرعين بأسباب عدة محتمين بالدين الحنيف غير أن المصلح تجاهل صرخاتهم، وألزمهم بالانصياع إلى مقترحات مجلس المعارف، ففي سنة (١٢٦٢هـ/١٨٤٦م) أسس معاهد جديدة لتعليم العلوم العربية (المصرية والدمشقية)، كما وضع أسساً جديدة لتربية الناشئة والشباب إذ جعل من هذه التربية هدفاً سامياً يجب على الجميع العمل لإنجاحه وتطويره، ولهذا أنشأ في سنة (١٢٦٣هـ/١٨٤٧م) المدارس الرشدية[(٢)].

---

(١) تجمع معظم المصادر والمراجع على أن المرسومين اللذين أصدرهما السلطان عبد المجيد إرضائيان، فمرسوم كلخانه خطي كان رداً على جميل أوروبة (فرنسا وبريطانيا) على موقفها إلى جانبه ضد محاولة محمد علي باشا، ومرسوم شريف همايون خطي كان رداً لجميل أوروبة على موقفهما ضد الأطماع الروسية.

(٢) المدارس الرشدية، نسبة إلى الرشد والنضوج، علماً بأن جودت يؤكد أن المكاتب (المدارس) الرشدية أسست سنة (١٢٧٦هـ/١٨٥٩م)، أما لطفي باشا فيقول: إنها أنشئت سنة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م، كما أنشئت الكلية الملكية وأعيد تنظيمها سنة (١٢٤٩هـ/١٨٧٧م).

دأب مجلس المعارف على افتتاح المعاهد، ففي سنة (١٢٦٥هـ/١٨٤٨م) أنشأ دار المعلمين العالية[١].

لقد كُلفت دار المعلمين بتأهيل المدرسين، وقد قسمت إلى شعبتين: شعبة العلوم، وشعبة الفنون، وقد ضمت الشعبتان عدداً من الطلاب الذكور والإناث، أما شعبة الفنون فقد عنيت بالتطريز وتدريب الفتيات على كثير من المهن النسوية، وأما شعبة العلوم الأدبية – فقد كانت وقفاً على الشبان خلال المراحل الأولى من تأسيسها، وكانت مدة الدراسة في دار المعلمين ثلاث سنوات، حيث اقتصر التدريس في الشعبة الأدبية على التربية وأصول التدريس.

تقبلت الدولة العثمانية وولاياتها الخطوات الإصلاحية وبخاصة من ناحية التعليم وقد أُنشئت في دمشق وبيروت دار المعلمات العالية، وتوافدت إليها الطالبات بعدما كنّ يدرسْنَ في القسم الرشدي، أما القسم الابتدائي فيدرس فيه الطلاب لمدة سنتين، وقد بلغ عدد الطلاب في المعاهد والقسم الرشدي والقسم الابتدائي في دمشق على النحو التالي[٢]:

القسم الرشدي	القسم الابتدائي	قسم المعاهد العليا	السنة
١٥٧	٣٥٦	٩٨	١٢٦٢هـ
٢٠٤	٤٥٠	١٢٧	١٢٦٣هـ
٣٦	١٧٨	٥٦	١٢٦٤هـ
٢٧٨	٤٨٧	١٩٥	١٢٦٤هـ

(١) دار المعلمين العالية التي أسست في استانبول لتأهيل مدرسي المدارس، جودت ح ٧ ص ٤٥٠.

(٢) تظهر سجلات مجالس المعارف أن الطلاب في مختلف الولايات بدؤوا بالتوافد إلى المدارس بشكل دفع الولاة إلى افتتاح مدارس جديدة لاستيعاب الطلاب، وقد حذر السلطان عبد المجيد الولاة في الولايات من اعتماد الاستئجار لطلاب المدارس لأكثر من سنة، وعلى الولاة إعلام مجلس المعارف العمومية عن المشكلات التي تواجههم، للمزيد أرشيف رئاسة الوزراء تصنيف جودت رقم ٣٧٥١.

اقتصر التدريس في عهد السلطان عبد المجيد وخَلَفِه السلطان عبد العزيز على المدارس والمعاهد التي افتتحت منذ عام (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) في مختلف الولايات، ولم تشهد تلك المدارس تطوراً إلا في مطلع القرن العشرين، أما في مركز الدولة فقد افتتحت عدة كليات مثل الكلية الملكية السياسية للعلوم السياسية والإدارية والفنون، ومكتب الصنائع[١].

وقد أمر السلطان عبد المجيد سنة (١٢٧٧هـ/١٨٦٠م) بافتتاح مكتب الصنائع في مختلف الولايات، لكن فرمانه لم ينفذ في زمانه، في حين نفذه السلطان عبد العزيز الذي أسرف في زيادة النفقات على المدارس، وزاد من رواتب المدرسين في مختلف الولايات، وأكد على اعتماد الرحلات الترفيهية كوسيلة رئيسة للترويح عن طلاب المدارس[٢].

٦- دور خط شريف كلخانه في تطوير التعليم (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م):

تواترت الروايات والشكوك بدور خط كلخانه في إحداث تطوير فعال قياساً بالإجراءات التي أحدثها قانون تأسيس الولايات سنة (١٨٦٤م)، لكن الدراسات التاريخية التي اعتمدت على الوثائق والنشرة العثمانية، التي سجلت التطورات العلمية أكدت أن كلخانه خطي تزامن إصلاحه للتعليم مع إصلاح شؤون الدولة، علماً بأن مؤرخين كثراً عدّوا صدور خط شريف كلخانه بمثابة إرضاء للدول الأوروبية، كرد على وقوفها إلى جانب دولته ضد محاولة محمد علي باشا امتلاك أجزاء من أملاك الدولة الرئيسة[٣].

لقد تضمنت معظم بنود كلخانه نقاطاً رئيسة مهمة ركزت على الحياة العلمية؛ لأن معظم المفكرين العثمانيين آنذاك أيقنوا أن التخلص

---

(١) لزيادة الإطلاع على توافد الطلاب عليه يمكن الإطلاع على النشرة العثمانية الرسمية ص ٧٧-٨٠.

(٢) Enver zeki karal, osman tarihi, nizam cedid devri, Ankara 1988.s.158.

(٣) Bayram kodaman, egitim sistemi, Ankara 1989.S.229.

من عشوائية الدولة القائمة على وحدانية القرار لن يتحقق إلا من خلال التعليم، وقد تجرأ المصلحون آنذاك على إغلاق معظم التكايا والزوايا بالاعتماد على فرمان السلطان محمود الثاني سنة (١٢٤٠هـ/١٨٢٤م)(١)؛ لأن السلطان محمود الثاني هدد العلماء بإخضاعها إلى امتحانات في مختلف المجالات الدينية، وقد أسهم تصريحه، إن لم نقل تهديده، في إقامة شرخ كبير بين العلماء، ما بين مؤيد للإصلاح ومعادٍ له، وتؤكد معظم الدراسات أن فرمان (١٨٢٤م) هو الذي دفع المجتمعين للإجماع على الإصلاح(٢).

إذا كان السلطان محمود قد هدد العلماء بصورة غير مباشرة، فإن مصطفى رشيد باشا، وبما مُنح من صلاحيات، تجاهل تماماً العلماء الذين تذمروا من الإصلاح، حتى لو كانت مواد هذا الإصلاح مستوردة من دول أوروبية،وفيما أوفد مصطفى عدداً من الطلاب إلى أوروبة لتلقي علوم تدريبية، وعادوا خلال مدة قصيرة؛ فقد تمت الإفادة منهم إذ تحولوا إلى ثوار على التخلف الذي يلف الدولة، وطالبوا الصدر الأعظم باعتماد إصلاح شامل لمختلف مناحي الحياة تخلصاً من الواقع المتردي الذي يعيشه المواطن(٣).

لم يعد السلطان عبد المجيد والصدر الأعظم مصطفى يخشيان من قوى تتصدى لمحاولة الإصلاح، فالإنكشارية انتهت من حياة الدولة العثمانية بعد أن عاشت (٤٦٤)سنة، وأرغمت سلاطين القرن الثامن عشر على المرور تحت سيوفها للجلوس على كرسي العرش.

---

(١) Enver zeki karal, tanzimat devri, Ankara 1989.279.

(٢) Ismail Hakki uzun, ilmya teskilati, Ankara 1966.S.98.

(٣) لطفي باشا، مصدر متقدم، ص ٣٥٠.

ولهذا فإن المشاغبين حاولوا استغلال الاضطراب الذي يعصف بالدولة وولاياتها، إثر إنهاء الإنكشارية، وقيام عصيانات في مناطق متعددة[١]، وبصدور كلخانه خطي بدأ الجميع يخشون عاقبة العصيان أو العبث بمقدرات الدولة أو عدّ التعليم الجديد معادياً للإسلام أو لمبادئ المؤسس عثمان، ومن أبرز منجزات كلخانه خطي أنه أرغم الفرد العثماني على قبول الطرف الآخر من الطوائف الأخرى التي ظلت غائبة إنسانياً ومؤثرة فعلياً، فالمسيحيون واليهود أدوا أدواراً فعالة منذ زمن طويل، فالسلطان محمد الفاتح أعطى البطريركية مكانة بارزة في هيكلية دولته، وابنه بايزيد الثاني حذر بفرمانه من الاعتداء على اليهود، وجاء حفيده سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م) ليعهد لوالدته روكسلانه اليهودية وزوجه نور بانوا بإدارة الإمبراطورية العثمانية[٢]، لكن هذا النفوذ لم يرغم الفرد العثماني على الاعتراف بوجود الطائفة المسيحية واليهودية إلا كطوائف مكروهة ومحتقرة، وبصدور كلخانه خطي تبدلت النظرة إلى تلك الطوائف واعترف بها، وتم التعايش معها في المدارس وغيرها،إذ أصبح جميع رعايا الدولة العثمانية متساوين أمام القانون بصرف النظر عن مذاهبهم وديانتهم، علماً بأن سلاطين القرن الثامن عشر ولاسيما عبد الحميد الأول وسليم الثالث افتتحوا مدارس مختلطة، ومدارس خاصة بالبنات تضم طالبات يهوديات ومسيحيات[٣].

تضمن فرمان كلخانه خطي اعتماد مدارس مسترشدة بالتعليم التربوي الحديث، والتقليل من الدروس الدينية في المدارس غير الشرعية من سبع ساعات إلى ساعتين وذلك على النحو الآتي:

---

(١) Salim topal, egitim v mesrutiye devri, Istanbul 1970.S.19.

(٢) Uzun carsili, osmanl, devlet teskilati, Ankara.1755.S.179.

(٣) المارون أوغلي، كلخانه خطي وتأثيراته، استانبول ١٣٠٥هـ ص ٧٥.

اسم المادة	عدد الساعات	اسم المادة	عدد الساعات
تاريخ عثماني	٢	تاريخ إسلامي	٢
لغة عثمانية	٢	رياضيات	٧
رسم	٢	علم اجتماع	٢
تربية رياضية	٢	علم نفس	٢
ديانة	٢	فلسفة	٢
جغرافية	٢	جبر + هندسة	٤
قراءة	٢	لغة عربية	٣
هندسة	٢	لغة أجنبية	٢(١)

يلاحظ من الجدول السابق أن التعليم الحديث قد عم مختلف المدارس سواء في مركز الدولة أم في الولايات التابعة للدولة العثمانية، وكانت مدة الدوام صباحية ومسائية في بعض المدن، أما في بعض المناطق ولاسيما أرياف المدن فكان الدوام صباحياً؛ لأن هناك قرى لم تُبْنَ فيها مدارس بسبب نقص في المدرسين، فريف دمشق، كان يفتقر إلى المدارس والمدرسين.

وقد تضمن فرمان السلطان عبد المجيد الملحق بفرمان «كلخانه خطي» مادة تحضُّ الأهالي من المسلمين على بناء المدارس الحديثة لاستيعاب الطلبة من ذكور وإناث(٢).

لقد وضَّح فرمان كلخانه أهداف السلطان عبد المجيد؛ لأن فرمانه ركَّز بمجمله على تطوير الحياة العلمية، إضافة إلى الإصلاح العام للدولة العثمانية في مختلف جوانبها العسكرية والأمنية والاقتصادية بهدف إنقاذ الدولة من

(١) Raci Ahmet gulhane hati, Ankara 1945.S.117.

(٢) لطفي، مصدر متقدم، ص ٤٣٧.

الخلط الإداري وغياب معظم السلاطين عن الإدارة، وتركها للصدور العظام الذين غرقوا بالفساد والرشوة.

لا شك أن فرمان كلخانه شكّل نقطة تحول مهمة في حياة الدولة المريضة؛ لأنه اهتم بحل المسألة المصرية سنة (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م)، ومسألة المضائق سنة (١٢٥٧هـ/١٨٤١م)، وثورة الموحدين في بلاد الشام[١].

ركزّ السلطان عبد المجيد على إنشاء مدارس متخصصة، ففتح مدارس (المعاهد العالية) لإعداد المعلمين؛ لأن إعدادهم واختيار المتفوقين منهم يسهم في إعداد جيل من الطلاب يؤهل الدولة لمستقبل مشرق، وقد ألزم السلطان عبد المجيد الولايات، بالخطوات التي يتم اتخاذها، كما حذر الفرمان من تدريس الفقه والحديث والقرآن الكريم إلا في المدارس الشرعية[٢].

أدار الصدرُ الأعظم المؤسسةَ التعليمية تقليداً لما هو مطبق في الدول الأوروبية، إذ أكثر من إرسال الوفود العلمية إلى دول أوروبا ولاسيما فرنسا وبريطانيا.

ولم تمضِ مدة زمنية طويلة حتى تمكن الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا من إقناع معظم المتنورين والسياسيين ورجال الدين وحتى عامة الناس بسياسته ولاسيما ناحية التعليم الذي اقتبس معظم مبادئه وأسسه من أوروبة، وقد أعطى توجيهاته إلى مجلس المعارف العمومية الأخذ بالنظم الأوروبية، وحذر المعلمين من العمل بتوجيهات رجال الدين، وأمر ببناء المزيد من المدارس لاستيعاب الأطفال والشبان الذين توافدوا لتحصيل العلوم[٣].

---

(١) سليمان أبو عز الدين: إبراهيم باشا في سورية، بيروت ١٩٢٩م، ص ٣١٥.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء: سجلات الديوان الهمايوني، مجلس المعارف لسنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م وثيقة رقم ١٣٧٨.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء: سجلات الديوان الهيمايوتي سجل رقم ٣٦ سنة ١٢٦٣هـ/١٢٦٤هـ.

وهكذا تمكن الصدر الأعظم مدعوماً من السلطان عبد المجيد من انتزاع التعليم من رجال الدين الذين تحكموا به لقرون، وقد استند في خطواته على الإجراءات التي اتخذها السلطان عبد الحميد الأول والسلطان سليم الثالث وفرمان التعليم الذي أصدره السلطان محمود الثاني سنة (١٢٤٠هـ/١٨٢٤م)(١).

ولم يكتفِ بتحديث المدارس العامة بل التفت إلى تحديث المدارس الشرعية، فعهد إلى العلماء المتنورين بالإشراف عليها وطالبهم بتحديثها تدريجياً، وحضّهم على تدريس المواد العلمية التي لا تتعارض مع الدين الحنيف؛ كالحساب والهندسة والجبر والعلوم والفيزياء واللغات العربية والفارسية، ولم يمضِ وقت طويل حتى غدت المدارس الشرعية تدرس مختلف العلوم بما فيها الفلسفة والمنطق(٢).

٧- النشاط التعليمي في دمشق خلال القرن التاسع عشر:

لم تكن ولاية دمشق بعيدة عن التحديث والتطوير العلمي والثقافي؛ لأن الهجرة الأوروبية التي توافدت إليها لأغراض سياحية وتجارية، واحتكاكها بمدينة بيروت التي غدت تعج بالأوروبيين من سياح وتجار وسياسيين، أسهمت في تسارع عجلة التطوير والتحديث ولاسيما بعد احتلالها من قبل إبراهيم باشا، هذا كلّه سارع في تطوير الحركة العمرانية التي كان للمدارس النصيب الأكبر في تلك الحركة، كما أن مدينة دمشق، كمدينة، لا تعرف التعصب الديني في التعامل التجاري والتدريس وغيرها من الأعمال الأخرى؛ لأن معاملات البيع والشراء لم تكن دمشقية صرفة، بل تمت مع الغرباء من أوروبيين؛ وعرب جوار؛ ووافدين إليها للتعلم

---

(١) أورخان كوجوك: التعليم الأوروبي ودوره في تحديث الدولة، استانبول ١٩٤٦م، ص ١٣٧-١٤٢.

(٢) جودت باشا: مصدر متقدم، ج ٧ ص ١٧٨.

الديني الذي اشتهرت به دمشق دون غيرها من المدن الأخرى، وبالرجوع إلى سجلات مشيخات الإسلام في استانبول وفي التدريس نجد أن علماء دمشق أدَّوا أدواراً بارزة في التعليم والتصوف وغيرها من المنافذ العلمية والتجارية والصناعية.

هذا النشاط الذي بذله الدمشقيون، أسهم في تطوير مدارسهم وتحديثها لاسيما أن الجاليات الأوروبية التي استقرت فيها كانت كبيرة، وقد تنافست فيما بينها في بناء المدارس والمشافي، وإن كانت دينية الأهداف، يضاف إليها المسيحيون المحليون الذين ارتبطوا ببلدهم وأبنائها أكثر من ارتباطهم بالأوروبيين، وكذلك الجالية اليهودية التي أسهمت في بعض الخبرات، لكنها لم تكن مجدية؛ لأنها اقتصرت على الأمور المالية والجمركية، غير أن الدمشقيين اعتادوا على الأخذ بكل جديد وطبقوه في مدينتهم سواء تحديث متاجرهم بناءً وبضاعة أو تعليماً ومنهاجاً؛ لأن المدارس المتطورة جذبت عرب الجوار الذين قدموا إليها للاستفادة من التعليم الحديث.

أولاً – مدارس ما قبل التنظيمات:

تركز التدريس في مدارس ما قبل التنظيمات على:

أ- **المساجد والجوامع والمدارس الملحقة بها**؛ لأن دمشق منذ القديم بنَت الجوامع والمساجد، وبنَت إلى جانبها مدارس لتعليم القراءة والحديث وعلم الفقه والتفسير، هذا ما ميّز دمشق عن غيرها من المدن، كما أوقفت لها دكاكين ومحلات تجارية وغيرها بحيث تؤمن حاجيات تلك المدارس لاستمراريتها وتخريج مدرسين كبار مشهورين[١].

---

(١) محمد مطيع الحافظ، علماء دمشق، ١٩٨٣ ص ٥٧.

وقد اشتُرط لبناء المدارس والجوامع أن يكون لها مشيختها؛ كالمدرسة العمرية، ومدرسة المقدمية الجوانية، ومدرسة التربة العادلية الجوانية، المسماة المدرسة العادلية الكبرى، والمدرسة الزنجارية المسماة الزنجيلية، والمدرسة الفارسية والتربة فيها، ومدرسة القجماسية[1].

ب- **الكتاتيب**، وهي المعروفة بدور القرآن، وقد سميت هذه الدور باسم مؤسسيها مثل: دار القرآن السنجارية، ودار القرآن والحديث الشريف الصبابية ودار القرآن والحديث الشريف التنكزية، وغيرها من الدور التي عمت مختلف الأحياء الدمشقية[2].

ج- **الزوايا والربط والتكايا**: وقد كانت مدينة دمشق عامرة بها وتلي القاهرة في احتواء الزوايا والربط والتكايا، غير أن زوايا دمشق كغيرها من المدن الإسلامية الأخرى صوفية بامتياز. ولهذا فقد استغلت الدولة العثمانية انتشار الطرق الصوفية في الولايات العربية، وحولتها ظاهرياً إلى مؤسسات علمية، لكنها أبقت فيها طابع التنافس الصوفي والتناحر تحاشياً من الانقلاب عليها. ويذكر معظم المؤرخين، رغم تدخل الدولة في شؤون الربط والتكايا، إلا أنهم تمكنوا من تخريج طلاب علم نجباء، أسهموا بتدريس الدين الإسلامي في مناطق عدة[3].

أما من حيث المدارس التقليدية الدينية فقد وجدت مدارس تقليدية، بنتها بجهودٍ فردية شخصيات كانت قد تولت مناصب مهمة في السلطنة تخليداً لها، وأخرى دينية منسوبة إلى مذهب إسلامي ومن أبرزها:

---

(١) محمد مطيع الحافظ، دور القرآن الكريم بدمشق، دار البيروني دمشق ٢٠١٠ ص ٩-١٠٨.

(٢) محمد مطيع الحافظ، دار الحديث الضيائية ومكتبتها بصالحية دمشق ، دار البيروني دمشق ٢٠٠٦، ص ١٥ وما بعدها.

(٣) الحافظ، مرجع متقدم ص ٢٥.

- المدارس غير الدينية: وتمت بجهود فردية.
- مدارس الشافعية: وقد ازدهرت زمن السلطنة المملوكية.
- مدارس الحنفية: اشتهرت زمن الدولة العثمانية.
- مدارس الحنابلة: لم ترتبط بدولة، لكنها وجدت منذ أيام الأيوبيين والمماليك.

وأول مدرسة للحنابلة بدمشق هي المدرسة العمرية، التي كانت على سفوح جبل قاسيون بصالحية دمشق، أنشأها وأوقفها الشيخ أبو عمر المقدسي (٥٢٨-٦٠٧هـ)، وإليه وإلى أبيه أحمد بن قدامة يرجع سبب كثرة أتباع المذهب الحنبلي بدمشق وبلاد الشام. وبنو قدامة حنابلة، قدموا إلى دمشق من أيام نور الدين، ونشروا مذهب الإمام أحمد بن حنبل في دمشق والشام، وأثروا فيه بدراساتهم وتآليفهم التي أصبحت عمدة المذهب فيما بعد، ومن دمشق والشام انتقل هذا المذهب إلى البلاد النجدية، ولا يزال الحنابلة يؤلفون مجموعة صغيرة في دمشق وضواحيها(١).

- مدارس المالكية: لم تحظَ هذه المدارس بتأييد من سكان المشرق العربي.

إن هذه المدارس مذهبية أو غير مذهبية منحت طلابها شهادات اعترف بها من قِبَل السلطات الحاكمة، لكنها تخصصت في التدريس الديني، وفي عهد التنظيمات أغلقت هذه المدارس، ومن أبرز المدارس غير المذهبية:

المدرسة السليمانية: وتقع في محلة نور الدين بالقرب من باب البريد، وكان المدرس فيها يتقاضى شهرياً راتباً مقداره ستة دراهم(٢).

---

(١) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ١٦٥/١، و٤/١-٥، الدارس للنعيمي ١٠٠/٢، خطط الشام محمد كرد علي ج٦ ص ٩٩.

(٢) عبد القادر بدران، منادمة الأطلال ومسامرة الخلان، دمشق ، د.ت، ص ٧٨.

المدرسة المرادية: وتقع في باب البريد، وكانت تحتوي على مدرستين: صغرى وكبرى، أنشئت سنة (١١٠٨هـ/١٦٩٦م)، وقد اشترط على طلابها رغبتهم في طلب العلم والسعي لتحصيله، وأن يكون الطالب من أهل الصلاح والتقوى(١).

مدرسة إسماعيل باشا: وتقع في باطنة دمشق بسوق الخيَّاطين، قرب محكمة الباب، بنيت من قبل إسماعيل باشا (١١٤١هـ/١٧٢٨-١٧٢٩م)، وقد أنشئت على النمط الأيوبي، وقد أوقف إسماعيل باشا لها أوقافاً تضمن لطلابها ومدرسيها رواتبهم واستمرارية التدريس فيها(٢).

مدرسة عبد الله باشا العظم، بنيت من قبل الوزير محمد باشا العظم محافظ الشام سنة (١١٩٣هـ/١٧٧٩م)، وهي آخر مدرسة تلقى فيها الدروس باللغة العربية، وكان المدرس يتقاضى فيها شهرياً خمسة قروش وخازن الكتب قرشاً ونصف(٣).

هـ- المواد التي تُدِّرسها المدارس الفقهية:

١- المدارس الشافعية:

درّست الفقه الشافعي ومؤسس هذا المذهب، ونهجه الديني وشروط الصلاة والصيام وسبل دخول الجنة وشروط الإيمان به.

---

(١) سجل المحاكم الشرعية، دمشق، سجل رقم ٦٦٠ وثيقة ٢١ لسنة ١٢٤١هـ/١٨٧٤م. ص ٣٩-٤٠.

(٢) سجل المحاكم الشرعية، دمشق، سجل رقم ٢٩٥ وثيقة رقم ٦٠٤ لسنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م، ص ١٧.

(٣) سجل المحاكم الشرعية، دمشق، سجل رقم ٢٩٥ رقم الوثيقة ١٣٩٣-١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ص ٣٥٢.

وقد ضمت المدرسة الشافعية، المدرسة الأمينية في باب القواقين، وقد بناها أمين الدين أتابك العساكر بدمشق سنة (٥١٤هـ/١١٢٠م)، وقد هدف مؤسسها إلى تربية الصبيان وتعليمهم مختلف العلوم مثل: القراءة والكتابة والحساب وعلم الفلك. والقسم الثاني من المدرسة عُرف باسم المدرسة البادرائية الشامية، وأنشئت داخل باب الفراديس شرقي الناصرية الجوانية، وعهد إلى السيد خليل الخشة الإشراف عليها واختيار المدرسين، وقد منح المدرس فيها خمسة دراهم.

ومن المدارس الشافعية التي بنيت في دمشق(١):

١- **المدرسة الشافعية البرانية**: وعرفت بالحسامية، وقد بنيت في سوق ساروجة، بنتها ست الشام زمرد خاتون بنت نجم الدين أيوب، وعُين محمد بن مصطفى الداغستاني لقراءة جزء شريف في هذه المدرسة(٢).

٢- **المدرسة الشامية الجوانية**: بنتها ست الشام زمرد خاتون مقابل البيمارستان، وعُين عليها السيد محمد صدقي أفندي كناظر على وقف هذه المدرسة(٣).

٣- **المدرسة الظاهرية الجوانية**: بنيت شرقي القلعة داخل باب الفرج والفراديس، اشتراها أيوب والد صلاح الدين، فحوّلها الظاهر بيبرس إلى مدرسة تدرس المذهب الشافعي إضافة إلى المواد الدينية والأدبية التي تُعد طلاباً جيدين، وقد وجد فيها ثلاثة صفوف:

---

(١) لزيادة الاطلاع، أحمد حطيط، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، (٦١٨- ٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، بيروت ٢٠٠٣، ص ٢١٤ وما بعد.

(٢) سجل المحاكم الشرعية، دمشق، رقم ٢٩٥ وثيقة ١٧٤ لسنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م، ص ٢٥٢.

(٣) سورية سالنامه سي سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م دفعة ١٥ ص ١٥٠.

الصف الأول: ويدرس القواعد الفارسية والحساب، والإملاء وخط الرقعة، والإنشاء وزبدة التاريخ إضافة إلى علم الحديث وعلم الفقه.

الصف الثاني: أمثلة عن الصحابة والتعليم الفارسي، والتعداد والترقيم وخط الرقعة.

الصف الثالث: علم حال، رسالة أخلاق، خط الثُّلث(١).

وقد شملت المدارس الشافعية مدارس عدة، مثل: المدرسة النورية الكبرى، والمدرسة الريحانية، ومدرسة الجراكسة، ومدرسة الحاجبية، والمدرسة السيبائية، والمدرسة الفتحية، والمدرسة الجقمقية، وقد خضعت هذه المدارس إلى التطور الحديث واستجابت لمتطلبات العصر، فبعضها تخلى عن التسمية وبعضها احتفظ بها، وبعضها الآخر استجاب استجابة كاملة من حيث تدريس العلوم الحديثة وتخلى نهائياً عن العلوم الدينية(٢).

٢- مدارس الحنابلة:

لا شك أن هذه المدارس ركَّزت بشكل كامل على تدريس المذهب الحنبلي، غير أن رواد هذا المذهب سارعوا في بناء هذه المدارس، ومن أبرزها(٣):

١- **المدرسة الصاحبية:** بنيت من قِبَل خاتون بنت نجم الدين بن أيوب في منطقة الصالحية بدمشق، وعُهد بإدارتها إلى السيد محمد أفندي وصالح أفندي ولدي السيد سعيد أفندي الأسطواني(٤).

---

(١) أسماء الحمصي، المدرسة الظاهرية (دار الكتب الوطنية)، ط١، دمشق، ١٩٦٧، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. ص ١٨٧.

(٢) سجل المحاكم الشرعية: سجل رقم ٣٣٦ وثيقة ٣٣٦ وثيقة ١١٠ سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ص٨٣.

(٣) سجل المحاكم الشرعية: رقم ٢٩٥ وثيقة ١٠٤٨ سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م ص ٤٧٢.

(٤) سجل المحاكم الشرعية: دمشق، سجل رقم ٢٩٥ وثيقة ١٠٤٨ سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م، ص ٢٧٢.

المدرسة العُمَرية الشيخية: وتعّد من أبرز مدارس الحنابلة كونها تقع في سفح جبل قاسيون مركز الحنابلة، وقد بنيت هذه المدرسة من قِبَل أبي عمر الحنبلي الملقب بالكبير سنة (٥٥٠هـ/١١٥٥م)، وكانت المدرسة العمرية تتألف من ثلاثين غرفة (حجرة)، كما ضمت مكتبة احتوت على أعداد ضخمة من المخطوطات الدينية والعلمية الأخرى، ولقبت بالشيخية؛ لأن الشيخ عبد القادر السقطي تولى إدارتها وساعده في تطوير المدرسة علمياً السيد علي السقطي، أما أوقافها فقد عُهد بها إلى إسماعيل أفندي زاده بموجب براءة سلطانية[(١)].

المدرسة المسمارية: بنيت هذه المدرسة مقابل القيمرية من جهة القبلة، ونظراً لقلة مساحتها وصغر غرفها، وإهمالها بعد سنوات من بنائها حولتها السلطة التركية في دمشق إلى مخفر للجندرمة (الشرطة)؛ لأن الشبان المحليين كانوا يتجمعون بالقرب منها[(٢)].

المدرسة الجوزية: بناها الصاحب محيي الدين بن جمال الدين سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) في سوق البزورية، وكانت في بادئ الأمر تابعة لجمعية خيرية مهمتها تعليم الأولاد الأيتام والفقراء، وكانت تعلمهم القرآن الكريم، والخط والحساب، وفي سنة (١٢٧٧هـ/١٨٦٠م) تعرضت لحريق كبير دمرها بالكامل[(٣)].

---

(١) سجل المحاكم الشرعية: دمشق، سجل رقم ٣٠٥ وثيقة ٥٧١ لسنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ص ١٧٠ أما مصطلح زاده فهو فارسي ويعني (ابن)، وأوغلو مصطلح تركي يعني (ابن).

(٢) محمد أديب آل تقي الدين الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق، تقديم كمال سليمان الصليبي، ثلاثة أجزاء، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩ ج ١ ص ١٣٢.

(٣) الحصني، مصدر متقدم، ج ٣ ص ٩٥٩.

٣ – مدارس المالكية

تُعد مدارس المالكية من أقل المدارس المذهبية في دمشق شيوعاً؛ لقلة أنصار هذا المذهب في دمشق، بينما تُعدُّ مناطق المغرب العربي من أكثرها اتباعاً للمذهب المالكي.

ويردُّ بعض الباحثين قلة اعتناء المشرقيين بالمذهب المالكي إلى أن الأيادي تسبل كالمذهب الجعفري بعكس المذاهب الإسلامية الأخرى التي تعقد الأيادي(١).

وتُعد المدرسة المالكية التي بنيت بمحلة البيمارستان النوري أولى تلك المدارس وتفيد المصادر أن عدد طلابها كانوا قلة، وأن روادها كانوا يُعدون على الأصابع، ولهذا فإن هذه المدرسة لم تحظَ بسمعة حسنة أسوة بمدارس بقية المذاهب.

٤– المدارس الحنفية

لقد حظيت المدارس الحنفية باهتمام الدولة العثمانية؛ لأن الدولة العثمانية اعتنقت المذهب الحنفي الذي ساد على المذهب الشافعي الذي كانت السلطنة المملوكية تعتمده، ولهذا فقد وجدت لها مدارس عدة، أبرزها:

- المدرسة النورية الكبرى: وهي جزء من دار هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي، وقد بناها الصالح إسماعيل سنة (٥٦٣هـ/١١٦٧م)، وقد درّست علم الحديث والفقه والخط والقرآن والحساب(٢).
- المدرسة الريحانية: وقام ببنائها ريحان الطوشي خادم نور الدين الزنكي سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م)، وبنيت بجانب النورية،

---

(١) صلاح راجي العمري، المذاهب الإسلامية في الإسلام ، بغداد ١٩٦٧ ص ١٥٠.
(٢) أوامر سلطانية، مجلد ١ ، وثيقة ٦١ سنة ١٢٢٧ هـ/١٨٢١م، ص ٣٢.

وقد تعهدت هذه المدرسة تدريس الصبيان مجاناً، كما تولى إدارتها الشيخ صاحب النقشبندي تطوعاً[1].

- المدرسة الرشدية: بنيت على نهر يزيد بن معاوية بالصالحية، قامت خديجة خاتون بنت الملك المعظم بن العادل ببنائها، وقد خصصتها لتدريس علم الحديث، وكان كبير المدرسين فيها يتقاضى راتباً شهرياً مقداره (١٥٠) قرشاً أمثال الأستاذ القارصللي محمد أفندي، وقد أوقفت لها أوقافاً تجاوز دخلها ٧٠٠،٠٠٠ قرش معظمها من تبرعات أهل البر والتقوى[2].
- المدرسة الجركسية: وهي مدرسة وسطية مشتركة ما بين المذهب الحنفي والمذهب الشافعي، تولى أوقافها أشخاص من آل المحاسني منذ سنة (١٢٤٧هـ/١٨٣١م)[3].
- المدرسة السيبائية: بناها نائب الشام سيباي أمير السلاح في نيابة الشام في العصر المملوكي سنة (٩٢١هـ/١٥١٥م)، وجعلها جامعاً وزاوية وتربة ومدرسة، وفيما بعد تحولت إلى مدرسة ابتدائية خاصة بالصبيان[4].
- المدرسة الجقمقية: بناها سنجر الهلال وولده شمس الدين سنة (٧٦١هـ/١٣٥٩م) شمال الجامع الأموي، وقد خصص فيها قسماً للأيتام، أعيد ترميمها في العصر العثماني في القرن التاسع عشر، وحولت إلى مدرسة رشدية[5].

---

(١) الحصني، مصدر متقدم، ج ٣ ص ٩٦٠.

(٢) أوامر سلطانية، دار الوثائق دمشق، مجلد ١ وثيقة ٤٧ لسنة ١٢٣٧هـ/١٨٢١م، ص ٢٥.

(٣) سجل المحاكم الشرعية: دار الوثائق، دمشق، سجل رقم ٣٢٤ وثيقة ٤٢٠ لسنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م ص٣٠٣.

(٤) الحصني: مصدر متقدم، ج ٣ ص ٣١٦، ابن بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال ومسامرة الخلاّن، دمشق (د.ت) ص٢٦.

(٥) المحاكم الشرعية: دمشق ، سجل رقم ١٣٨ وثيقة رقم ٧٢٨ لسنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م.

- المدرسة القجماسية: أنشأها نائب الشام قجماس الإسحاقي الجركسي سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، وقد بنيت داخل باب النصر وباب السعادة، وقد عُهد إلى السيد محمد شاكر المرادي بالإشراف على وقفها، كما منح ربع ثلث حصة تدريس المدرسة، بموجب براءة سلطانية صدرت سنة (١٢٣٩هـ/١٨٢٣م)[١].

وبالرجوع إلى سجلات المحاكم الشرعية ٢٩٤ لمختلف المدارس المذهبية، فإن هذه المدارس قد بنيت للتنافس المذهبي، ومع مرور الزمن اضمحلَّ التنافس المذهبي وتحول إلى تنافس علماء، لكن العثمانيين وجهوا المدارس المذهبية بحسب رغباتهم و مصالحهم.

وقد درَّست هذه المدارس المواد التالية:

١- فن التجويد والقراءات.

٢- النحو والصرف وعلوم العربية.

٣- علم الحديث والتفسير والفقه وفن التصوف والفرائض وعلم الكلام والمنطق، وقد منحت إجازات وشهادات علمية عرفت «بالإجازات» مثل إجازة حفظ القرآن، إجازة بعلم القراءات والعقائد[٢].

٨- المدارس الإسلامية الخاصة في دمشق

١- المدرسة السليمانية: وسميت تيمناً بالسلطان سليمان القانوني وبنيت بمحلة نور الدين الزنكي بالقرب من باب البريد،

---

(١) أوامر سلطانية، مجلد ٢، وثيقة ١٠٤ لسنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣ م، ص ٥٦.

(٢) إجازة بالقرآن الكريم، دلائل الخبرات من محمد الدسوقي إلى مصطفى العلي، مخطوط مصور بمكتبة الأسد رقم ١١٣٤٣ ، رزمة ١-٣.

وقد ضمت هذه المدرسة ست عشرة حجرة علوية وسفلية، كما ألحق بها مسجد وخزانة كتب ومطبخ، وكان المدرِّس يتقاضى راتباً يومياً مقداره (١٥) درهماً عثمانياً، في حين تقاضى إمام المسجد ستة دراهم، وشيخ القراءة ثمانية دراهم[١].

٢- **المدرسة المرادية**: وقد بنيت في باب البريد، ضمت مدرستين: مدرسة صغرى ومدرسة كبرى، أنشئت سنة (١١٠٨هـ/١٦٩٦م)، وكانت المدرسة الصغرى تحتوي على غرف عليا وسفلى إضافة إلى مكتبة علمية سميت «أزهر دمشق»[٢]. واشترطت على الطلاب المنتسبين إليها الرغبة في طلب العلم وتحصيله وألا يكون متزوجاً أو أمرد أو يمتهن مهنة أو حرفة، كما اشتُرط ألا يؤجر وقفها لأكثر من ثلاث سنوات كحد أقصى. وقد درَّس فيها كبار المدرسين والعلماء الذين تفاخروا بأنهم يُدرِّسون في المدرسة المرادية[٣].

٣- **مدرسة إسماعيل باشا**: وبنيت في باطن دمشق بسوق الخياطين قرب محكمة الباب وقد بنيت من قبل إسماعيل باشا سنة (١١٤١هـ/١٧٢٨-١٧٢٩م)[٤]، وتُعد ثاني

(١) ابن بدران، مصدر متقدم، ص ٢٦٩.

(٢) ابن بدران، مصدر متقدم، ص ٢٧٠.

(٣) سجل المحاكم الشرعية، دمشق، رقم ٦٨٠ وثيقة ١٩٢ لسنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ص ٤٠.

(٤) سجل المحاكم الشرعية، دمشق، رقم ٢٩٥ وثيقة ٢٦٠٤، لسنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م ص ١٩٠.

مدرسة بنيت على النمط المملوكي، كما يُعد الشيخ عبد القادر الخطيب من أشهر مدرسيها حيث تولى وظيفة التدريس بموجب براءة سلطانية أصدرها السلطان عبد الحميد الثاني سنة (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م)، وكان وقفها كبيراً وغنياً(١).

٤- **مدرسة سليمان باشا العظم:** بنيت في السليمانية سنة (١١٥٠هـ/١٧٣٨م)، تولى التدريس فيها الشيخ «محمد الكزبري» سنة (١١٨٥هـ)، وقد درّس فيها «صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود» و«تفسير البيضاوي»، وكتاب «التحفة على المنهاج»(٢).

٥- **مدرسة عبد الله باشا العظم:** بناها مؤسسها عبد الله سنة (١١٩٣هـ/١٧٧٩م) يوم كان والياً على دمشق، وتُعد هذه المدرسة آخر المدارس التي تدرس العربية، وكان المُدِّرس فيها يتقاضى خمسة قروش وإمام مسجدها قرشاً ونصف وخازن الكتب قرشاً وربع، وستة قروش لمن يكون معيداً فيها(٣).

٦- **مدرسة مصطفى باشا:** عُهد إلى أحمد شمسي باشا نظارة المدرسة وذلك سنة (١٢٣٨هـ/١٨٢٤م)، وقد تحمل

---

(١) سجل المحاكم الشرعية، دمشق رقم ٣٢٤٢ وثيقة ٢١٠ لسنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م ص ١٧٠.

(٢) محمد جميل الشطي، روض البشر في أعيان القرن الثالث عشر، دمشق، دار اليقظة العربية ١٣٦٣هـ ص ٢٢٧.

(٣) سجل المحاكم الشرعية، دمشق، رقم ٣٠١ وثيقة ١٣٩٣، سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م، ص ٣٥٢.

مسؤولية التدريس فيها مقابل راتب قدره خمسة دراهم عثمانية[1].

٧- **مدرسة أحمد شمسي**: تقع في منطقة سوق الأروام، تولى نظارتها «محمد شاكر أفندي، والشيخ مصطفى أفندي، والشيخ أحمد أفندي وغيرهم من المدرسين»، وكان العاملون يتقاضون أجراً مجزياً؛ لأن أوقافها ذات مردود عالٍ[2].

وقد وجد في مدينة دمشق عدد آخر من المدارس غير الإسلامية الخاصة تجاوزت العشرين، أبرزها: المدرسة الفارسية، ومدرسة الخيَّاطين، والمدرسة الأسعدية، والمدرسة الدرويشية، والمدرسة البدرية، ومدرسة عماد زاده، ومدرسة فتحي الدفتردار، ومدرسة القصاصية، والمدرسة الصادرية، والمدرسة البلخية، ومدرسة كليري، ومدرسة مراد بك الطوسي، وكانت هذه المدرسة تُدرّس مختلف العلوم ولاسيما الدينية منها، وكانت نظارة المعارف العثمانية تراقب هذه المدارس بدقة، وقدَّمت لبعضها مساعدات ولاسيما المدارس التي تدرس الأيتام والفقراء، وكان لهذه المدارس أوقاف عدة سُخرت لتأمين حاجات المدارس[3].

لقد قدمت هذه المدارس لطلابها العلوم، ومنحت الخريجين إجازات وشهادات تخرج، أما المتفوقون فقد كلفوا بالتدريس في المدارس التي

---

(١) الحصني، مصدر متقدم، ج ٣ ص ٩٦٦.

(٢) المصدر السالف نفسه، ج ٣ ص ٩٦٦.

(٣) مخطوط تراجم مشاهير فضلاء القرن الثالث عشر الهجري: لمؤلف مجهول، مكتبة الأسد رقم ٦٩٧٠ ورقة ٤٥.

تخرجوا منها، كما أجازوا للخريجين العمل في القضاء كقضاة وإداريين في الولايات سواء في دمشق أم خارجها، وقد ضمن هؤلاء الخريجون استمرار الحياة العلمية والإدارية لولاية دمشق وغيرَّوا الأقضية التابعة لها، كما درَّس المدرسون المشهورون في مدارس استانبول وحصل معظمهم على براءة سلطانية تخولهم التدريس في المدارس الشرعية وسمحت لبعضهم بممارسة القضاء كقضاة شرعيين بعد خضوعهم لامتحان في علم الكلام وعلم الحديث والفقه والمنطق(١).

(١) مجموعة إجازات مختلفة لعدة مؤلفين، لمؤلف مجهول، مكتبة الأسد رقم ٢٩ ورقة ٢٣.

استنتاج الفصل الأول

حاول العثمانيون، إتباع سياسة علمية منظمة ومنضبطة إلى حدّ ما، محاولين إضفاء الصبغة الدينية عليها ليسهل انقياد الناس لهم، وإذا كان البعض قد اعتبر العصر المملوكي عصر انحطاط للأدب العربي، فإن البعض الآخر يرى أن العصر العباسي كان بمثابة عصر التدمير للحركة العلمية والمعرفية، لاسيما وأنهم كانوا جاهلين باللغة العربية وعلومها، إضافة إلى التحجر الفكري الذي ساد في زمنهم، إلا أن هذا لم يمنع العثمانيين من الاستمرار في بناء المدارس لاسيما الدينية منها.

لقد مثّل العثمانيون الواقع التعليمي المتبع في بلاد الشام ولاسيما دمشق، وأجازوا لولاتهم المساهمة في بناء المدارس المذهبية، لكنهم تدخلوا بها ليحوّلوا اتجاهاتها إلى مسارات تمكّنهم من ضرب أصحاب المذاهب من خلال بث الطرق الصوفية، غير أن رعايا بلاد الشام تمسّكوا بالمدارس المذهبية، وبنوا مدارس غير مذهبية، وتباروا من خلالها في زيادة معارفهم العلمية والتعليمية، ورغم ذلك فقد ظلّت المدارس في الدولة العثمانية وولاياتها تراوح في مكانها أو تتطور تطوراً بطيئاً تمثّل في إدخال مواد تطبيقية شيئاً فشيئاً.

لقد شهدت المسألة التعليمية والتدريسية تطوراً ملحوظاً في مرحلة كان لا بد فيها من التخلص من الواقع السيئ والمزري الذي زادته الإنكشارية تأخراً، وقد حاول سلاطين الإصلاح تحسين أوضاع دولتهم من خلال الاقتداء بأوروبة، فباشروا بافتتاح مدارس عسكرية الطابع، لكنها خطوة تحديثية؛ لأن

تلك المدارس درّست علوماً في معظمها غير دينية، وقد لقيت قبولاً حسناً، ولكي لا يحدث تعارض في السياسة التعليمية عمد السلاطين إلى بناء مدارس تعتمد تدريس مواد علمية مستمدة من أوروبة، التي بدأت بتطوير حياتها في مختلف النواحي، وشعر السلاطين العثمانيون أن السبيل الوحيد والأقصر إلى بناء وطن متطور هو تطوير التعليم، فأصدر السلطان محمود الثاني فرماناً سنة (١٨٢٤م) يقضي بافتتاح مدارس على النمط الحديث، ودأب ابنه عبد المجيد على توسيع دائرة التعليم، فأصدر كلخانه خطي كوثيقة يستند عليها الولاة في افتتاح المدارس على النمط الأوروبي تجنباً لمعارضة رجال الدين الذين أدركوا أو شعروا أن التعليم الحديث قد يعرض مكانتهم الشبه بابوية للخطر، وبعد أن توسعت دائرة التعليم، أدرك هؤلاء الدينيون أن الرعية ازداد تمسكها بالدين عن قناعة ومعرفة وليس خوفاً من نار تنتظرهم، وأن العلم الحديث والمتطور لا يتعارض معها.

لقد ازدادت المعرفة العلمية لدى العامة والخاصة، وأزيلت الفروق التي تربوا عليها؛ تلك الفروق القائمة على تخصيص مدارس طبقية، وغدا الجميع يجلسون سوية ويتحدثون في مختلف الأمور الدينية والسياسية والاجتماعية.

الفصل الثاني

السلطان عبد العزيز ودوره في تطوير التعليم

(١٢٧٨-١٢٩٢هـ/١٨٦١-١٨٧٦م)

١- التعليم في عهد التنظيمات أيام السلطان عبد العزيز .

٢- قانون المعارف وانعكاساته على التعليم في دمشق .

٣- دور مديرية معارف الولايات .

٤- تعليم الطوائف غير الإسلامية :

أ- المدارس المسيحية في دمشق .

ب- مدارس اليهود .

٥- مصروفات التعليم في مديرية معارف دمشق .

٦- عدد مدارس مديرية معارف دمشق وماهيتها (ذكور - إناث) .

٧- أنواع التدريس ومناهج الدراسة ومستوياتها .

٨- الشهادات الممنوحة للخريجين .

- استنتاج الفصل الثاني .

شهدت ولاية بلاد الشام ولاسيما ولاية دمشق نشاطاً علمياً منظماً بعد سنة (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م)، حيث أُيقظت في أذهان سلاطين الإصلاح مدى أهمية دمشق كموقع استراتيجي تسعى الدول الأوروبية للتنافس عليها، وكان لإبراهيم باشا دور في إيقاظ الاهتمام العثماني أو إثارة الغيرة العثمانية، ولهذا وفور التزام إبراهيم باشا باتفاقيتي لندن الأولى (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م)، والثانية (١٢٥٧هـ/١٨٤١م)، غدت الفرمانات الصادرة من استانبول تعلم بها دمشق وأهلها فور توقيع السلطان عليها، ولهذا تجنب ولاتها التلكؤ أو التأخير في تنفيذ فرمان إصلاحي، وقد عمت هذه الإصلاحات دمشق وحلب وجبل لبنان.

لقد عمد العثمانيون بعد معركة مرج دابق (٩٢٢هـ/١٥١٦م) وانتصارهم فيها إلى تقسيم بلاد الشام إلى ثلاث ولايات (إيالات) وهي[١]:

- ولاية (إيالة) دمشق وشملت عشرة ألوية (سناجق Sancak)[٢].
- ولاية (إيالة) حلب، وشملت تسعة ألوية.
- ولاية طرابلس، وشملت خمسة ألوية.

وفي أيام الحكم المصري طرأ تغيير على التقسيمات الإدارية بحيث أصبحت مديريات تشمل (الشام وحلب وصيدا وطرابلس الشام وأضنه)، وفي سنة (١٢٧٦هـ/١٨٥٠م)، أعاد العثمانيون تقسيم بلاد الشام إلى ولايات بدلاً من مصطلح إيالات.

---

(١) لفظة لواء هي لفظة عربية يقابلها باللغة العثمانية سنجق.

(٢) Ismail Hakki, osmanli devleti teskilati, Ankara 1968.S.198.

ولمّا دخلت الدولة العثمانية مرحلة تنظيمات فرضها العالم الأوروبي قبلت رعاياها هذه التنظيمات، لأنها تسهم في تطوير حياتها وتدفعها للوقوف في صفوف الإنسانية بعدما كانت عبداً يديره فرمان، أما في عهد التنظيمات فالفرمان يصدر من إدارة وهيئة تحيط بالسلطان، وبتعبير آخر لقد تبدلت مهام الإدارة، ولتأكيد ذلك فقد لجأ السلطان عبد العزيز (الذي يُعد من أبرز سلاطين الإصلاح بعد السلطان عبد الحميد) مع هيئته الإدارية إلى إصدار قانون ينظم الولايات وذلك سنة (١٢٨١هـ/١٨٦٤م)، وبموجبه نظمت ولايات بلاد الشام على النحو الآتي[١]:

- ولاية سورية وتضم أربعة ألوية هي: الشام، وحماه، وحوران، ومعان.
- ولاية بيروت، وضمت خمسة ألوية هي: بيروت، وعكا، وطرابلس، واللاذقية، ونابلس.
- ولاية حلب، وتألفت آنذاك من ثلاثة ألوية هي: حلب، وأورفه، ومرعش.

لقد أنهى السلطانْ عبد العزيز بإصداره قانون «تنظيم الولايات» التخبط الإداري، ومنع ولاة الشام (سورية) من التمادي على الولايات المجاورة ولاسيما بيروت، حيث كان ولاة الشام يتذرعون بحجج واهية للتدخل في شؤون ولاية بيروت عندما كانت تابعة لغير نفوذها[٢]، ولمنع تمادي ولاة الشام صدر فرمان سنة (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) بتحديد حدود ولاية دمشق والألوية والأقضية والنواحي التابعة لها، في حين دأب الباب العالي على تسمية (بشير الثالث) أمير الجبل[٣].

---

(١) دولت عثمانية سالنامه سي لسنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م ص ٢٣٥.

(٢) دار الوثائق التاريخية بدمشق، دفتر ١٤١، ٢٩٤، والدفتر ٦٥ المتعلق بشؤون ولاية حلب وكيفية تنظيمها.

(٣) تعرضنا في بحثنا هذا إلى التقسيم الإداري لبلاد الشام لاستكمال الشكل النهائي للتقسيم الإداري، أما بشأن حلب وجبل لبنان فهما خارجان عن موضوع هذا البحث.

والحق يقال: فقد منح دستور «تنظيم الولايات» سنة (١٢٨١هـ/١٨٦٤م) الولايات العثمانية أسساً ديمقراطية، إذ جُددت الحياة السياسية بموجبه، ومنح الحاكم العام صلاحيات واسعة تساعده في تطبيق بنود الإصلاحات والتنظيمات، كما أسهم في ظهور السلطة المحلية الشعبية التي مثلتها المجالس الإدارية التي خولت تلك المجالس الدفاع عن الحقوق الشرعية لسكان الولاية، وعمقت في نفوسهم حق التمسك بالهوية الجديدة.

ويؤكد مؤرخو تلك المرحلة أن قانون (دستوري ١٢٨١هـ/١٨٦٤م) أسهم في تسارع المجاهرة بالنهضة العربية، وأفسح المجال أمام الجمعيات التي تسترت تحت أسماء علمية، فانعكست تسمياتها على الشارع الذي بدأ بمطالعة الصحف والمجلات التي عمت مختلف المدن.

يجمع المؤرخون على أن الخطوات التي اتخذها السلطان محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥هـ/١٨٠٨-١٨٣٩م)[١]، قبل تأسيسه لمجلس الأحكام العدلية، قد طبقت على أسس علمية في زمنه، واعترف بها دستور (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) اعترافاً رسمياً، كذلك فإن السلطان محمود الثاني قام بتأسيس أول صحيفة رسمية حملت اسم (Lemomiteri Ottoman) وقد صدرت باللغتين التركية والفرنسية، وتبعها صدور عدة صحف نشر على صفحاتها الأنظمة الجديدة[٢] والتعيينات التي كانت تصدر، غير أن ابنه عبد المجيد (١٢٥٥-١٢٦٨هـ/١٨٣٩-١٨٦١م)، الذي صمم على متابعة خطا والده في مسيرة الإصلاح واجه معارضين أمثال مصطفى رشيد باشا، وفؤاد باشا اللذين ظلا يتحكمان بشؤون الدولة حتى تولى

---

(١) كان السلطان محمود الثاني يردد على مسامع جلسائه: أنا أميز بين رعاياي على أساس أن المسلمين في مساجدهم، والمسيحيين في كنائسهم واليهود في معابدهم، مرجع متقدم غير مترجم: İsmail Hakki.s.293.

(٢) أحمد لطفي، تاريخ لطفي، استانبول ١٣٢٩هـ، ص ٤٢٧.

السلطان عبد العزيز العرش سنة (١٢٧٨هـ/١٨٦١م)، ولمّا بالغ في تصرفاته ولاسيما المالية وأعرض عن بعض الشخصيات التي انتزعت من السلطان الحاكم الكثير من الصلاحيات، التفوا عليه وأرغم مفتي الإسلام على الإفتاء بخلعه من العرش[١].

لقد واجه السلطان عبد العزيز متغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية أقرتها الخطوط الهمايونية (كلخانه خطي ١٨٣٩ وشريف همايون خطي ١٨٥٦) وعَدَّ المسلمون أن هذه الخطوات هي هدم للإسلام، وأن المسيحيين انتصروا عليهم، ولاسيما المظاهرة المسيحية التي سارت في استانبول ونددت بالإسلام وهتفت بشعارات معادية للإسلام، ولم يكن بمقدور الدولة استخدام العنف حيالها؛ لأن الدول الأوروبية كانت قد قدّمت خدمات للعثمانيين وأنقذتهم من النفوذ الروسي[٢].

كان على السلطان عبد العزيز أن يواجه هذه المتغيرات التي تفاقمت في السنوات الأخيرة من حكم أخيه عبد المجيد والسنوات الأولى من حكمه، فالتفت إلى تبذير الأموال إرضاءً للمعادين له، ووجه اهتمامه إلى افتتاح المزيد من المدارس والمعاهد العلمية، فأصدر عدة فرمانات كلها تسهم في زيادة التعليم وتشجيع رواد العلم وذلك بإسناد هذه المهمة إلى المشرّع العثماني أحمد جودت باشا[٣].

ومن أهمِّ خطوات الإصلاح التي أقرها السلطان عبد العزيز تنظيم المجلس العالي للأحكام العدلية الذي صدر في ٨ صفر (١٢٨١هـ) ١٨ آذار سنة (١٨٦٤م)، وقد تضمن مجلسُ الأحكام العدلية فرعين:

---

(١) للمزيد عن أحداث تلك المرحلة، مجلة الجوائب عدد ٩٩٠، ٣ صفر ١٢٩٤هـ ص ٦.
(٢) نوفل نعمة الله نوفل، الدستور، بيروت ١٩٩٩، ج ٨ ص ٢٢٣.
(٣) جودت، مصدر متقدم، ج ٧ ص ٤٧٣.

- الفرع الأول: ديوان الأحكام العدلية،
- الفرع الثاني: سرايا الدولة.

وقد ارتبطت بالفرع الأول المهام القضائية بصورة شبه كاملة، ومسألة التعليم وشؤون المعارف التي أناطت مهام التعليم بمجلس المعارف العمومية المنبثق عن ديوان الأحكام العدلية(١).

لم يغفل مجلس الأحكام العدلية قانون الولايات، وشدد على تطوير الولاية بمعزل عن التواصل مع استانبول إلا في مجال القضاء والضرائب، أما الشؤون العلمية، فقد أنشأ مجلسُ المعارف العمومية مديريةَ معارف عمومية في كل ولاية، وهذه المديرية تخاطب مجلس المعارف العمومية في استانبول، وتعلمه عن أكبر المشكلات والصعوبات التي تواجهها المدارس والمسألة التعليمية(٢)، ولاسيما أن السلطان عبد العزيز منح المديريات العمومية أحقية تحديد مصروفات ولاياتها وحاجتها إلى المدارس، وحذر التوجيه السلطاني من تخصيص مدارس للأعيان خاصة بهم، كما طالب بمراعاة مسألة الاختلاط ما بين الذكور والإناث وذلك حسب واقع المدرسة والأهالي(٣).

وقد اتهم انجلهارت القضاء العثماني بأنه لا يراعي واقع المدارس ولا المواد التي تدرسها، ولا يُعد الرجال الذين يطبقون الأسس الواجب اتباعها في تأهيل الطلاب، ومنح المدرسين رواتب وغيرها من الأمور الأخرى(٤).

---

(١) نوفل، المصدر السالف، ج ١ ص ٥٧-٥٨.

(٢) جودت، مصدر متقدم، ج ٧ ص ٥٥٠.

(٣) سجلات الديوان الهمايون، سجل رقم ٤٧٥ وثيقة ١٣٨٥ ص ٨٧.

(٤) انجلهارت، التنظيمات العثمانية، استانبول ١٩٥٣م ص ٢٤٤ - ٢٤٨، ترجمها إلى العربية محمود عامر.

١- التعليم في عهد التنظيمات أيام السلطان عبد العزيز:

دأب السلطان عبد العزيز على إرساء الأسس التعليمية والتدريسية بموجب قوانين مكتوبة ومدعومة من الدستور الذي أُقر فيه تنظيم الولايات سنة (١٢٨١هـ/١٨٦٤م)، وقد نصت المادة /١٤٣/ من الدستور العثماني الصادر سنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) القاضي بتشكيل مجلس معارف في كل ولاية من الولايات يكون جزءاً أو شعبة من شعب مجلس المعارف العمومي، ويعين مديراً لكل شعبة في تلك الولايات ويسمى مدير المعارف[(١)]، ومن أبرز مهامه:

١- يرفع تقريراً إلى مجلس المعارف في استانبول يحدد فيه حاجته من النفقات ويوضح طرق صرفها.

٢- يخصص من المبالغ المالية التي تحت تصرفه لبناء المدارس، وتكون شروط بنائها محددة في دفتر عقود بناء المدارس[(٢)].

٣- تدوين المصروفات التي استهلكتها شعبته في دفاتر مزدوجة، نسخة ترسل إلى استانبول للتدقيق، ونسخة من الدفاتر يحتفظ بها لتدقيقها من قبل لجنة التفتيش المرسلة من استانبول بناء على توجيه من مجلس المعارف العمومية[(٣)].

تكلف نظارت المعارف بمراقبة الكتب المدرسية في مختلف الولايات، وعلى مدراء الشعب في الولايات إعلام مجلس المعارف عن محتويات الكتب ومراقبة الكتب المتداولة في الشارع العام.

---

(١) الدستور، مصدر سالف،ج ٢، ص ١٧٧.

(٢) سجلات المعارف العمومية لولاية دمشق: مديرية الوثائق، سجل رقم ١٩٨ لسنوات ١٢٨٣هـ/٨٦٦ام و١٢٨٥هـ/١٨٦٨م، و١٢٨٦هـ/١٨٦٩م.

(٣) سجلات المعارف العمومية لولاية دمشق، مديرية الوثائق وسجل ٢٠٧ لسنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م.

لقد نص الدستور الصادر سنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م)، في مادته /١٥٨/ على أن مجلس المعارف يتألف من: رئيسٍ للمعارف (مدير المعارف) يساعده معاون، ومن مفتي الولاية، ومن شخصياتٍ علمية متميزة ومشهورة في الوسط العلمي، وفي أحيان كثيرة يُكلَّف مديرُ الزراعة في الولاية، أو مديرُ التحريرات الخاقاني، ومدرسون ممن تجاوزوا الأربعين من أعمارهم لما لديهم من خبرة في شؤون الإدارة والتدريس[1].

كما نص الدستور على أن إدارة المعارف تتألف من مدير المعارف ومعاونه ومحاسب وأمين صندوق المعارف، وعدَّة كتّاب ومترجمين من قِبَل نظارت العدلية، وموظف لمعاينة الكتب الأجنبية، وقد أقر الدستور أن رئيس مجلس المعارف والمعاونين والمحققين والمفتشين يتم تعيينهم بموجب إرادة سنية، أما كادر مديرية المعارف فيتم تعيينهم بموجب إعلان يعلنه مقام الولاية، وينتقى موظفون ممن تتوافر فيهم الشروط التي نص عليها قانون انتقاء موظفي المعارف في عموم الولاية، وأهمُّ ما نص عليه قانون المعارف لموظفيه: الصحة البدنية وسلامة النطق وخلوه من عاهة جسدية حتى لمن كان بوظيفة بواب في المدرسة أو المديرية.

وتتألف لجنة انتقاء موظفي المعارف من أعيان المدينة سواء لداخل المدينة أم لمدارس الألوية والأقضية والنواحي، ويحذر من اعتماد المحسوبية في هذا المجال[2].

وفي التقرير الذي قدَّمه جودت باشا للسلطان عبد العزيز سنة (١٢٨٠هـ/١٨٦٣م)، عن التعليم في الولايات العربية، أوضح فيه سوء حالات التعليم، وازدياد الجهل في تلك الولايات، خلافاً لما تضمنه فرمان شريف همايون خطي الصادر سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م)، وأنه تم إسناد منصب مديري المعارف

---

(١) قانون المعارف العمومية الصادر سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م المنظم للولايات المادة /٥٧/.

(٢) سجلات المعارف العمومية، استانبول لسنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م، سجل رقم ٨٩.

في الولايات إلى موظفين عثمانيين من باب الحفاظ على الأمن ومنع الاحتجاجات، ولم يكن هؤلاء المدراء المكلفون بإدارة مديريات المعارف يعرفون العربية، وكانوا يمارسون فوقية على المدرسين الذين يدرسون في المدارس المفتتحة في الولاية وألويتها وأقضيتها، وأن معظم المدارس الرسمية تتركز في المدن، أما النواحي والقرى فهي محرومة من التعليم، والتعليم فيها يقتصر على جهد أهالي القرية وبحدود ضئيلة لا تزيد عن قراءة وخط وما شابهه(١).

لم تتطور الحياة التعليمية في عهد السلطان عبد العزيز بعد سنواته الأولى والتي تلت قانون تنظيم الولايات (١٢٨١هـ/١٨٦٤م)؛ لأن المشكلات عصفت بفترته، ويعود الفضل في بناء المدارس وتزايد أعدادها إلى جهد مديرية المعارف في الولاية التي باشرت بافتتاح مدارس مدينة دمشق والمناطق المحيطة بها(٢).

يذكر قوجي بك في تقريره عن تطوير التعليم في عهد السلطان عبد العزيز مانصّه: «أن السلطان عبد العزيز امتاز بسعة أفقه وحبه للتعليم وأنه بالغ في منح مديريات المعارف أموالاً زائدة عن حاجاتها؛ لأنه كان يسعى إلى نشر المدارس في مختلف أرجاء دولته على الرغم من المعارضة التي يواجهها، وحينما علم السلطان أن نظارت المعارف، عمدت إلى تكليف شخصيات عثمانية لا تعرف العربية وتمارس المحسوبية في تعيين المدرسين والموظفين متجاهلة المادة /١٥٨/ من الدستور، حيث سارع إلى استدعاء ناظر المعارف آنذاك سامح أق زاده، وكلّفه بتقديم تقرير مفصل عن حالة التعليم في الولايات، ونقتطف منه ما يخص مدينة دمشق».

«بلغ عدد المدارس التي افتتحت في مدينة دمشق ١٥ مدرسة بنفقات زادت عن ٣٠،٠٠٠ قرش، وأن عدد المدرسين في تلك المدارس (مع المدارس المفتتحة قبل أيام السلطان عبد العزيز وهي ٢٠ مدرسة) زاد عن ٤١٣ مدرساً،

---

(١) لقد أشار جودت باشا لتقريره في مؤلفه تاريخ جودت، ج ٩ ص ٣٨٩.

(٢) سجلات نظارت المعارف، دار الوثائق دمشق، سجل ٣٨٩ ص ٣٥ و ٣٩.

ووجد ١٦ مدرسة مختصة بتدريس البنات؛ افتتحت في مدينة دمشق، وأن ١٠٠،٠٠٠ قرش ثمن المطبوعات يوزع قسم منها مجاناً على الفقراء والأيتام، وأضاف التقرير: أن بعض المدارس تقوم بتقديم المساعدات الطبية مجاناً للطلاب كافة، وقد أصدر السلطان عبد العزيز أمراً برفع رواتب المدرسين كحد أدنى لكل مدرس ومدرّسة مقداره عشرة قروش، وإعفاء المدرسين من الضرائب والغرامات لمدة خمس سنوات، كما أمر بأن تقدم وجبات طعام لطلاب المدارس في الأعياد، وكلف شيخ الإسلام بإصدار فتوى دينية إلى مدراء الأوقاف مفادها:" أنّ كل مدير للأوقاف مرتشٍ أو يتلاعب بأموال الوقف هو كافر ولا مغفرة له، وأنّ أموال الأوقاف المخصصة للمدارس تعفى من الضرائب والغرامات والرسومات بهدف إيصالها إلى المدارس الرسمية إضافة إلى المدارس الأهلية»، ويضيف قوجي بك: «أن خطوة السلطان عبد العزيز أسهمت في تحسين أوضاع الطلاب في مدارسهم وأيضاً المدرسين الذين تحسنت أوضاعهم المعيشية ولاسيما لدى إعفائهم من الضرائب والغرامات»(١).

٢ – قانون المعارف سنة (١٢٨٦-١٢٩٣هـ/١٨٦٩-١٨٧٦م):

لقد تغيرت القرارات في الدولة العثمانية في عهد التنظيمات، فلم تعد تُنفَّذ بموجب فرمان سلطاني؛ بل هناك دستور وقوانين ومواد فرعية تصدر عن الدستور ومواد تلزم العاملين في الدولة على الالتزام بها وتنفيذ مضمونها والاعتماد عليها عند خضوع أية مؤسسة للتفتيش من مركز الدولة، أمّا قانون المعارف العمومية الذي صدر في أيلول سنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م)، بعد دراسة من لجان كُلِّفت بإعداده وتهيئة مواد قانونية لإصدار إدارة المعارف العمومية المسؤولة أمام مجلس المعارف العمومية المنبثق من نظارت المعارف بموجب المادة /١٤٩/ من القانون فقد أقرَّ إدارة معارف على النحو الآتي(٢):

---

(١) تقرير قوجي بك، تُرجم من كتاب لطفي، مصدر متقدم، ج ١ ص ٤٢٥-٤٢٩ بشكل مختصر من قبل الدكتور محمود عامر الذي يمتلك مكتبة عثمانية جيدة.

(٢) Mahmet cevdat. egitim durumu, Istanbul 1209.C.I.392.

البند الأول، يتفرع عن مؤسسة المعارف المركزية:

- **نظارت المعارف العمومية**: وهي بمنزلة وزارة في عصرنا، تخضع لمشيئتها المؤسسات التعليمية والتدريسية الرسمية والأهلية[١].
- **مجلس المعارف الكبير**: وهو بمنزلة مجلس رقابة يمتلك صلاحيات واسعة تتعلق بالكتب والأخطاء المرتكبة من قبل الكادر التعليمي والتدريسي تنبثق عنه دائرتان هما:

الدائرة العلمية: مهمتها التعليم وجودته والكتب ومحتوياتها ومدى تطابقها مع المجتمع وعاداته وتقاليده وخلوها من صور ومقاطع مسيئة[٢].

الدائرة الإدارية: مهمتها الإشراف على الموظفين المنتخبين من قبل أعيان المدينة والتأكد من توافر الشروط فيهم، كما تتأكد من أن المدرسة التي بنيت مطابقة للشروط الصحية، وبعد تأكدها ترفع تقريراً مفصلاً عن جولاتها ودراساتها التي أعدتها من خلال جولات ميدانية موثقة بالتاريخ واليوم والساعة[٣].

- **الديوان وقلم الكتابة** والمسماة باللغة العثمانية (تحريرات قلمي).
- **المحاسبة** (محاسبجي قلمي): وهو المسؤول عن دفع رواتب المدرسين والمعلمين.

أما الوظائف الأخرى المنوطة بمجلس المعارف فهي:

- تطبيق نظام المعارف، وإعداد تقرير عن مدى الالتزام بقرارات مديرية المعارف، وإجراء إحصاء لعموم المدارس في الولاية، وعدد الطلاب من مختلف المراحل الابتدائية والمسماة سابقاً الصبيان، والرشدية،

---

(١) Adnan sisman, galata sarag, Istanbul 1989.S.20.

(٢) الدستور، مصدر متقدم ج ٣ ص ٢٥٧.

(٣) Ahmet, lutfi, maarif devri, Ankara, 1962,.S.79.

والإعدادية، وفي عهد السلطان عبد العزيز أنشئت ثلاثة معاهد لإعداد المدرسين وهم يعدُّون طلاب داخلية، ويقدِّم مجلس معارف الولاية لوازمهم المدرسية ويعطون رواتب شهرية ٣-٥ قروش(١).

- الإشراف على ميزانية مديرية المعارف في الولايات، ومن مهامها إعداد جداول بالمصروفات التي تحتاجها المدارس والمطبوعات ورواتب المعلمين والمدرسين، ورفع تقرير إلى نظارت المعارف في استانبول بعد إجراء الثبوتيات وتصديقها كافة(٢).
- تنفيذ قرارات نظارت المعارف، وإعلامها عن المخالفات والجهات التي ترتكبها.
- تكليف هيئة التفتيش وهيئة المراقبة القيام بجولات تفتيشية على شعب المعارف بشكل مفاجئ، وإعداد تقرير عن نتائج الجولات، ووضع الحلول المناسبة(٣).

لقد أفادت الدراسات أن مديريات المعارف لم تكن ملتزمة بمهامها ومتذرعة بأن أحوال نظارت المعارف اضطربت؛ لأن السنوات الأخيرة من حكم السلطان عبد العزيز اتصفت بالاضطراب وزيادة القلق والفوضى، وذلك لاستغلال أعضاء جمعية الاتحاد والترقي إسرافه في تمويل مؤسسات الدولة والإكثار من الهبات فبدؤوا بالتآمر عليه(٤).

ومع الاضطراب الذي اعترى السنوات الأخيرة من حكم السلطان عبد العزيز، ظلت المؤسسات التعليمية إلى حد كبير تواظب بجدية على استمرار حسن العمل فيها، ففي سنة (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) أحدثت مديرية المعارف بناء على توجيهات من مجلس المعارف، ما يلي:

---

(١) Ismail hakki, maarif devri, Ankara, 1962,.S.79.

(٢) سجلات الديوان الهمايوني، وسجلات نظارت المعارف، سجل رقم ٤٨٦ ص ٩٨.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء، شورى دولت، تصنيف جودت وثيقة ٨٢٩.

(٤) رضا نور، عثمانلي تاريخي، مصدر متقدم، ج ٥ ص ٢٨٧.

- تشكيل مجلس معارف جديد لدوافع عدة أبرزها عدم نجاحه في اختيار مدير معارف مؤهل لهذا المنصب المهم.
- تعيين مفتشين مختصين وزيادة عددهم؛ لأن المفتشين السابقين لم يعد بمقدورهم الإطلاع على أحوال المدارس التي زادت عن ٣٠٠ مدرسة حتى عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) في مركز الولاية وألويتها وأقضيتها، ولكن المدارس في النواحي كانت شبه نادرة، وقد أدت الكنائس المسيحية دوراً كبيراً في تطوير المدارس وتحديثها[١].

لقد قسَّم مجلسُ المعارف العمومي التعليمَ في المدارس إلى عدة مراحل اقتداء بالتعليم في أوروبة (فرنسا وبريطانيا) كانت كما يلي:

- مكاتب الصبيان: وتعادل المدارس الابتدائية حالياً، ومدة الدراسة في هذه المكاتب خمس سنوات، ثمّ ينتقل الطالب إلى المدرسة الإعدادية بعدما ألغي مصطلح رشدية.
- مكاتب رشدية: وتعادل المرحلة الإعدادية والثانوية، وتمنح هذه المدارس شهادات للخريجين، في حين يعين المتفوق معيداً، ويرسل إلى مدرسة «صحن ثماني» التي تعد من أكثر المدارس تطوراً في ظل نشاط وإنشاء مجلس المعارف العمومي، وقد أمر السلطان عبد العزيز أن يتولى المجلس التابع للديوان الهمايوني الإشراف على مجلس المعارف العمومي الذي يعين مجالس المعارف العمومية في الولايات[٢].

---

(١) الأب متري هاجي أثناسيو، موسوعة بطريركية التاريخية والأثرية، دمشق ١٩٩٧، ج ٢ ص ٥٨٧ وما بعدها.

(٢) أنشئ مجلس والا للفصل بين الحكومة والمؤسسات والأهالي، ونظراً لكثرة تجاوزاته أمر السلطان بإلغائه سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م واستبدله بمجلس شورى دولت.

- **مدارس غير المسلمين:** لم تتدخل الدولة بالمدارس المسيحية، واكتفت بمراقبة الكتب التي تدرس فيها.
- **مدارس البنات الابتدائية:** وكانت قد بلغت أكثر من عشرين مدرسة ابتدائية للبنات.
- **مكاتب الإعدادية:** مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات.
- **المكاتب السلطانية**، وتشتمل على:

أ – قسم عادي مدة الدراسة فيه ثلاث سنوات، دوامه صباحي ومسائي.

ب– قسم عالٍ ومدة الدراسة فيه ثلاث سنوات ويضم:

١– شعبة الأدبيات.

٢– شعبة العلوم، وكانت سابقاً تسمى (الفنون).

- **المكاتب العالية**، وتتألف من:

أ – **قسم الرشدية:** مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، ويدرس فيها المسلمون والمسيحيون سوية، وألغيت ظاهرة الفصل بينهما في عهد السلطان عبد المجيد.

ب– **قسم إعدادي** ومختلط بين مختلف الطوائف؛ حتى اليهود يحق لهم الدراسة فيه، ويحذر الطالب من اعتماد التمايز الطائفي ومن يَقُم بذلك يفصل من المدارس جميعها، وكانت مدة الدراسة فيه سنتين، وفي عهد السلطان عبد الحميد أصبحت ثلاث سنوات وظلت مختلطة وجامعة للطوائف كافة.

ج– **قسم السلطانية:** ومدة التحصيل فيه ثلاث سنوات، وكانت هذه المدارس وقفاً على استانبول فقط(١).

---

(١) للإطلاع على التصنيف المدرسي في عهد السلطان عبد العزيز، راجع

Midhat sert oglu, egitim Teskilati, Istanbul 1969.S.294.

لقد درّست المدارس الرشدية مختلف المواد؛ وكان نظام المدارس الرشدية – قسم الطالبات – يفصل بين المسلمات والمسيحيات، غير أن السلطان عبد العزيز وجه كتاباً إلى نظارت المعارف بضرورة إلغاء هذه الظاهرة التي لم تعد تناسب العصر، إضافة إلى ولايات بلاد الشام كافة (ولاية دمشق، ولاية حلب، ولاية بيروت) وقد خصص في مدارس الرشدية وقسم العلوم ثلاث شعب دراسية منها:

- **شعبة الفلسفة والآداب**: خريجوها يوظفون كمدرسين أو كموظفين بدوائر الدولة.
- **شعبة الحقوق**: خريجوها يعملون في القضاء أو محامين، أو في المؤسسة الأمنية كمحققين أو ضباط في الجندرمه.
- **شعبة الفن** (فن العلوم): وتُدرّسّ الفيزياء والعلوم والكيمياء والعلوم الأخرى، ومدة الدراسة في قسم العلوم ثلاث سنوات.

وقد أوردت نظارت المعارف توجيهات رسمية منها[1]:

- تطبيق التعليم الإلزامي، ويعاقب كل من لا يرسل أبناءه إلى المدارس.
- تصنف درجات المدارس، وتدرّس مواد تخصصية بحسب التصنيف.
- إعادة ترتيب وتنظيم أصول التربية والتعليم.
- تأهيل المعلمين المتميزين، وإرسالهم بمهام تدريسية إلى الخارج؛ والمتفوقين منهم أيضاً.
- اعتماد وسائل ترغيبية وتشويقية للطلاب للتوافد إلى المدارس.
- تحديد بدء العام الدراسي وتحديد مواعيد ثابتة للامتحانات[2].

---

(١) Midhat sertoglu,.S.339 (مرجع متقدم غير مترجم).

(٢) تاريخي لطفي، مصدر متقدم، ص ٤٣٥.

٣ – دور مديرية معارف الولايات:

أثار ضعف إمكانيات الدولة العثمانية أطماع الدول الأوربية فزاد من تدخلها في شؤونها وفي شؤون ولاياتها على حد سواء، وهو ما أسهم في إضعاف دور مديرية المعارف في الولايات عامة وولاية دمشق خاصة؛ لأن الأحكام العامة والقرارات المتضمنة إنشاء مدارس والقاضية بضرورة إنشاء مدرسة لكل قرية أو محلة، نصت على ضرورة تطبيق الدراسة للمرحلة الابتدائية، وإلزام الذكور الذهاب إلى المدارس منذ سن السادسة حتى العاشرة من العمر، كما حدد القانون للإناث (البنات) سن السابعة من العمر وحتى سن الحادية عشرة للمرحلة الابتدائية، وقد حذَّر القانونُ الآباءَ من عدم إرسال أبنائهم (ذكور – إناث) إلى المدارس[١].

وكانت مديرية المعارف قد شجعت بناء مدارس في كل قرية أو محلة، ويجب تخصيص مدرسة للذكور ومدرسة للإناث في هذه القرية أو تلك المحلة. ونص قرار نظارت المعارف في حال وجود محلات أو قرى مختلطة (مسلم – مسيحي) بوجوب تخصيص مدرسة للمسلمين وأخرى للمسيحيين.

وتضمَّن قرار نظارت المعارف، عدم التنوع في إعطاء الدروس، ويجب تدريس مناهج واحدة وثابتة في الولايات كافة، ولا يجوز التنوع لا في التدريس ولا في الامتحانات ولا حتى في منح الشهادات.

لقد نصت المادة /١٣٩/ من قانون المعارف لسنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) على ضرورة تشكيل مديرية معارف في كل ولاية ترتبط بمجلس المعارف العمومية الذي اتخذ من استانبول مقراً له.

وقد أوضحت المادة /١٤١/ مهام وظيفة مدير المعارف في الولايات على النحو الآتي:

---

(١) نوفل، الدستور، مصدر متقدم، ج ٢، ص ١٥٦.

أ - الإشراف على جميع العاملين في المديرية والموزعين في مكاتب الولاية، فضلاً عن إشرافها على المدارس (المكاتب سابقاً) من ابتدائية ومكاتب رشدية ومكاتب إعدادية والسلطانية والمعاهد إنْ وجدت، وعلى المديرية متابعة سير العملية التدريسية والتعليمية، وهي مسؤولية مهمة ورئيسة بالنسبة للمديرية(١).

ب- تنفيذ أحكام مواد نظارت المعارف بشكل فعلي، كما يتطلب منها إعلام نظارت المعارف عن المعوقات التي تعيق العملية التعليمية.

وفي سنة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) رفعت مديرية المعارف في ولاية دمشق إلى «نظارت المعارف» باستانبول أن بعض ألوية الولاية تشكو من عدم وجود مدارس، وأن المديرية بحاجة إلى مبالغ مالية لاستئجار أو بناء مدارس في الألوية المحتاجة وحاجتها بحدود ٧٠,٠٠٠ ألف قرش(٢)، استناداً إلى سجلات مديرية معارف ولاية دمشق، ولم تمضِ مدة حتى أرسلت نظارت المعارف في استانبول ١٠٠,٠٠٠ قرش، وطلبت من الوالي محمد باشا الذي خلف الوالي محمد أمين تأمين مبالغ إضافية لافتتاح المدارس ولاسيما الابتدائية في ألوية الولاية وأقضيتها(٣).

ج- على مديرية المعارف اتخاذ الإجراءات الفعلية انسجاماً مع الإصلاحات والتنظيمات الجارية في الإمبراطورية، وقد وجَّه ناظر المعارف عارف باشا سنة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) أمراً يهيب بمدراء المعارف في ولايات بلاد الشام (حلب، دمشق، بيروت) العمل على زيادة افتتاح المدارس بمختلف المراحل؛ لأن السلطان عبد العزيز يتمنى أن تكون دولته دولة علمية، وأن الخزينة لديها أموال وبإمكانها تأمين حاجة كل

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء، إرادة داخلية رقم ٦٧٢٣٠.

(٢) المحاكم الشرعية بدمشق، سجل رقم ١٨٧ لسنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م ص ٣٦.

(٣) المحاكم الشرعية بدمشق، سجل رقم ٣٠١ لسنة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م ص ٢٤.

ولاية وما يلزمها من أموال، وذكر أن نظارت المعارف أرسلت ١٠٠,٠٠٠ قرش إلى نظارت معارف دمشق، ويتمنى أن تخطو بقية الولايات خطوة مديرية المعارف في ولاية دمشق(١).

وفي سنة (١٢٨٩هـ/١٨٧١م) وبموجب المادتين (٢٥، ٢٦) أصدرت نظارت الإدارة العمومية للولايات، قراراً بنقل الإشراف الفعلي على الولايات لهذه الإدارة بدلاً من نظارت المعارف، وبعد سنة أصدرت نظارت الإدارة قراراً يخوّل مديريات المعارف في الولايات مسؤولية كل منها عن التعليم في ولايتها، وأن مهمتها تقتصر على تقديم الخدمات الضرورية من مساعدات مالية ومطابع وما شابهها إلى المديريات المحتاجة، وتُعدُّ هذه الخطوةُ خطوةً شبه استقلالية لمدراء المعارف في الولايات، ولكن هذه الاستقلالية غير مكتملة؛ لأن تعيين المدراء يتم من قِبَل نظارت المعارف وخضوعها لتوجيهات نظارت إدارة المعارف هذه(٢).

٤ – تعليم الطوائف غير الإسلامية:

لم يشكل المسيحيون في بلاد الشام نسيجاً مغايراً للواقع الاجتماعي في المنطقة عموماً؛ وفي مختلف مدن وقرى بلاد الشام خصوصاً، كما فعل اليهود عبر تاريخهم، وفي الوقت نفسه فإن حركة التبشير التي سعت روما لإحيائها لم تلقَ نجاحاً كما كان متوقعاً؛ لأن أهالي الشام، مسلمين ومسيحيين رفضوا حركة التبشير لأنها تسيء إلى العيش المشترك الذي يحياه المسيحيون، وإن تعرضوا إلى مظالم فمردها الإجراءات العثمانية، وبصدور الإصلاحات والتنظيمات بدأت الحياة تأخذ مسارها بشكل طبيعي على مختلف المستويات، كما أن فرمان كلخانه خطي الذي أصدره السلطان عبد المجيد سنة (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) وشريف همايونِ خطي الذي صدر سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م) أنهى التمييز

---

(١) Ahmet refik, 1287 egitim sistemi, Istanbul 1309.S.59.

(٢) أورهان هاوونتش الخطوات العلمية للسلطان عبد العزيز، استانبول ١٩٦٨م، ص ٣٧.

الطائفي الذي كان معمولاً به رسمياً، حيث أزيلت الفروق الاجتماعية، وغدا المسيحيون بموجب الفرمانين كلخانه وشريف همايون خطي متساوين مع المسلمين، وصدرت تعليمات من السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز فيما بعد بإزالة العبارات الطائفية والمذهبية من المراسلات كافة وبخاصة التعليم، وحذرت فرمانات السلاطين من اعتماد أي مصطلح طائفي أو مذهبي، وعلى الجميع أن يتعايشوا مع بعضهم، علماً أن ولايات بلاد الشام لم يكن فيها أي تمييز على مختلف المستويات، وإذا وجد لدى المؤسسات العثمانية، فإن أهالي الولايات لم يعتمدوا ذلك في أعمالهم أو تجارتهم أو مسامراتهم الشعبية، ولم يشعر المسيحيون أنهم من دين آخرٍ بين المسلمين، بل هم عرب وسكان محليون ويتحملون ما يتحمله المسلمون من مسؤولية.

صحيح أن المدارس التي أنشأتها البعثات التبشيرية قبل التنظيمات حملت علامات طائفية ومذهبية؛ لكن السكان لم يكترثوا لها، وأفشلوا محاولات تلك البعثات[(١)]؛ لأن الرهبان الذي درّسوا في المدارس التبشيرية التي افتتحوها في ولاية بلاد الشام دُهشوا من الانسجام المعاشي ما بين المسلمين والمسيحيين، وأن المسلمين يحبون السيد المسيح عليه السلام ومريم العذراء بعكس ما صوره المتطرفون من أقرانهم من الرهبان أو السياسيين في بلدانهم، وبفضل هذا التلاحم أصبح التنافس بين مؤيدي كنيسة روما ومعاديها[(٢)].

لقد أكدت الدراسات: أن المدارس المسيحية التي أنشئت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين تم بناؤها بجهود فردية وبدعم كنسي، لكن هذه المدارس كانت بعيدة كل البعد عن التعصب الديني أو المذهبي، وبذلك تخلصت بلاد الشام من ضغط الكنائس المسيحية؛ لأن محاولات التبشير

---

(١) للاطلاع على المدارس التبشيرية: يمكن مراجعة سجلات الجامعة الأمريكية سجل ١٣٥.

(٢) خليل خوري، حديقة الأخبار، مجلة شهرية تحولت إلى ربعية سنة ١٩٢٠م، وللمزيد أنظر العدد ٢٦ تشرين الثاني لسنة ١٩١٨م.

التي حاولوا السعي من أجلها[١] فشلت بسبب التلاحم السكاني الذي يعيشه العرب(مسلمون ومسيحيون).

أ – المدارس المسيحية في دمشق:

لقد وجدت عدة مدارس في مدينة دمشق والمناطق التابعة لها مثل صيدنايا ومعلولا ومن أهم هذه المدارس:

- **مدرسة الروم الأرثوذكس بدمشق:** افتتحها الأب جيروت كيروت سنة ١٦٤٤م، كذلك أسس الأب جيروت مدرسة في مطرانية حلب سنة ١٦٢٨م بهدف تعليم وتثقيف طائفة الروم[٢].
- **مدرسة البطريركية للروم الكاثوليك بدمشق:** وتأسست سنة ١٨٧٥م.
- **مدارس الإناث:** ولم نعثر في الوثائق إلا على مدرسة واحدة، بلغ عدد تلاميذها ٦٠ تلميذة حيث أنشئت سنة ١٨٧٦م في باب مصلى – الميدان، ودرّست العربية والأشغال اليدوية.
- **مدرسة للفرنسيسكان** درّست اللغة العربية إلى جانب المواد الأخرى مثل الرياضيات والفيزياء والكيمياء والجبر والهندسة[٣]، وبالرجوع إلى السجلات فقد بلغ عدد المدارس الأجنبية (١٢) مدرسة للإناث والذكور.

أما المدارس المسيحية التي أسست في حمص، وكانت سنة ١٨٥٠م فقد درّست المواد التالية (الصرف والنحو، وعلم المعاني والبيان والعروض، والحساب، والتعليم المسيحي اللاتيني اللاهوتي، والتاريخ الكنسي والمدني، والجغرافيا، ومبادئ اللغتين التركية واليونانية، والفيزيولوجيا، ومبادئ الجبر

---

(١) دار كنعان، جواهر الياقوت في تاريخ بيروت، مجلة الجنان، العدد ١١ ص ٣٧٥.

(٢) النشرة العثمانية الرسمية التي أصدرتها نظارت المعارف لسنة ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م ص ٦١٢٣.

(٣) مارون عبود، رواد النهضة الحديثة، بيروت ١٩٦٤م ج ٣ ص ١٨.

والهندسة، وعلم الهيئة، واللغة الفرنسية) وتعد مدرسة حمص التي أسسها الروم الأرثوذكس أشبه بكلية، لاتساع قاعدتها التدريسية ولتوافد الطلاب عليها من مختلف الأصقاع، وكانت تستقبل طلاب مختلف الطوائف من داخل الولاية وخارجها(١).

كذلك فقد أنشأ الأمريكان مدرسة مسيحية إنجيلية سنة (١٨٦٣م)، وبعد ذلك، وفي عهد السلطان عبد الحميد قَدِمَ اليسوعيون إلى حمص وأنشؤوا مدرسة فيها(٢).

- مدرسة الآسية التي أنشئت في منطقة باب توما حيث يقطن هذه المنطقة غالبية مسيحية، وقد تفرع عنها عدة مدارس، وقد أولت مدرسة الآسية والفروع التابعة لها اهتماماً أولياً بالأطفال المسيحيين وتهذيبهم، وقد عُرِفَ عن رهبان ومدرسي الآسية التعصب المذهبي وظلت لعقود لا تقبل تدريس المسلمين فيها.
- مدرسة الآباء العازاريين، والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والسريان الأرثوذكس، والفرنسيسكان، والأرمن القدماء، وقد كانت هذه المدارس مختلطة ذكوراً وإناثاً، وعدّ تدريسها تحدياً للإرادة السلطانية، وقد حاول مفتي الإسلام بدءاً من جلال أحمد زاده ومن خلفه إغلاق هذه المدارس؛ لكن السلاطين رفضوا التدخل بحسب الامتيازات، علماً بأن هذه المدارس كانت مجالاً للتنافس فيما بينها من ناحية التربية والتعليم، وقد استقبلت هذه المدارس المسلمين والمسيحيين إضافة إلى طلابٍ من خارج الولاية، وتُعد مدرسة الأرمن التي أنشئت سنة (١٨٨٩م) من أنشط تلك المدارس(٣).

---

(١) دليل كنيسة الروم الملكية الكاثوليك في العالم ١٩٨٨م، ص ١٠٥-١١١.

(٢) لزيادة الاطلاع على المدارس المسيحية بمختلف طوائفها، الأب اثناسيو، مرجع متقدم ج ٣، ص٢٧-٤٤.

(٣) النشرة العثمانية الرسمية التي أصدرتها نظارت المعارف لسنة ١٨٧٥-١٨٩٠م ص ٥٧.

أما المدارس الأجنبية التي تأسست في دمشق فهي :

- المدرسة العازارية: أسسها الآباء العازاريون سنة (١٢٩٠هـ/١٨٧٢م)، وبعد سنة افتتحوا مدرسة لهم في حلب سنة (١٢٨٠هـ/١٨٧٣م).

أما المدارس الكاثوليكية: فقد بلغ تعدادها ثلاث مدارس، وبلغ عدد طلابها قرابة ٣٦٠ طالباً، وقد درّست اللغات (العربية، والتركية، والفرنسية)[١].

ب – مدارس اليهود:

من غير المعقول إجراء مقارنة ما بين اليهود والمسيحيين، فالمسيحيون طائفة منفتحة على الآخرين وتقبلت الطرف الآخر ودافعت عن الأرض التي تسكن فيها، بعكس اليهود الذين لا يعرفون سوى مصالحهم، وكانوا يعدون وجودهم في الأقطار والمناطق التي سكنوها مؤقتاً وأنهم سوف يعودون إلى أرض الميعاد التي تكتموا عليها لقرون طويلة، ومع أواخر القرن التاسع عشر بدؤوا يشيرون إلى أرض الميعاد ولاسيما بعد مؤتمر بال الذي عقد في سويسرا سنة ١٨٩٧م، وفشلهم في الحصول على إذن من السلطان العثماني آنذاك (عبد الحميد الثاني)، فلقد هددوا دولة الخزر التي تمكنوا من تهويدها، وعادوا إلى الشتات ثانية، وتوزعوا على ممالك الدولة العثمانية أي البلاد العربية، وبالعودة إلى السجلات العثمانية نجد أن اليهود أنشؤوا مدرستين للإناث في بيروت سنة (١٨٦٨م)، أما في دمشق فلم نعثر على مدرسة لليهود فيها، رغم أن تجارهم حاولوا بناء أبنية على أساس أن تكون مدرسة لأبنائهم، وركزّوا تدريس أبنائهم على العلوم الدينية في دور عبادتهم، وكانوا يكتفون بتعليم أبنائهم مزامير داوود، بعدها يرسلونهم إلى الأسواق لممارسة الأعمال التجارية[٢].

---

(١) سجل المحاكم الشرعية، دمشق، سجل ٣٥، وثيقة ٢١ لسنة ١٢٥٩هـ/١٨٣٤م ص ٣٥.

(٢) محمود حريتاني، تاريخ اليهود في حلب، حلب ٢٠٠٨م ص ١٣ وما بعدها.

لا شك بأن الأليانسات[1] تعدّ من أكبر المؤسسات اليهودية علماً وتعليماً؛ لأن مهمتها السهر على راحة اليهود وتدريسهم ومداواتهم، وقد قامت هذه الأليانسات بمهامها أينما وجدت، وكانت مدينة القدس الأكثر انتشاراً لتلك الأليانسات اليهودية، وقد انتشرت هذه المدارس التي زادت عن أربعين مدرسة في حلب وبيروت ودمشق ويافا والقدس وصيدا وطبريا.

٥- مصروفات التعليم في مديرية معارف دمشق :

بالرجوع إلى سجلات النشرة العثمانية التي كانت تصدرها نظارت المعارف في استانبول ووثائق المحاكم الشرعية بدمشق، فإن التعليم في كافة مراحله كان مجانياً لمختلف سنوات الدراسة؛ لكن النفقات تركزت بالدرجة الأولى على بناء المدارس أو استئجارها، وتأمين مستلزمات المدارس ولوازم الدراسة، ورواتب المعلمين والمدرسين، غير أن الخزينة العامرة أو خزينة الولاية لم تكن تتحمل نفقات كبيرة وبخاصة بعدما منحت كل ولاية مديرية خاصة بها تدير المدارس فيها وتؤمن مستلزمات تلك المدارس، وإذا عجزت المديرية عن تأمين نفقات إضافية فبإمكانها مراسلة نظارت المعارف في استانبول وإعلامها عن حاجاتها المالية[2].

لقد هدفت الدولة العثمانية إلى التخلص من أعباء التعليم في الولايات، بأن أمرت بدفع المخصصات الأميرية إلى المدارس، وكلفت شيخ الإسلام بتوجيه خطاب إلى مفتي الولايات بالإسراع لتقديم الإعانات إلى المدارس وطلابها، كما خصصت الفرمانات السلطانية الأعيان

---

(١) ليس صحيحاً ما دونه المعجم الفرنسي لاورس، فمدارس الأليانس فكرة يهودية ولا علاقة لها بالدعاية والنشر، وإنما مهمتها التأديب والتهذيب اليهودي سياسياً ودينياً، للمزيد Midhat sert oglur.S.119 (مرجع متقدم غير مترجم).

(٢) الدستور، مصدر متقدم، ج ٢ ص ١٨٥ وما بعد.

والأمراء بتقديم المساعدات المالية إلى مديريات المعارف بهدف تنشئة جيل مثقف لا يشكو العوز والحاجة[1].

وأفادت تلك المصادر: أن النفقات التي كانت مديرية معارف دمشق تنفقها، تتراوح ما بين (٤٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠) قرش؛ لأن هناك مدارس لديها أملاك وقفية فائضة عن حاجة مدارسها، حيث طلب مفتي دمشق من ناظري الأوقاف إعلامه عن دخل كل وقف لتوزيع الفائض منه على تلك المدارس وجمعه لإرساله إلى مديرية معارف دمشق لسداد النقص الذي تعانيه نتيجة تزايد عدد المدارس وعدد المدرسين ومستلزمات المدارس الجديدة، وقد أفادت سجلات المحاكم الشرعية بدمشق أن مفتي مدينة دمشق استطاع وبحكمته تأمين ما يزيد عن عشرين ألف قرش شهرياً لمديرية معارف المدينة.

وإذا تمكّنا من إحصاء مصروفات مديرية دمشق لعشرات السنوات، فإنه على ضوئها وبالقياس يمكن للقراء ورجال العلم تقدير السنوات السابقة ولاسيما ما سبق مرحلة إحصاء المصروفات[2]؛ لأن المدارس لم تكن قد تزايدت، والمدرسين كانت رواتبهم قبل أيام حكم السلطان عبد الحميد لا تزيد كحد أقصى عن عشرة قروش، وحينما تولى السلطان عبد العزيز زاد رواتب المدرسين، وحذا السلطان عبد الحميد الثاني حذو عمه عبد العزيز فزاد رواتب المدرسين زيادة مضاعفة عملت على تشجيع طلاب العلم على امتهان مهنة التدريس لأسباب كثيرة، كسمعتها ورواتبها واحترام عامة الناس وخاصتهم للمدرسين والمعلمين، وقد أفادت الإحصاءات عن مصروف لواء الشام كالآتي[3]:

---

(١) سورية سالنامه سي سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨١م دفعة ١٣ ص ٣٤٤.

(٢) النشرة العثمانية الصادرة عن نظارت المعارف لسنوات ١٢٨١ و ١٣٠١هـ.

(٣) سجلات المحاكم الشرعية بدمشق، سجل ٣٥٧ لسنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م.

السنة	مصروفات	مجموع	أجرة المعلم	مصروفات	عدد
١٢٨١هـ	٧٥٦٨٣	١٣٦٩٣٤٥٦	٥ قروش	٩١٧٧	١٦
١٢٨٣هـ	٨٥٣١٤	٣٦,٣٣٢١٠١	٢٥ قرش	١٤,٥٥٦	٢٢
١٢٨٧هـ	٩٣٤٥٧	٨٧,٦٩١٤٠٥	٣٠ قرش	٢٢,٩٥٧	٣٠
١٢٩٩هـ	٩٧٩٧٦	١٠٥،٥٤٢٣٧٨	٤٥ قرش	٥٦,٧١٤	١٠٠
١٣٠١هـ	١٠٣,٤٢٠	١٠٧,٩٨٧٥٤٣	٥٥ قرش	٨٠,٥١٧	١٣٥
١٣٠٣هـ	١١٧،٥٩٨	٢٢,٠٠٩٤٧٨	٥٧ قرش	١٠١,٦٩٧	١٧٠
١٣٠٥هـ	١٢٣,٣٢٢	٥٥,٦٦٣٣٧٨	١١٧ قرش	١٠١,٦٩٧	٢٠٠
١٣٠٧هـ	١٢٤,٦٧٥	٩٥,٩٧٩٤٥٧	١٢٢ قرش	١٥٧,٤٣٧	٢١٥

في حين أفادت النشرة التي كانت تصدرها نظارت المعارف أن السلطان عبد العزيز قد زاد رواتب مدراء المعارف بحيث بلغ ١٠,٠٠٠ قرش ومدراء المدارس الإعدادية إلى ٩٠٠٠ قرش، والمدرسين ٨٥٠٠ قرشاً، والخدم ٣٠٠٠ قرش، وهناك مصروفات أخرى تراوحت سنوياً ما بين ١٢٠٠-٣٥٠٠ قرشاً فضلاً عن توزيع المكافآت للطلبة المتفوقين في عموم المديرية، وقد زادت بمجملها عن ٣٠،٠٠٠ إلى أربعين ألف قرش بمعدل ٧٥٠ قرشاً للمتفوق الواحد(١).

وقد أفادت الوثائق: أن مصروفات مديرية ولاية دمشق السنوية بلغت ما يزيد عن ٤٥٠،٧٤٣ قرشاً، وقد لجأت نظارت المعارف إلى تأمين مصروفات مديرية دمشق من الأمور التالية:

١- الأوقاف التي بلغت ما قدمته للمديرية ما يزيد عن ١٧,٥٠٠ ألف قرش.

٢- اقتطاع جزء كبير من أموال الأعشار والالتزام وزادت عن ١١٧,٠٠٠ قرش.

---

(١) أحمد لطفي، مصدر متقدم، ج ٤ ص ٤٥٠.

٣ – الضرائب مثل ضريبة حراسة الجنوار (الثعلب)، وضريبة الخبز الأبيض، وضريبة المسالخ، وضريبة الزواج وتخصيصها لمديرية الأوقاف، وتراوحت ما بين ١٠٠,٠٠٠–١٣٠,٠٠٠ ألف قرش(١).

لقد تشجع الوالي أحمد جودت باشا على مطالبة أعيان مدينة دمشق وتجارها في الخامس عشر من شباط بحضور المفتي محمد سليم المرادي، وكلف المفتي بإلقاء خطبة تحضهم على جمع التبرعات للمدارس ولافتتاح مدارس جديدة، وقد أوضح مدير المعارف سليم أحمد داغر بأن هناك عدة مناطق لم تفتح بها مدارس، وقد أسفر الاجتماع عن تأمين مبالغ مالية تزيد عن أربعمئة ألف قرش تقدم منهم بالتقسيط إلى مديرية المعارف(٢).

وفي سنة (١٢٩٥-١٢٩٦هـ/١٨٧٨م) تولى ولاية دمشق مدحت باشا خلفاً للوالي أحمد جودت باشا، وقد وجه اهتماماً خاصاً للتعليم، فبعد وصوله بشهر واحد أمر ببناء مكتب الصنائع، كما أسس داراً عمومية للكتب، وطلب من مدير المعارف أن يشجع المكتبات وأن يخصص في كل مدرسة غرفة خاصة بالمكتبات(٣)، وقد خلف مدحت باشا في منصب الولاية أحمد حمدي باشا (١٢٩٧-١٣٠١هـ/١٨٧٩-١٨٨٣م) فزاد من عدد المدارس بشكل كبير، كما راجت في عهده سوق العلم في ولاية دمشق، وبفضله تم تعميم المشاريع الخيرية وبخاصة ما يتعلق بالتعليم وبناء المدارس(٤).

لقد عدّت مديرية معارف دمشق فقيرة بمواردها الذاتية، كما أن أعيان دمشق لولا حض العلماء والخطباء لهم لما تشجعوا وقدّموا مساعدات سنوية لها، وقد أسهمت هذه المساعدات في تطوير المدارس وزيادة عددها.

---

(١) جودت، مصدر متقدم ٩٩٠٠ ص ٣٦٨.
(٢) وثائق المحاكم الشرعية: دمشق، سجل رقم ٣٢٣ لسنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م ص ١١.
(٣) الحصني، مرجع متقدم، ص ٢٧٠.
(٤) نادر العطار، تاريخ سورية في العصور الحديثة، دار النهضة، بيروت (د.ت)، ج١ ص ٢٢٨.

٦- مدارس مديرية معارف دمشق وماهيتها (ذكور - إناث):

حرصت مديرية معارف ولاية دمشق على تأمين أبنية، بناءً أو استئجاراً لاستيعاب طلاب مدينة دمشق، وقد راعت في البناء المواصفات التعليمية المطلوبة، كما وجهت اهتمامها إلى بناء مدارس في الألوية والأقضية التابعة لها، وبالاستناد إلى التقسيمات الإدارية لسنة (١٢٨١هـ/١٨٦٤م)، فقد أعيد تقسيمها من جديد سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)(١).

وذلك على النحو الآتي:

القضاء	المركز	النواحي	عدد القرى
قضاء الشام	دمشق	-	٥٠ قرية
قضاء بعلبك	بعلبك	٢	٦١ قرية
قضاء البقاع	المعلقة	-	٥٠ قرية و١٥ مزرعة
قضاء النبك	النبك	٢	٢٨ قرية
قضاء دوما	دوما	١	٦٠ قرية
قضاء وادي العجم	قطنا	١	٢٤ قرية
قضاء حاصبيا	حاصبيا	-	١٨ قرية
قضاء راشيا	راشيا	-	٢٠ قرية
قضاء الزبداني	الزبداني	-	٢٨ قرية(٢)

إذا قرأنا الأقضية والنواحي والقرى التي تتبع مديرية معارف ولاية دمشق فإننا نجد أن المديرية وإن كان لديها أموالاً هائلة، فإنها لن تستطيع أن تغطي توابعها علمياً وتدريسياً في ذلك الوقت؛ لأن العثماني بقواته الرابطة

(١) سورية سالنامه سي لسنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م دفعة ٢٣ ص ٢٩٦.

(٢) Ismail Hakki.C.I.S.494 (مرجع متقدم غير مترجم).

والمرابطة لن يسمح بتأمين التعليم لمواطني ولاية دمشق بالشكل الذي ينبغي أن يكون، فضلاً عن ذلك[1]، فإن البحث يُقدِّم وصفاً عن التعليم الرسمي المعتمد في عهد السلطان عبد الحميد الثاني وبشكل خاص السنوات الأولى من حكمه[2]، وتتحدد ملامح هذا الوصف بما يلي :

١- **التعليم العسكري:** وهو محاولة لتطوير الجيش من خلال ما يعرف بالمدارس العسكرية مثل: مدرسة المشاة، ومدرسة المدفعية، ومدرسة المدرعات، وهي المدارس التي كان خريجوها ينتسبون إلى تلك المدارس.

٢- **التعليم الملكي:** وهذا التعليم كان وقفاً على استانبول وخاصاً بأبناء الأعيان، وقد حرص السلطان عبد الحميد الثاني على تخصيص مدارس لكبار العائلات.

٣- **التعليم الابتدائي** (ذكور – إناث).

٤- **التعليم الرشدي** (ذكور – إناث).

٥- **التعليم الإعدادي**[3].

٦- **التعليم الاختصاصي:**

أ – دار المعلمين ومقرها دمشق (للذكور) فقط.

ب- المكاتب الصناعية، لم يتم بناؤها حتى سنة (١٣٠٥هـ).

ج- التعليم الزراعي، لم نعثر على بناء له.

---

(١) لطفي، مصدر متقدم، ص ٥١٧.

(٢) هاوونش، مرجع متقدم، ص ٣٩٨.

(٣) ايتستاتستيق عمومي إداري سي، استانبول ١٣١٦هـ، ص ١٧.

٧- التعليم العالي:

أ - المكتب الطبي في دمشق[١].

بالطبع إن القارئ لواقع التعليم وتفرعاته، يدرك أنه من الصعب على مديرية دمشق تأمين التعليم لسكان يزيد عددهم عن ١٤٢٧٥٠ نسمة موزعين على قوى عرقية من عرب وأكراد وأتراك وعجم وأرمن وسريان وأوروبيين[٢]، علماً بأن المديرية ستعجز عن تأمين مصروفات المدارس الابتدائية والرشدية والمعاهد العليا وغيرها من المدارس، والولاية مثقلة بالضرائب لتأمين مصروفات الجيش العثماني المتمركز في الولاية والجندرمة والضريبة السلطانية[٣].

ويعلق رضا نور على وضع الولايات بشكل عام بالقول: إن السلطان عبد الحميد تصدَّى بقوة لرجال القومية الذين لم يطالبوا بإلغاء السلطنة، وإنما هدفوا إلى الانفراج السياسي الذي تتطلع إليه الدولة ورجالاتها، ولطالما لم يسمحوا بحيز من الحرية، لماذا نقلوا القانون الفرنسي بكل بنوده؟ فالسلطان عبد العزيز أكثر من الإسراف فعزل، وعُزل بعده مراد الخامس، والسلطان عبد الحميد الثاني قيَّد الحريات، ولكسب الشعبية الإسلامية جامل العرب في كثير من المواقف، واحتمى بمبدأ أنه لا يبيع أرض فلسطين لليهود[٤].

بناء على ما تقدم فإن المسألة العلمية في سائر الولايات ولاسيما ولاية دمشق لم تكن مهيأة لافتتاح مدارس في الأقضية والنواحي، ولهذا فإن التعليم وافتتاح المدارس كان وقفاً على مركز الولاية دمشق[٥].

---

(١) جودت، مصدر متقدم، ج ٤ ص ٤٠١.

(٢) هاووتش، مرجع متقدم ص ٢٣٨.

(٣) لطفي، مصدر متقدم، ص ٥١٣.

(٤) بالطبع رضا نور من المعادين للسلطان عبد الحميد، وهو متحامل عليه، وقد ورد ما ذكره رضا نور لإيضاح أن هموم الدولة كانت سياسية، والاضطراب والقلق يعم ولايات بلاد الشام (المؤلف).

(٥) ايستاتستيق، عمومي إدارة سي، مصدر متقدم، ص ١٧؟

لقد أفادت النشرة العثمانية التي تصدرها نظارت المعارف سنوياً، والتقويمات السنوية (السالنامات)، والسجلات الإحصائية عن عدد المدارس وعدد الطلاب في دمشق من خلال الجدول الآتي:

السنة	مكتب إعدادي		عدد المعلمين		مكتب رشدي		عدد المعلمين	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
١٢٨١هـ	١٢٧	١٠٠	٦	٢	١٣٠	١٤	١٣	٦
١٢٨٥هـ	٢٥٣	١١٧	٢٤	٨	٢٥٥	٧٥	٣٥	١٣
١٢٨٩هـ	٣٥٩	٢١٣	٣٠	١٣	٣٧٨	١٠٠	٥٠	٢٤
١٢٩٢هـ	١٤٧	٣٢	٦٠	٢٩	٤٩٨	٢١١	٧٥	٣٠
١٢٩٣هـ	١٦٥	٤١٧	٨٨	٥٩	٨١٤	٤٢٥	٩٧	٤٥

أما عدد المدارس فقد زادت عن ١١٣ مدرسة ابتدائية ورشدية وإعدادية[١]:

السنة	طلاب إعدادي		عدد المعلمين		طلاب رشدية	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
١٢٩٨هـ	١١١٨	٥٤٩	٩٣	٦٩	٥٦٠	٤٢٠

عدد المعلمين		عدد معلمي المدارس		معلمين	
ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
٤٨	٢٣	١٠٢٦	١١٦٨	٣٦	٤٤[٢]

طلاب مكاتب ملكية		عدد المكاتب	طلاب مكاتب عسكرية	عدد المكاتب
١٦٦٠٤	٣٩٧	١٤٩	١٤٩	١

طلاب مكاتب غير مسلمة		عدد المكاتب	طلاب مكاتب أجنبية	عدد المكاتب
٦٨٩٣	١٠٧	٣١٠٤	٥٤	٥٤

(١) للإطلاع ايستاتسيتق، مصدر متقدم، ص ٨٠-٨٦.

(٢) ايستاتستيق، مصدر متقدم، ١٧.

٧ – أنواع التدريس ومناهج الدراسة ومستوياتها:

لم تكن ولايات بلاد الشام بعيدة عن التطور الحضاري الأوروبي قياساً بولايات الدولة العثمانية (الأناضول والروميلي)، لكن مؤسساتها الإدارية والتعليمية كانت ملتزمة بالنهج المفروض من قبل الدولة العثمانية التي كانت لا تزال تتخبط ما بين النظم العثمانية الأصلية والنظم الأوروبية التي فرضتها التنظيمات على مختلف مؤسسات الدولة دون تخطيط مسبق ودون إعداد كوادر إدارية مدربة ومهيأة للسير بالدولة بشكل ينقذها من التخبط العشوائي، فأما المؤسسات العلمية فقد ظلت لسنوات بل لعقود ضائعة بين التجديد وتطور المناهج الدراسية وتأليف كتب تلائم التطور الحضاري الذي أصبح ضرورة لا مجال للتراجع عنه، رغم وجود كثيرين يعارضونه ويدّعون أنه مهدِّم للأخلاق ومدمِّر للعادات والتقاليد، غير أن تنامي الوعي القومي وانتشار الطباعة وتزايد أعداد الصحف التي أصبحت بمتناول الجميع (مثقف وأمي)، حتَّم على مديريات المعارف سواء في دمشق أو بيروت أو حلب أو غيرها التوجه إلى تدريس المواد العلمية مثل: الرياضيات والجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء.

وأما مدارس الصبيان (الابتدائية) فإن ازدياد عدد الطلاب فيها فرض إيجاد شُعب ضمن المدرسة الواحدة، وفي بعض المناطق اضطر مدير المدرسة إلى التدريس على دفعتين، دفعة صباحية ولها مديرها وكادرها التعليمي، وأخرى مسائية ولها مديرها وكادرها التعليمي، كما أن مديرية المعارف وبناء على توجيهات نظارت المعارف في استانبول التي حددت بدء العام الدراسي وعطلة نصف السنة والامتحان النهائي، أجازت لكل مديرية أن تدرس مواد خاصة بولاياتها، وقد عدّ رضا نور أن هذه الخطوة التي اتخذتها نظارت المعارف سنة (١٢٩٧هـ/١٨٧٩م) خطوة أولية

لتجسيد التجزئة الإقليمية سواء داخل ممالك الدولة أو في الولايات التابعة لها، واتُهم السلطان عبد الحميد الثاني بالمسؤولية عن ذلك(١).

لقد طرأت تساؤلات عدة حول المدارس الرشدية؛ لأنها تشكل عبئاً مادياً يثقل كاهل نظارت المعارف؛ لأن الأهالي لا يسهمون في تقديم مساعدات، وارتأى سعيد باشا ضرورة ترك مسألة المدارس الرشدية، فمن الأفضل تحويلها إلى مدرسة ابتدائية، أو إنزال (تخفيض) مدة الدراسة فيها إلى سنتين بدلاً من ثلاث سنوات(٢).

ولقد ألغت مديرية معارف ولاية دمشق المدارس الرشدية، وحولتها إلى مدارس إعدادية مدة الدراسة فيها خمس سنوات والمدارس الابتدائية إلى مدارس ثانوية مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات.

وبحسب ايستاتستيق فإن المواد التي كانت تدرّس في مكتب الصنائع هي(٣):

اسم المادة	عدد الساعات الأسبوعية	اسم المادة	عدد الساعات الأسبوعية
قرآن كريم	٢	حساب	٣
عقائد دينية	٢	هندسة	٢
العثماني عثماني	٢	جغرافية عمومي	٢
العثماني عربي	٢	عربي	٣
قراءة	٢	تاريخ	٢
إملاء	١	رسم	١

(١) رضا نور، عبد الحميد في ذمة التاريخ، (غير مترجم) استانبول ١٩٣٠ ص ٣٥.

(٢) سورية سالنامه سي لسنة ١٣٠١هـ/١٨٨٤م، دفعة ١٦ ، ص ١٢-١٨.

(٣) ايستاتستيق عمومي إدارة سي، مصدر متقدم، ص ٥٩.

وكانت المواد التي تدرس في المدرسة الرشدية ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م:

السنة الأولى	عدد الساعات	السنة الثانية	عدد الساعات
عربي صرف	٣	عربي	٣
فارسي	٢	قواعد فارسي(١)	٢
حساب جبر	٤	مختصر الحساب	٢
إملاء	١	جغرافية أوروبية	٢
أخلاق	٢	ترجمة إنكليزي	٢
		قراءة	٢
		خط	١

السنة الثالثة	عدد الساعات	السنة الرابعة	عدد الساعات
زراعة	٢	تاريخ	٢
حساب	٣	رياضيات	٣
جغرافية	٢	جبر	٢
إنشاء	١	هندسة	٢
فرنسي	٢	فيزياء	٢
خط رقعة	١	أخلاق	١

أما المواد التي كانت تدرّس في المدارس الإعدادية في ولاية دمشق فكانت كما يلي (وبالطبع لم تسمح نظارت المعارف العمومية بمخالفة ما تقرره، وعلى الولايات الالتزام به)(٢).

---

(١) لم نعثر في سجلات المحاكم الشرعية أن الفارسية بكل أصنافها درست في مديرية دمشق، ومن المؤكد أن المدارس العثمانية درست الفارسي وقواعده.

(٢) سورية سالنامه سي لسنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م ، دفعة ٢٣ ص ٥٢ وسالنامه نظارت معارف عمومية ١٣٢١هـ/١٩١٠م ص١٨٥.

المواد	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة	المجموع
علوم قرآن	٣	٢	–	٢	٢	٩
عربي	٣	٣	٣	٢	٢	١٣
تركي	٦	٥	٣	٢	٢	١٨
فرنسي	–	–	٤	٥	٥	١٤
حساب	٢	٢	٢	٣	–	٩
هندسة	–	–	٢	٢	٣	٧
جغرافية	٢	٢	٢	٢	٢	١٠
تاريخ	–	٢	٢	٢	٢	٨
أصول المحاسبة					٢	٢
معلومات فنية	–	–	–	–	٣	٣
حسن خط	١	١	١	١	١	٥
رسم	١	١	١	١	١	٥

ومن خلال التدقيق في الجداول السابقة نلاحظ أن ثمة أهمية لبعض المواد كانت تعُطى على حساب موادٍ أخرى، وكانت ساعات التدريس تزيد وتنقص في كل سنة وفقاً لما يُريده القائمون على الشأن التعليمي.

وبالرجوع إلى السجلات الوثائقية والتقويمات السنوية (السالنامات) لم نعثر على أن إعداديات الولايات العربية أجبرت على تدريس اللغة الفارسية.

إن مواد تلك المرحلة لا تحدد بالساعات، وكان يدرسها مدرس أو مدرسان، وفي أغلب الأحيان يدرسها ثلاثة مدرسين في المدرسة الواحدة، وبالنسبة للإناث فالحال نفسه، وربما مدرسة واحدة تدرس صفين أو ثلاثة صفوف لقلة عدد المدرسات، وبخاصة أن تعليم الإناث في المراحل الابتدائية

والإعدادية والثانوية كان أكثر من الذكور، لأن الآباء كانوا يفرضون على الذكور مساعدتهم في أعمالهم[١].

السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة
قراءة	قراءة	قراءة	قراءة	قراءة
حساب	حساب	حساب	حساب	جبر
خط	حساب	حساب	حساب	جبر
رياضة	رياضة	إملاء	مسائل حسابية	هندسة
أشغال	أشغال	جغرافية	تاريخ	تاريخ
		تاريخ	جغرافية	جغرافية
			علوم	هندسة

لم تلتزم معظم المدارس المسيحية التي أقيمت في دمشق بالمناهج التي أقرتها نظارت المعارف العمومية، ولم تسمح نظارت المعارف لأية ولاية بتجاوز ما هو مقرر من قبلها، وأفادت السجلات العثمانية: أن المواد التي أقرتها نظارت المعارف هي:

الهندسة الملكية للمرحلة الإعدادية، وهذه المدرسة كانت وقفاً على استانبول، وكانت تستقبل أولاد العائلات من الأعيان ورجالات الدولة بالدرجة الأولى من سوريا، ومن موادها:

عقائد دينية   مثلثات مستوية وكروية

كتابة عثمانية   جبر عادي ولغارتمات

(١) بالرجوع إلى السجلات وجدنا تفاوتاً في تدريس المواد ما بين المدارس الابتدائية في مركز الدولة والولايات العربية، دمشق، حلب، بيروت، ولم نعثر على السبب الذي أجازت فيه الدولة للمرحلة الابتدائية تدريس المبادئ الأولية تبعاً لكل ولاية وبحسب الوثائق أن مدحت باشا أجاز حرية تدريس الأطفال ما يناسبهم.

تاريخ عثماني عمومي	الرسم بالقلم الأسود والبويا
جغرافية عثماني عمومي	حسن خط
فرنسي	إحصاء
هندسة مسطحة ومجسمة	علم أخلاق وأصول مخاطبة

أما ما تدرّسه المدارس الرشدية من المواد قبل أن تجيز الولايات إلحاقها بالمدارس الابتدائية للتخفيف من المصاريف فهي[1]:

علم حال	فارسي قواعد
عقائد دينية	تطبيقات فارسية
قصص أنبياء	مفصل جغرافيا
تاريخ إسلامي	حساب
عربي نحو وصرف	هندسة
تركي نحو وصرف	أصول دفتري (مسك الدفاتر)
إملاء تركي	حسن خط وفراتسوي

لقد سعت نظارت المعارف إلى تحديث المدارس التابعة لها في الولايات كافة، وشددت بالدرجة الأولى على إدخال العلوم واللغات الحديثة، وذلك بعد مرور عدة سنوات من التجربة، وقد اجتهد المدرسون عرباً وأتراكاً على تدريس العلوم الحديثة بالعربية للعثمانيين، وأُجيز لكل الولايات افتتاح دار المعلمات، فافتتحت دار للمعلمات في دمشق سنة (١٢٦٩هـ/١٨٥٢م) في حين افتتحت دار المعلمات في استانبول سنة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م).

---

(١) قدمنا ما تدرسه المدارس العثمانية كنموذج وليس من داعٍ لتقديم ما تدرسه كليات البحرية ومدارس المشاة وكلية المدفعية.

وفيما يتعلق بالروم الأرثوذكس في الولايات العثمانية كافة وبموجب معاهدة «كجوك قنارجه» سنة (١٧٧٤م) فكان يحق لهم بحرية تدريس ما يشاؤون، ولذلك كرسوا موادهم لتدريس التاريخ الروسي وأدبه.

وقد حذا حذوهم الكاثوليك والبروتستانت، وتحوّلت معظم المدارس المسيحية إلى ما يشبه المؤسسات الدينية بعد الدعم المادي الذي تلقته من الكنائس الأوروبية(١) وذلك بعد صدور قانون تنظيم الولايات.

ومن المفيد القول: إن الدولة العثمانية ظلت لقرون ممسكة بزمام الأمور، وتعدُّ مرحلة السلطان عبد العزيز من أفضل المراحل وأكثرها حرية، فقد حصلت بعض المؤسسات على حيّز ضيق من حرية التصرف، كما قُبِلَ تصرفها من قبل استانبول بعدما قدمت مسوغاً أرغمها على التصرف الذي لا يسيء إلى مقام السلطنة ولا إلى معتقدات وعادات المسلمين، ولا يتعارض مع الشريعة الإسلامية أمام تجاوزات الولاة والدفتردار ومدير ضرب السكة، فلا مجال لأي تصرف؛ لأن هذا يعني قطع رأس أيٍّ منهم إذا ارتكب التجاوز(٢).

٨- الشهادات الممنوحة للخريجين:

إن المدارس أسستها زعامات دينية أو سياسية قبل العثمانيين، وفي عهدهم اعتادت على إعطاء شهادات تخرج، والحائز على تلك الشهادة أو البراءة يحق له ممارسة التدريس إذا نجح في امتحان الاختبار، وفي الغالب إن الشهادات بدأت تأخذ الشكل الرسمي من قبل أولياء الأمر منذ العصر

---

(١) Gaha akyuz, abdulhamit devrinde protestan okullari ile ilgili belga, fakultesi der dergisi, 1970.S.121-131.

(٢) لطفي، مصدر متقدم، ص ٦٥.

المملوكي حيث وقع العلماء على شهادات الخريجين، وحينما خضعت تلك المنطقة للسيطرة العثمانية، عادت المدارس إلى الكتاتيب والمدارس المذهبية التي تفرّد أصحابها بإعطاء خريجها وثيقة ممهورة من قِبَل ناظر المدرسة وليس من قِبَل مؤسسة رسمية كما كان سابقاً.

عمل العثمانيون بالشهادات الموثقة رسمياً منذ عهد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١م) عندما أمر ببناء «موصلة صحن» و«صحن ثمان»، وأمر أن يعطى الخريج وثيقة رسمية ممهورةً من قِبَل شيخ الإسلام كدلالة على أن حاملها قد تخرَّج وحصل على ما يؤهله بموجبها تدريساً أو عملاً وظيفياً، وكان يحق لشيخ الإسلام أن يضع عليها ختمه وعندها تسمى «شهادة نامه».

وفي عهد السلطان سليمان القانوني أمر بإعداد مهر خاص بالمدرسة لمنح شهادة نامه للخريج، ولكن عليه أن يصدقها رسمياً من باب عالٍ (الصدر الأعظم)، ومنذ ذلك التاريخ اعتمد ما يسمى «شهادة نامه» لكل خريج من مدرسة، وعلى إثرها بدأت الدولة تتجه إلى إعداد شهادات تخصصية (ليس المقصود بالتخصص ما هو عليه الحال الآن).

وبعد عهد التنظيمات وافتتاح مدارس تخصصية مثل: (التعليم الزراعي) كان الخريج منه يُمنح شهادة نامه الزراعة التي تؤهله للعمل في الأعمال الزراعية التي تنوي الدولة القيام بها لتطوير مناطق ما، و(دار المعلمين والمعلمات) التي كان الخريجون والخريجات منها يحملون شهادة نامه التي تؤهلهم للتدريس، والحال نفسه بالنسبة للتعليم الصناعي.

أما خريج التعليم الديني، فكان يحق له العمل إما خطيباً أو إمام جامع أو مدرساً في المدارس الدينية بالطبع إذا فاز بالاختبار، والحال نفسه لمن يرغب في التدريس،.

ويمارس خرّيج المكاتب السلطانية عمله في المؤسسات الحكومية دون اختبار، نظراً للمكانة التي كانت تحظى بها لدى السلطان الحاكم، وكانت المكاتب العسكرية لا يُستقبل فيها إلا من كان يحمل شهادة نامه الرشدية، كما حصل مع مصطفى كمال أتاتورك.

خلاصة القول: إن الشهادة التي يحصل عليها الخريجون، كانت تؤهّل حاملها العمل إذا كانت موثقة من الجهات الرسمية، وذلك بحسب حاجة المؤسسة ونجاح المتقدم في الاختبار، وكانت شروط القضاة من أشد الشروط التي يتعرض لها خريج الإعدادية قبل إلغاء المدارس الرشدية[1].

---

(١) لزيادة الاطلاع على شهادة نامه، جودت، مصدر متقدم، ج ١٠ ص ١٨٣.

استنتاج الفصل الثاني

أدخل العثمانيون تغييرات كثيرة في مجال القضاء، ونظراً لكثرة التغييرات وجذريتها، فقد استمرت طوال العصر العثماني، بل وحتى الوقت الحاضر، ولعل أهم ما يلفت النظر في تلك التغييرات هو السرعة الغريبة التي تمت بها، وهو ما يؤكد أن السلطان سليم كان قد حضّرها قبل دخول دمشق.

ولم تكن التنظيمات ذات اتجاه تنظيمي واحد أو محدد، إذ طُبقت لتنظيم الدولة بموجب قوانين وأنظمة لا يمكن للمسؤولين تجاوزها أو الخروج عن المبادئ التي رُسمت لهم، ولم يكن العثمانيون يجهلون واقع التعليم والقضاء، ولذا استفادوا من القوانين الغربية وعملوا على جعل القضاء أكثر صرامة لمنع الأحكام العشوائية، وفتحت الطريق لتطبيق العدالة بموجب مواد قانونية؛ وأدرك العثمانيون أن القضاء لن يسير بشكل يضمن للدولة العثمانية سلامتها إلا من خلال تدريس القضاة، وتحديد اختصاصاتهم، كما أن الاختصاصات لا تتم إلا من خلال إعداد مدرسة تعدها وتحتضنها، فكيف للقضاة السير بنهج عادل ما لم يدرسوا القوانين التي ترجمت لإعداد قضاة متمرسين بكافة مستوياتهم ولهذا عملوا على تدريسه والنهوض به. ورفض البعض تعليماً لا يعتمد على العادات والتقاليد، متذرعين بأن التعليم يجب ألا يخرج عن إطار الآباء والأجداد، وتناسوا أن التعليم الحديث وتطوره وتحديثه لا يمس العادات والتقاليد بسوء؛ بل يهذبها ويعمل على إعدادها وحمايتها بالكلمة التي تتجسد

في الكتب وفي أذهان الطلبة، وقد أدرك السلطان عبد العزيز أن التعليم القديم لم يعد صالحاً، وقد أزال قانون كلخانه خطي وشريف همايون خطي العديد مما لم يعد مقبولاً، فالكتابة والقراءة والخط والرسم ليس كالعلوم الطبيعية والتطبيقية؟! وكيف يمكن مناقشة الأوروبيين ما لم يتعلم الطلبة – أمل المستقبل – اللغة الأوروبية، ليتمكن هذا الجيل الذي تخرج من المدارس ذات الاختصاصات المتعددة والمتنوعة من تحليل الأحداث وقراءتها بشكل يفهمه هو ويفهّمه لغيره.

لقد سارعت الدولة العثمانية في الدخول إلى ميدان التعليم دون حساب تكاليف هذا الدخول، ودُهشت بإقبال الطلاب من ذكور وإناث على طلب التعليم، والكلمة لا تعرف ولا تخاطب مسلماً ولا مسيحياً ولا يهودياً؛ بل تخاطب عقلاً نيراً، وتحضه على التوسع في تخصصاته؛ لأن شهادة نامه التي يحملها مبرمجة وذات هدف، والمؤسسات التي تخرّج منها تعد ذلك إنجازاً لمسار علمي، فهو ليس حكراً على العرب بل يعيد الأمل للعثماني بهدف مساواته بالأوروبي ومعادلته.

الفصل الثالث

التعليم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

(١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)

١- دور السلطان عبد الحميد في تطور التعليم وتحديثه (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)

أ – التعليم الابتدائي في ولاية دمشق (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م):

١ – التعليم الابتدائي للذكور.

٢ – التعليم الابتدائي للإناث.

٣ – المكاتب المهنية.

ب – التعليم الرشدي، مراحلها كوادرها، ومواد تدريسها.

١ – التعليم الرشدي العسكري.

٢ – المكاتب الرشدية التعليمية.

ج – المكاتب الإعدادية، مراحله كوادره، ومواد تدريسه.

د – المكاتب الاختصاصية في ولاية دمشق (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م):

١ – دار المعلمين.

٢ – مكتب الصنائع والإصلاح خانه.

٣ – التعليم الزراعي.

هـ- التعليم العالي في العهد الحميدي (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م).

١ - الأوضاع الطبية لولاية دمشق.

٢ - المكتب الطبي.

٣ - مصروفات التعليم في مديرية معارف دمشق.

استنتاج الفصل الثالث.

التعليم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني

مُقدِّمة

تولى السلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطنة سنة (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) في جو مشحون على صعيد العرش وعلى صعيد الدولة، وقد اتهم بأنه دبر تهمة الجنون لأخيه مراد الخامس، وخدع التيارات القومية التركية، كما أنه زج أعداءه في السجون، ونفى قسماً منهم إلى طرابلس الغرب، تفرد بالسلطة وحكم البلاد حكماً ديكتاتورياً، وقد خافه الجميعُ حتى أصدقاؤه، وأنه انحاز إلى جانب العرب في جميع مواقفه، فقد زوج ابنتيه لأحفاد الأمير عبد القادر الجزائري، وجعل رؤساء الطرق الصوفية نواباً له، وبذلك يكون قد أفرغ مشيخة الإسلام من محتواها، وجرد مفتي الإسلام من سلطته لإفتائه بعزل عمه السلطان عبد العزيز، وإفتائه بعزل أخيه مراد الخامس، وأغدق الأموال على مستشاريه ومرافقيه، كما منح أصحاب الطرق الصوفية الملتفين حوله أموالاً طائلة وصلاحيات واسعة، ومن أبرز هؤلاء المشايخ:

- الشيخ أبو الهدى الرفاعي (الصيادي) رئيس الطريقة الرفاعية، وقد تعددت الروايات المحلية حول أصله، ونشأته المشبوهة وهو الذي منح وثيقة إعفاء من الخدمة لكل من دفع له الأموال بحجة أنهم من سلالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ويقال إنه حلبي(١).

---

(١) أفادت وثائق مشيخة الإسلام أن أبا الهدى الصيادي كان يبيع وثيقة تفيد أن حاملها من سلالة رسول الله (الرفاعي، عمران وغيرها) وقد عمت مختلف أنحاء الوطن العربي غرباً وشرقاً، وبذلك يكون قد عمم (كنى) كثيرة دون وجه حق، وفتح فرص التمرد على العائلات الأصيلة حسباً ونسباً وأضاع بتصرفه مَنْ من الأشراف ومَنْ من الأسياد. للمزيد راجع وثائق الإسلام، استانبول، سجلات المحاكم الشرعية، سجل ١٥ حتى ٧١.

- محمد ظافر المدني رئيس الطريقة الشاذلية من الجزائر، وإليه يعود الفضل في مد ثوار الجزائر بالأموال ومساعدة المهاجرين الجزائريين خارج الجزائر.
- الشيخ محمد سليم الرباط رئيس الطريقة النقشبندية من العراق، وهو أول من أقام طرقاً صوفية مسلحةً، في بلاد ما بين النهرين تعتمد القوة لمقاتلة خصومها.
- الشيخ محمد سعيد من سورية، حمص، وهو أول من أفتى بقضايا متنوعة وعديدة.
- الشيخ أحمد سعيد القيصري من المدينة المنورة.
- الشيخ محمود أبو الشامات من دمشق، عاد إلى سورية فور عزل السلطان عبد الحميد الثاني، ولم يظهر الوثيقة التي مفادها أن السلطان عبد الحميد رفض بيع فلسطين إلا بعد وفاته سنة (١٩١٨م)، ولهذا بدأ العقلاء يشككون بصحة الوثيقة؛ لأن محمود أبو الشامات لم يظهرها للعامة والخاصة إلا بعد وعد بلفور بسنة أي سنة (١٩١٨م)، ولم يكتفِ السلطان عبد الحميد الثاني بذلك، بل أسند إدارة المدارس العسكرية إلى مشير أركان الحرب شفيق باشا وأخيه وهيب من قرية المتن في لبنان، وعين شكري باشا الأيوبي الدمشقي ناظراً للأعمال العسكرية.

هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية العلمية، فالسلطان عبد الحميد الثاني يُعد أول رجل في التاريخ اهتم بتربية الناشئة بين العشائر، وهو أول من أنشأ مدرسة العشائر لتربية أبنائها، وجعلها مدارس متنقلة أينما حلوا ورحلوا[1].

---

(١) أفادت الوثائق المقربة من السلطان عبد الحميد أنه رفض بيع فلسطين لليهود، لكن العقلاء شكوا باللغة العربية الفصحى التي وزعها محمود أبو الشامات، وأن السلطان عبد الحميد لا يعرف العربية وهو لا يجرؤ على مهادنة هرتزل، لأن العرب من رجال دين وقومية يحيطون به من كل حدب وصوب، فضلاً عن ذلك فقد كان هرتزل يعلم جواب السلطان عبد الحميد مسبقاً، لأن العرب الذين حوله سيمنعونه من ذلك، وقد كان ذهابه إلى تركيا لتفقد زعامة جمعية الاتحاد والترقي، للمزيد، هاووتش مرجع متقدم ص٣١٨. (المؤلف).

أ- دور السلطان عبد الحميد في تطوير التعليم وتحديثه:

في حقيقة الأمر إن السلطان عبد الحميد الثاني قدَّم إلى العرب أكثر مما قدم ولاة الأمر من العرب لأبناء جلدتهم حتى في العصر الحديث والمعاصر، كما أن خدماته في مجال التعليم لا تعد ولا تحصى، فقد حضّ على إنشاء المدارس في النواحي والقرى، وكلف مديريات المعارف العمومية بتأمين سكن للمدرسين الذين يُدرّسون خارج المدن، وأمرهم بزيادة رواتبهم بمقدار ضعف ونصف، وأن الأمر يقتضي من مديريات المعارف العمومية في مركز الدولة ومركز الولاية اعتبار السنة بسنتين لكل مدرس يُدرّس بعيداً عن المدينة بما يعادل ١٠٠ كم، والسلطان عبد الحميد هو من أمر بضرورة مداواة المدرسين على نفقة الدولة في المشافي الحكومية وإن كانت عسكرية، وهو أول من أمر بمنح كراسي المعيدية للمتفوقين من الطلاب، وهو أول من أمر بمنح المدرسين حصانة عدم الإهانة أو الاعتقال من دون وثائق قضائية، وأن يعامل أمام القضاء معاملة تليق به، لأنه ينشئ الأجيال ويهذبها(١).

لقد أنجز السلطان عبد الحميد الثاني خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر الكثير من الأعمال التعليمية مثل: المعاهد العليا، والكليات العلمية، والجامعة، وتحديد التخصصات، ومع أن أسلافه سبقوه في بعض هذه الخطوات، إلا أنه ثبّتها ووسع مهامها، وأعطاها الصبغة القانونية التي لا تسمح لمَن خلفه بتدميرها بفرمان، كما حدث لمدارس محمد الفاتح ومدارس سليمان القانوني، وأوجد المعاهد الأثرية التي تُدرِّس التراث الإسلامي، وأدخل اللغات الأجنبية جميعها من فرنسية وإنكليزية وروسية وفارسية، رغم عدائه الشديد لتلك الدول، كما استدعى مدرسي آثار وعلوم تطبيقية من ألمانيا وافتتح مدارس لتدريس الطب بنوعيه البشري والحيواني، واستعان بخبرة الخبراء الألمان لمساعدته على

---

(١) للإطلاع على فرمانات السلطان عبد الحميد، أرشيف يلدز وثائق التعليم من رقم ١٣٧ إلى ١٦١٣ وهي وثائق متنوعة بمجملها تؤكد حرص السلطان عبد الحميد على نشر التعليم في دولته.

تحقيق هذه الإنجازات العلمية، وضرب بشدة كل من يعيق افتتاح المدارس أو الآباء الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس حتى إنهاء المرحلة الابتدائية، وأمر بافتتاح المدارس المهنية من أشغال وخياطة وتطريز للإناث ولاسيما في المناطق الريفية، ووجه فرماناً إلى الولاة يحضهم على تأمين حراسة لمدرسة البنات، وحذرهم من الاعتداء على مدارسهن أو عليهن أثناء ذهابهن وإيابهن، وعُدّت فرماناته هذه خطوة ميدانية أسهمت في تشجيع إرسال الأهل لبناتهم إلى المدارس، لاسيما وأن السلطان عبد الحميد الثاني لقبّ بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين، وحتى المتشددين والمناطق الأكثر تعصباً وجهلاً مثل ولاية طرابلس الغرب أرسل أهلها أبناءهم وبناتهم إلى مدارس الفنون، ومارست بنات العرب أعمال الخياطة والتطريز والنقوش على الملابس، وجُسّدت قرارات وفرمانات السلطان عبد الحميد بالنقوش على الألبسة(١).

لقد عُرف عن السلطان عبد الحميد الثاني حبه للعلم، فاستبعد أحمد جودت باشا عن الدائرة العلمية وعهد إليه أعمال إدارة الولايات لرجاحة عقله واتزانه، وأسند إلى أحمد رفيق مهمة مراقبة المؤسسات العلمية وأمره بزيادة المدارس وبنائها في كل منطقة وناحية من مناطق ونواحي إمبراطوريته، وأمره بإعلامه عن الجهة المقصرة، وحذّره من التمييز بين المدارس المسيحية والإسلامية، وعلى مديرية المعارف مراعاة التدريس المختلط بين الذكور والإناث، كما كلف المديريات بإرسال الطلبة المتفوقين للتخصص في الخارج، وطلب توجيه خطاب بهذا الخصوص إلى مديريات المعارف العمومية بضرورة إرسال الطلبة المتفوقين إلى ألمانيا شهراً؛ لأن الشعب الألماني عملي وعقلاني(٢).

---

(١) راجع متحف يلدز ومتحف الطوب قابي ومتحف دولمه بغجة، حيث ضمت تلك المتاحف مئات الأعمال الفنية التي كانت ترسل من الولايات كل سنة بعيد اعتلاء السلطان عبد الحميد عرش السلطنة.

(٢) Selim Erciment, abdul hamidin, egitime mekteb Istanbul, 1959.S.23.

أدرك السلطان عبد الحميد الثاني أن مدرسي المدارس الدينية غير مؤهلين لإعداد جيل مدرك لحقيقة الدين الإسلامي، وأن الشيخ والخطيب والمؤذن والقيّم لا يمكنهم إعداد طفل لا يتجاوز عمره ما بين ٤ إلى ٥ سنوات، وأن الطلاب الذين يدرسون في مدرسة الصبيان لا يسجلون في سجل المدرسة ولا يمنح الخريج منهم شهادة أو وثيقة تؤكد إنه درس في مدرسة الصبيان وليس لدى الشيخ، ولذا أمر نظارات المعارف العمومية أن تعد سجلات سنوية خاصة بالطلاب كنماذج إلى مديريات المعارف للعمل بموجبها، كما تم منعُ دخول الطفل أية مدرسة دون أن يسجل تسجيلاً رسمياً مع بيانات واضحة عنه، وعلى مدراء المدارس أن يُعلموا مدراء النواحي والمخاتير عن الأهل الذين لا يرسلون أبناءهم إلى مدرسة الصبيان، ويتحمل مختار القرية مسؤولية ذلك[١].

لقد جنى السلطان عبد الحميد الثاني جهد أسلافه، ففي سنة (١٢٩٧هـ/١٨٧٩م) أصدر فرماناً يقضي باستقلالية مديريات المعارف في الولايات وخوّلها اتخاذ الإجراءات التي تناسب الولاية، وعلى المديرية إعلام نظارت المعارف، وجاء في مضمون الفرمان الذي صدر سنة (١٣١٠هـ/١٨٩٢م) ضرورة اعتماد سجلات مالية وسجلات للمدارس ووثائق تخرج، سماها الفرمان «شهادتنامه»، تمهرها مديرية المدرسة وتُصدَّق من مديرية المعارف وديوان الوالي للتأكد من صحتها وصلاحياتها ضمن الولاية وخارجها[٢]. وقد قدم أحمد رفيق معروضاً للسلطان عبد الحميد بشأن زيادة رواتب العاملين في مديريات المعارف، فصدر الفرمان التالي، يمنح كل من[٣]:

---

(١) Adnan sisman, gala ta sarag mektebi devri Istanbul.1989.5.

(٢) سجلات الديوان الهمايوني، سجل رقم ٣٨٩٧ ص ٢٥.

(٣) دولت عليه سالنامه س، ١٣١٠هـ/١٨٩٢م دفعة ٢٤ ص ١٣٨.

مدير المعارف	٢٠٠٠ قرشٍ شهرياً
المحاسب	١٠٠٠ قرش
كاتب المعارف	٥٠٠ قرش
أمين الصندوق	١٥٠ قرشاً
والخدم لكل منهم	١٠٠ قرش

وبعد مدة راسل والي الولاية راشد ناشد باشا الذي خلف أحمد حمدي باشا في الولاية الصدر الأعظم بأن هناك فروقاً كبيرة بين رواتب العاملين في مديرية المعارف، فأمره بعقد اجتماع لمجلس الولاية وتحديد رواتب العاملين في المديرية بحسب إمكانات الولاية والمساعدات والهبات التي تقدمها الولاية وأعيانها إلى مديرية المعارف[1].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن مرحلة التنظيمات بدّلت جلد الدولة لظروف بعضها داخلي، أبرزها الفساد الإداري وانهيار النظام الإنكشاري، وبعضها خارجي، كمحاولات بعض الولايات المطالبة باستقلالها وانفصالها على الدولة مدعومة بقوىً خارجية، ولهذا فإن الدولة بدأت بتنظيم أمورها على أسس جديدة في المجالات كافة (إدارية، مالية، قضائية، تعليمية) وذلك بموجب مرسومين أصدرهما السلطان عبد المجيد «كلخانه خطي» وخط شريف همايون.

لقد اختلفت مرحلة المشروطية من حيث تنفيذ الإصلاحات، وعدَّها المؤرخون مرحلة تنفيذ وليس تشريعاً، وقد قصد بالمشروطية تقييد سلطة الحاكم بموجب مبادئ محددة، وقد قسمت إلى قسمين:

١- مرحلة المشروطية الأولى: وتبدأ بإعلان الدستور فور تسلُّم السلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطنة (١٨٧٦م)، وبصدور

---

(١) المحاكم الشرعية، دمشق، سجلات مديرية معارف الولاية، سجل ٢٨ ص ٤٤ و٥٧.

الدستور أصبح المسؤولون مرغمين على تنفيذ الإصلاحات بموجب دستور (١٨٧٦م).

٢- **مرحلة المشروطية الثانية:** وتبدأ بمحاولة الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني سنة (١٩٠٨)[١].

ما يمكن قوله: إن الدستور طُبِّقت بعض بنوده خارج إرادة السلطان عبد الحميد الثاني، أما ما يتعلق به فكان خطأً أحمرَ، ولهذا فإن روّاد الدستور سموا مرحلة المشروطية الأولى للسلطان عبد الحميد «مرحلة دكتاتورية»[٢].

لقد دأب السلطان عبد الحميد الثاني على خطة أسلافه في ترسيخ العلم ومؤسساته، وأصدر فرمانات عدة تحض الولاة في الولايات على تقديم الخدمات اللازمة إلى مديريات المعارف لبناء المدارس وتأمين مستلزمات الطلاب، كما أكد السلطان عبد الحميد الثاني في عهده على تحديد مراحل التعليم وقسمه إلى ثلاث مراحل، غير أن المدارس الرشدية كانت مقسمة إلى:

١- **مكاتب رشدية عسكرية:** وقد اقتصر افتتاح هذه المدارس في مركز الولاية، وافتتحت مدرسة واحدة بلباس عسكري الطابع، لكن المضمون مدنيّ علميّ بامتياز.

٢- **مكاتب رشدية:** وهي مدارس تدرِّس مختلف العلوم وتستقبل طلاباً مسلمين ومسيحيين؛ لأنها مدارس رسمية (أي حكومية)[٣].

ومن الإجراءات التي اتخذها السلطان عبد الحميد الثاني لتعميم التعليم إضافةُ أمر آخر على إلزام إرسال الأطفال إلى المدارس وهو الحبس ستة أشهر لمن يمتنع عن إرسال أبنائه إلى المدارس خلال المرحلة الابتدائية.

---

(١) نور، مصدر متقدم، ج ٣ ص ١٥٢.

(٢) سليم أحمد طوبال، مرحلة المشروطية، أنقره، ١٩٧٧م، ص ٢٣٣.

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء، يلدز تصنيفي، وثيقة رقم ١٣٧ كرتونة ٦٦.

لم تعفِ فرمانات السلطان أولياء البنات من الإرسال الإلزامي، فأمر بإيجاد المدارس المهنية، وحمّل مدراء النواحي ومخاتير القرى مسؤولية مراقبة الأطفال ذكوراً وإناثاً، لأنه أراد لإمبراطوريته أن يكون أبناؤها متعلمين[1].

لقد قسّم التعليم إلى ثلاث مراحل:

١- التعليم الابتدائي للذكور.

٢- التعليم الابتدائي للإناث.

٣- المكاتب المهنية.

١- التعليم الابتدائي للذكور:

بموجب التنظيمات ليس هناك مدارس مخصصة للذكور أو الإناث أو للمسلمين أو المسيحيين، وقد حاول السلطان عبد العزيز إزالة هذه الظاهرة، لكن واقع بعض المناطق وبخاصة في الولايات العربية اقتضى التفريق في التدريس وغيره ما بين الذكور والإناث، غير أن السلطان عبد الحميد الثاني أعاق من تحسين الواقع الاجتماعي عندما أجاز لمديرية المعارف أن تخصص مدارس للمسلمين ومدارس للمسيحيين وبشكل خاص في المرحلة الابتدائية، وقد ظهرت المدارس الابتدائية في الدولة العثمانية مقسمة إلى ثلاث مدارس:

١- مدارس ابتدائية للمسلمين.

٢- مدارس ابتدائية للمسيحيين.

٣- مدارس للبنات، ولم نعثر على أن هذا التمييز الديني طُبِّق أيضاً على الإناث[2].

---

(١) جودت، مصدر متقدم، ج ٨ ص ٥٨٧.

(٢) النشرة السنوية لمديرية معارف دمشق، دار الوثائق، سجل مشوش دفتري رقم ٥٦.

وقد حددت شروط قبول الطلاب في المرحلة الابتدائية من سن السابعة وحتى سن الحادية عشرة بالنسبة للذكور، ومن سنة السادسة حتى العاشرة للبنات، وكانت المرحلة الابتدائية تشمل أربعة صفوف(١).

الصف الأول : سمّته المصادر العثمانية صف استعدادي أي (تحضيري) ويقبل الطلاب فيه لتربيتهم على الانضباط والتخاطب فيما بينهم بأدب، وبالإجمال هو صف تربية وتأهيل.

الصف الثاني : وتُدرَّس فيه مواد القراءة، وحسن الخط، والإلقاء، والكتابة على السبورة.

الصف الثالث : قراءة وجغرافيا، ورسم، وحساب، وإملاء، وإنشاء على الدفاتر.

الصف الرابع : الشعر، النثر، المعلقات (تركية عربية)، إملاء، نحو، فرنسي، إنجليزي.

وقد تعهدت مديرية معارف ولاية دمشق بتأمين الكتب والمستلزمات التعليمية الأخرى لطلاب المرحلة الابتدائية مجاناً، وعندما تولى مدحت باشا ولاية سورية (١٢٩٥-١٢٩٦هـ/١٨٧٨م)، (دمشق) حدّ من انتشار الأمية بين المسلمين، ولما كانت الفتاة المسلمة غائبة وحبيسة البيت، فقد أمر مدير المعارف في دمشق بافتتاح المدارس لهنّ وتنفيذ ما نصت عليه الفرمانات السلطانية القاضية بإرسال الأهل أولادهم (ذكوراً وإناثاً) إلى المدارس وإلا يطبق بحقهم إجراءات صارمة، وكلف مجلس ولاية المدينة بمتابعة الأمر وتنفيذه(٢).

كذلك فقد أمرت مديرية المعارف بافتتاح مكتب الصنائع، وضرورة إلحاق الطلاب من ذكور وإناث في هذا المكتب، ولهذا فقد عين الشيخ طاهر

---

(١) ساطع الحصري الحولية الثقافية العربية، القاهرة ١٩٥٩ ص ١١٥.

(٢) مدحت باشا وحياته، محاكمته، تقديم يوسف كمال بك حتاته وصديقي الدملوجي، بيروت، ٢٠٠٢ ص ٤٩.

الجزائري مفتشاً عاماً لمديرية المعارف، وقد تمكن الشيخ طاهر الجزائري من زيادة تدريس اللغة العربية في مختلف المراحل، وجعلها المادة الرئيسة في كل الصفوف، ومنح المتفوقين فيها مكافآت تقديرية[١].

تخوف السلطان عبد الحميد الثاني كثيراً من ازدياد شعبية مدحت باشا في شام شريف (دمشق) وبخاصة أن جواسيسه أعلموه بأنه يتقرب من الأهالي ويجالسهم، فعزله ونقله، وعزل طاهر الجزائري من منصبه ونفاه إلى القدس؛ بسبب تأييده لمدحت باشا بحسب ظنون عبد الحميد الثاني، وحينما كان مدحت باشا والياً على دمشق، جمع العلماء وحضّهم على تشكيل جمعية لإصلاح المدارس وجمع الإعانات، وقد توافد التلاميذ إلى مدارس الأحداث بحدود ١٥٠-٢٠٠ تلميذ، وخصص الإعانات وجزءاً من إيراد الأوقاف إلى المدارس، وبارك للدمشقيين تأليفهم لجمعيتهم المسماة (جمعية المقاصد الخيرية)، وأنشئت لها فروع في سائر ألوية الولاية وأقضيتها ونواحيها[٢].

ومن الأخطاء التي ارتكبت في المرحلة الابتدائية، عجز المعلمين عن إفهام الطلاب الصغار من خلال لغة مشوهة ما بين العربية والعثمانية، وحالما علم السلطان عبد الحميد بذلك، أمر بتدريس الأطفال في الولايات العربية باللغة العربية، وتدرس العثمانية كلغة وتاريخ في المرحلتين الإعدادية والرشدية[٣].

صحيح أن السلطان عبد الحميد شجع التعليم وفرض عقوبات صارمة بحق الأهل الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس، غير أن تأسيس المدارس الابتدائية يعود الفضل فيه إلى مدحت باشا، وبتعيينه الشيخ طاهر

---

(١) مذكرات مدحت باشا ص ٤٦-٤٩.

(٢) مذكرات مدحت باشا، مصدر متقدم، ص ٤٦-٤٩.

(٣) رضا نور، عثمانلي تاريخي، مصدر متقدم ج ٦ ص ٣٧٠.

الجزائري بدأت اللغة العربية تأخذ مسارها كلغة محلية، إلا أن كراهية السلطان عبد الحميد الثاني لمدحت باشا انعكست سلباً على ولايتي العراق ودمشق؛ لأن جواسيس السلطان عبد الحميد صوروا له أن مدحت باشا يسعى لإقامة إمبراطورية[1] (دولة وما شابهها من الشائعات) فعزله عن ولاية دمشق، وأمر بعزل الشيخ طاهر الجزائري كما ألغى الإصلاحات التعليمية التي قدمها للعرب من خلال منع تدريس اللغة العربية من قبل العثمانيين[2]. الأمر الذي جعل الجمعيات السرّية تنمو وتعمل في الخفاء مطالبة بالاستقلال وداعية للاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في أيام ولاية مدحت باشا.

ما يمكن قوله إن المرحلة الابتدائية لم تشهد تطوراً يمكن ذكره، فالمكاتب التي أنشئت في دمشق تراوحت أعدادها بين (١٧-٥٦) مكتباً (مدرسة)، لكن الوثائق العثمانية أفادت أكثر من ذلك بكثير استناداً إلى ما ذكرته ايساتستيق عمومي إدارة وعلى ما يبدو فإن ما ذكرته هو ما بعد سنة (١٣٢١هـ/١٩٠٣) وشملت حتى مرحلة الاتحاد والترقي.

من الصعب جداً تقديم إحصاء دقيق لأوضاع التعليم في ولايات بلاد الشام ولاسيما مديرية معارف ولاية دمشق لأسباب يصعب التعرض لها[3].

ومن الإنجازات التي قدمها السلطان عبد الحميد الثاني للتعليم في إمبراطوريته، وضع شروط إضافة إلى الشروط التي أقرها خط كلخانه (غرفة الورد) سنة (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) هي:

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء، فرمان رقم ٤٩٧ لسنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١م لف ٢ و٣.

(٢) أوردنا في الفصل الأول ما ذكرته دائرة الإحصاء التركية، وبمراجعة الحصري في مؤلفاته يمكن القول: إن ما ذكرته دائرة الإحصاء التركية هو الأصح (المؤلف).

(٣) للإطلاع على الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، محمود عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق ٢٠٠٣، ص ٩٨.

١- إجراء الامتحانات للولايات كافة صيفاً.

٢- إيجاد نظام يسهم بالوصول إلى تعليم حديث ومتطور.

٣- إعطاء أهمية للتفتيش.

٤- إدخال السبورة إلى مدارس الإمبراطورية كافة.

٥- إلحاق الأطفال الذكور من عمر السادسة والإناث من عمر السادسة أيضاً[١].

ومن الإضافات الخيرية التي قدمها السلطان عبد الحميد الثاني، تأمين نفقات مدارس الصبيان تجنباً لعجز المدارس عن استيعاب الأطفال بسبب ضيق غرف (حجر) التدريس، والازدحام الكثيف لغرفة التدريس الواحدة، ولهذا فقد أمر بما أقره سابقاً[٢]:

١- تخصيص نسبة من ضريبة العوارض، وأمر بإحيائها بعدما أوقفها سنة (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م) بعد توليه سدة العرش بثلاثة أشهر.

٢- تخصيص مبالغ من المواريث والوصايا.

٣- اقتطاع أو تخصيص جزء من زكاة أموال عيد الفطر والأضاحي وما شابهها.

وفي سنة (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) قدّم ناظر المعارف آنذاك هاشم باشا معروضاً جاء فيه: أن نجاح المسألة التعليمية يحتم افتتاح مختلف أنواع المدارس بمختلف مراحلها الابتدائية والإعدادية، وافتتاح دائرة للمعلمين ومعاهد لإعداد معلمين مدرَّبين تدريباً جيداً ومخصَّصين للتعليم الابتدائي.

---

(١) Aksoy, ozgonul, sibyan emtel eri devami, Istanbul.1968.

(٢) Atilla setin, maarif nazareti egitim, Istanbul.1989.S.265.

وقد أمر السلطان عبد الحميد الثاني بتنفيذ توجيهات ناظر المعارف وأمر بتعميمها على سائر الولايات، وحمّل الولاة مسؤولية عدم تنفيذ الإصلاحات الكفيلة بإنجاح التعليم الابتدائي؛ لأنه الأساس الرئيس لإنجاح التعليم في المراحل التي تليه(١).

٢- التعليم الابتدائي للإناث:

يعود توافد البنات (الإناث) إلى المدارس إلى القرارات التي اتخذها السلطان عبد الحميد الثاني والإجراءات التي تحملتها جندرمة الولايات بحمايتهن ذهاباً وإياباً، فضلاً عن ذلك فإن الدستور منح المرأة حق التعليم والتعلم، وكفل لها حقوقاً لم تكن مؤمنة لها قبل عهد التنظيمات.

وقد وجد في دمشق ما يزيد عن /١٣/ مدرسة خاصة بالفتيات وثلاث مدارس مختلطة، وبعد سنتين من افتتاحها صدرت إرادة سلطانية بإغلاقها لأسباب مجهولة، علماً بأن عدد المعلمات في ولاية دمشق بلغ /٢٤/ معلمة وثلاث خادمات و/١٣/ موظفة(٢).

وتفيد الوثائق المستمدة من النشرة العثمانية: أن المعلمات اللواتي مارسن عملية التعليم تجاوزت أعدادهن(١٩٨) معلمة، وكنَّ بتزايد مستمر سنة بعد سنة، وقد درسْنَ في معاهد التعليم العالي مدة ثلاث سنوات، وبعد تخرجهنَّ منحْنَ شهاداتنامه، وكُلِفنَّ بالتدريس في مختلف المدارس الابتدائية للإناث، والرشدية للإناث والمتفوقات منهنَّ كلفنّ بالتدريس في المعهد العالي(٣).

وقد بلغت أعداد الفتيات اللواتي التحقْنَ بالمدارس الابتدائية قرابة (٥١٧٤) تلميذة، وكان لجمعية المقاصد الخيرية إضافة إلى نشاطات مديرية

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول، قسم يلدز، رقم ٩٧ كرتون ٣٧ ظرف ١٤.

(٢) النشرة العثمانية لنظارت المعارف العمومية لسنة ١٣٣١هـ/١٩١٢ وهي مرحلة خارجة عن مجال البحث، وقد اعتمدناها لقلة المصادر عن مكاتب البنات (المؤلف).

(٣) سورية سالنامه سي، لسنة ١٣٠٨هـ و١٣٠٩هـ ص ١٥٧.

المعارف والفرمانات السلطانية الدورُ الرئيس في زيادة إقبال الإناث على التعليم منذ مراحله الأولى[1].

لم يقتصر نشاط جمعية المقاصد الخيرية على افتتاح مدارس في دمشق فقط، فقد أنشأت مدرسة في حماه وواحدة في حمص وأخرى في كل من نابلس وطرابلس الشام، وذلك قبيل تشكيل ولاية بيروت وانفصالها عن ولاية دمشق[2]، ولكن نشاط الجمعية ظلّ فعالاً في الولايتين، بل وصل إلى ولاية حلب وافتتحت مدارس ابتدائية فيها[3].

ومما ذكرته النشرة العثمانية الصادرة عن «نظارت المعارف»: أن عدد مدارس الإناث تزايد في سنة (١٠٣٩هـ/١٩٠١م) ليصل إلى (٣٨) مدرسة ضمت ما يزيد عن (٧٠٤٦٠) تلميذة ما بين مسلمة ومسيحية.

والملاحظ أن أعداد الإناث زاد عن عدد الذكور، رغم القوانين الصارمة التي فرضت على الآباء الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس، ولهذا فإننا لم نعثر على ما يدل على أن فتيات القرى أرسلن إلى المدارس[4].

٣- المكاتب المهنية:

اختلفت الآراء حول تعليم الإناث في مركز السلطنة، فقد أقدم جودت باشا وبتأييد من مدحت باشا على افتتاح مدارس مهنية، وكان أحمد راسم باشا - والي ولاية طرابلس الغرب - أول من طبّق المكاتب المهنية في ولايته، وتألفت من أعمال تطريز وخياطة وحياكة، أما في دمشق فقد حضّ الوالي مدحت باشا على افتتاح مدارس مهنية، لكن هذه المدارس لم تلقَ تأييداً من الأهالي؛ لأن المرأة

---

(١) فؤاد أفرام البستاني، المعلم بطرس البستاني، تعليم النساء، المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٩ ص١ وما بعد.

(٢) شكلت ولاية بيروت بعدما كانت لواءً تابعاً لولاية دمشق سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١-١٨٨٢م.

(٣) سورية سالنامه سي، لسنة ١٣١٠و١٣١٠هـ دفعة ٢٦ ص ٣٧٥.

(٤) سورية سالنامه سي، لسنة ١٣٠٩هـ ١٣١٠هـ، ص ٢٤٠.

الشامية والحلبية فنانةُ تطريزٍ وخياطة وحياكة بالفطرة، ولهذا فإن البحث لم يعثر على ما يفيد عن وجود المكاتب المهنية، وأعلمت استانبول بذلك، فأمر ناظر المعارف آنذاك راجي أفندي باشا سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) بعد عزل مدحت باشا من ولاية سورية بإنشاء مكاتب فنون (علوم ورياضيات وكيمياء) ويُعد مكتب الفنون الذي أنشئ في ولاية سورية أول مكتب متخصص بالعلوم(١).

لا شك أن المدرسة الآسية التي ضمت مختلف مراحل التدريس في سنة (١٣٠٠هـ/١٨٨٢م) قد سبقت مكتب الفنون (علوم ورياضيات وكيمياء)، في تدريس المرأة، لكنها كانت متشددة بالطبع بعكس المدارس المسيحية في حلب وبيروت التي استقبلت جميع الطوائف(٢).

وبحسب الدراسات المتعددة عن وضع المرأة، فقد ظل وضعها نقطة تجاذب بين العلمانيين من جهة، كـ«جودت باشا، ولطفي باشا»، وبين المفتين في استانبول ودمشق والحرفيين من جهة أخرى، إذ وقف الأخيرون ضدّ فتح الأبواب على مصراعيها أمام المرأة(٣).

ب- التعليم الرشدي:

قُصد بمصطلح «الرشدي» الوعي والإدراك، والطالب الذي ينهي المرحلة الابتدائية ينتقل تلقائياً للدراسة في مدارس التعليم الرشدي، وبعدها بإمكانه أن يتابع دراسته في المرحلة الإعدادية، ويتم تعليم الطلاب وتدريسهم خلال تلك المراحل مجاناً، ففي المرحلة الابتدائية تقدّم له الكتب مجاناً، أما في المرحلتين الرشدية والإعدادية فالطالب يشتري كتبه من المكتبات أو من مخازن مديرية المعارف(٤).

---

(١) ساطع الحصري، تقارير عن أحوال المعارف في سورية، بيروت ١٩٧٢، ص١٣٤-١٣٨.

(٢) اثناسيو، مرجع متقدم ج ١/٩ ص ٤٨١.

(٣) أديب التقي البغدادي، مناهج التربية والتعليم، مطبعة المفيد، دمشق ١٣٣٧هـ ص ١٣٨.

(٤) سجلات المحاكم الشرعية، دمشق، مشوش دفتري، قسم ١٧٥ ص ٢٧.

لم يقتصر التعليم الرشدي على القطاع المدني، بل سبقه تعليم رشدي عسكري، وفي سنة (١٢٩٩هـ/١٨٨١م) أنشئ مكتب رشدي عسكري في عهد السلطان عبد الحميد، وتلاه مكتب رشدي في ولاية حلب وآخر في بيروت خلال سنتي(١٨٨١-١٨٨٢م)[1].

١- التعليم الرشدي العسكري:

مدة الدراسة ثلاث سنوات، وأبرز ما يدرّس فيه المواد التالية حسب سنوات الدراسة.

- السنة الأولى وحددت بفصلين.

الفصل الأول: لغة عربية، ولغة فارسية، وديانة إسلامية، وإملاء، وتركي، وحسن خط، وإملاء، وأصول الدفاتر.

الفصل الثاني : ويقتصر على تدريس اللغة العثمانية وآدابها من نحوٍ، وصرف، وعَروض، وإنشاء، وأشهر الشعراء العثمانيين.

- السنة الثانية: فصل واحد فقط، ويدرَّس في هذه السنة، عربي، فارسي، جغرافية، وحساب، إملاء، ورسم وخط رقعة.

- السنة الثالثة: وهي فصل واحد، يُدَّرس فيه: أدب عثماني، وأدب عربي، وأدب فارسي، وجبر وهندسة، وإملاء، وإنشاء.

تُعهد إدارة المكتب الرشدي العسكري إلى شخصية عسكرية تُكَّلف من استانبول، ويختار ثلاثة ضباط من ضباط الولاية ممّن تثق بهم استانبول، ويقوم بعملية التدريس مدرسون متميزون، قد تتراوح أعدادهم من ١٠ إلى ١٥ مدرساً وِفْقَ الحاجة، أما العسكريون فمهمتهم تدريب الطلاب على اللياقة البدنية أو بعض الأعمال العسكرية بحسب البرنامج المحدد من قبل المركز في استانبول.

---

(١) مجلة الكلية، المجلد الرابع، العدد الخامس، ص ١١٥.

وبحسب الوثائق بلغ عدد طلاب المكتب الرشدي العسكري في دمشق لسنة (١٢٦٥هـ/١٨٤٨م) قرابة ١٧٨ طالباً، وفي سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م) ارتفع العدد إلى ٢٥٠ طالباً[١]. ويتقاضى المدرس بالمكتب الرشدي ما يعادل ٧٠٠-٨٠٠ قرشٍ[٢].

لم يقتصر افتتاح المكاتب الرشدية العسكرية على ولاية من ولايات الدولة العثمانية؛ بل عمَّ جميع الولايات، غير أن حكام تونس (باياتها) أدخلوا على موادها معظم ما يُدَّرس في الأكاديمية العسكرية الفرنسية وحملَّوها صبغة ذات طابع عسكري أيضاً[٣].

وأجمعت معظم المصادر العثمانية أن المكاتب الرشدية العسكرية وإن كان طابعها عسكرياً، لكنها مدنية في برامجها وأهدافها وقيمها، وربما استدعي العسكريون عند حدوث حرب مفاجئة، عندها يكلف المدنيون بإدارة المؤسسة ذات الطابع العسكري، أما المدارس الرشدية فقد استقطبت طلاباً مسلمين ومسيحيين على حد سواء.

٢- المكاتب الرشدية التعليمية:

بُدىء فعلياً في تأسيس المكاتب الرشدية التعليمية منذ سنة (١٢٦٣هـ-١٨٤٦-١٨٤٧م)، وكان الولاة يتبارون في افتتاح المدارس ويسمونها بأسمائهم، كما فعل متصرف جبل لبنان «داود باشا» حين افتتح مكتباً رشدياً في بيروت (١٢٧٩هـ/١٨٦٢م) وسماه «المدرسة الداودية» نسبة إليه. وقد وجد في ولاية سورية خمسة مكاتب رشدية هي: القنيطرة، وميناء طرابلس الشام، وبعلبك، وصيدا، وصور، ومكاتب في حمص، وحماة، ودوما[٤].

---

(١) سورية سالنامه سي، لسنة ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م، وسنة ١٣٠٨ و١٣٠٩هـ/١٨٩٠ و١٨٩١م.

(٢) مذكرات خير الدين التونسي، استانبول، مكتبة نور عثمانية رقم ١٥٧٨ ورقة ١٣٨.

(٣) Suliyman topal, asker mektepler Ankara.1969.S.179.

(٤) سجلات المحاكم الشرعية، دمشق، سجل شوش دفتري نمره ٨٩ ص ١٤.

استناداً إلى إحصاء سنوات (١٢٩٧هـ و١٢٩٩هـ/١٨٧٩ و ١٨٨١م) بلغ عدد طلاب المدارس الرشدية في ولاية سورية ٥١٩ طالباً ماعدا مكاتب لواء حماة، وتزايد العدد في سنة (١٢٩٩هـ/١٨٨١م) إلى ٦٦٣ طالباً ما عدا مكتب طلاب القنيطرة، وفي كل عام يتزايد العدد بنسبة ١٥ إلى ٢٠% لدرجة أن مكتب دمشق تزايدت أعداده إلى ١٧٥-٢٠٠ طالب سنة (١٢٩٩هـ/١٨٨١م)(١).

لم يقتصر الكادر التدريسي في تلك المكاتب على معلم أو ثلاثة معلمين، وكان كل سنة في ازدياد؛ لأن الخريجين كانوا في تزايد والعائدين من الخارج كذلك، وكان التدريس يتزامن مع التطور الحضاري الذي يزحف من أوروبا إلى بلاد الشام الذي تمركز أولاً في بيروت قبلة رواد النهضة، ولهذا يصعب علينا ذكر الأعداد الطلابية والكوادر التدريسية التي كانت تتوافد للدراسة أو للتدريس(٢).

لم يقتصر تزايد الطلاب على ذكور المدارس الرشدية؛ بل تزايدت أعداد الفتيات اللواتي سارعن للدراسة في تلك المدارس، لأنها غير مختلطة، وافتُتحت مكاتب جديدة في ولاية دمشق وغيرها من ولايات بلاد الشام، ومن خلال إحصاءات عدد الطالبات في كل مكتب خلال سنوات (١٢٦٣هـ - و١٢٩٩هـ /١٨٤٦ - ١٨٨١م) لم يكن يقل عن ٧٠ طالبة وازدادت أعدادهنَّ إلى ١٥٠ و٢٠٠ و٤٠٠ طالبة، وغدا السباق محموماً بين الذكور والإناث، وكانت السيدات بأناقتهن منذ الصباح يتوجهن إلى المدارس طالبات كنَّ أم معلمات(٣).

لقد توافر في المكاتب الرشدية المتخصصون الذين قدَّموا لطلابهم وافراً من المعلومات، ومنهم: (مدرسو التاريخ والجغرافيا، وأصول مسك الدفاتر،

---

(١) سورية سالنامه سي، سنة ١٣٠٤ دفعة ١٤ ص ٢١٧.

(٢) حلب سالنامه سي، سنة ١٣١٤هـ وبيروت سالنامه سي، سنة ١٣١١هـ ودولت عليه سالنامه سي، سنة ١٣٠٤.

(٣) جميل أحمد ياغي، التعليم في دمشق في العصر الحميدي، بغداد ١٩٦٣ ص ١٥٧.

والجبر، والحساب، ومعلم هندسة وبناء، ومعلمو المثلثات المستوية، ومهندس مكانيك ومعلمو موسيقى).

ومن المواد التي كانت تدرس في مختلف الصفوف[1]:

علم الكلام، والتفسير والحديث، وعلم الفقه، وعلم الأخلاق، والرسم، والتاريخ العثماني، وعلم الاقتصاد، ومبادئ أسس الحقوق، والتجارة، والحقوق الدولية، والحقوق الجزائية، والحقوق السياسية، وإدارة الملكية، وأحكام وأوقاف، والإحصاء، وعربي وإنكليزي وفرنسي[2].

ج- المكاتب الإعدادية :

تُعد المكاتب (المدارس) المرحلة الأخيرة التي يوصل النجاح فيها إلى المعاهد العليا التي تعادل الجامعات في الوقت الحالي ولم تكن هذه المدارس مختلطة، وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات وكانت السنة الأولى تدرّس مواداً علمية وأدبية، منها:

الرياضيات، والجبر، والكيمياء، والتاريخ، والجغرافية، والعلوم، واللغة الإنكليزية.

السنة الثانية وتقسم إلى قسمين (شعبتين):

- الشعبة الأولى – يدرّس فيها الأدب العربي، والتاريخ، والجغرافيا، وعلم الاجتماع والأخلاق، والديانة.
- الشعبة الثانية – تدرّس الأدب العربي، والفيزياء، والجبر والهندسة، والرياضيات، وعلم الاجتماع، والديانة.

السنة الثالثة وُزعت إلى شعبتين:

---

(١) هاووتش، مرجع متقدم، ص ٤٦٨.

(٢) سجلات المحاكم الشرعية، دمشق، مشوش دفتري، رقم ١١٣ ص ٢٣.

- الشعبة الأولى: تدرّس الأدب العربي، والتاريخ، والجغرافية، وعلم الاجتماع، والأخلاق، واللغة الإنجليزية، أي ما يدرَّس في السنة الثانية، الشعبة الأولى، ولكن بشكل أوسع(١).

- الشعبة الثانية: وهي تدرِّس ما تدرِّسه الشعبة الثانية في السنة الثانية، وبنسبة أكثر دقة، وهي مرحلة تشبه إلى حد كبير ما هو مطبق في الثانويات العامة، وقد نصت مواد الدستور على تنظيم المدارس الإعدادية(٢).

وقد درَّست المكاتب الإعدادية طلابها على دفعتين:

أ- دفعة نهارية: وهي مجانية ودوامها من الصباح حتى الثانية بعد الظهر والطلاب في المدارس الإعدادية يتحملون تأمين الكتب وشرائها، غير أن مديرية المعارف سمحت لكل مدرسة تسليم من ٥ إلى ١٥ تلميذاً كتباً مجانية، إذا ثبت أنهم فقراء، محتاجون(٣).

ب- دفعة ليلية، وهي مأجورة كرسوم لقاء إقامتهم (أي ما يسمى الداخلية) وهذا وقفاً على المدارس الخاصة، وقد وجد في دمشق ثلاث مدارس تؤمِّن التدريس الليلي، ولكن طلابها من التجار والأعيان وبعض الشخصيات الرسمية(٤). وقد تحولت تسمية المدارس الإعدادية إلى مدارس ثانوية منذ عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)، وفي سنة (١٣٠٩هـ/١٨٩١م) وجه السلطان عبد الحميد الثاني إلى نظارت المعارف ضرورة توحيد الملابس للمرحلتين الإعدادية

---

(١) ساطع الحصري، حولية الثقافة، السنة الأولى، ص ٥-٧.

(٢) الدستور، مصدر متقدم، ج ١ ص ١٦٢.

(٣) سجلات المحاكم الشرعية، دمشق، سجل رقم ٢١٩٤ لسنة ١٣٠٨هـ وثيقة ٣١٧ ص ٦٥.

(٤) جريدة المقتبس، العدد ٤٥٤ لسنة ١٣٢١هـ/١٩٠٣م.

(الرشدية سابقاً) والثانوية (الإعدادية سابقاً) ويشترط على طلاب الثانوية ارتداء (سترة بنطلون، وبنطلون وعلى الرأس طربوش) لأن الطربوش تراث عثماني(١).

نصت مواد نظارت المعارف على دفع رسوم لجميع طلاب الشهادات قبل تقديم الامتحان بموعد حددته في العشرين من أيار من كل سنة؛ على أن يبدأ الامتحان في الأول من شهر حزيران من كل سنة، وكانت مدة الامتحان خمسة عشر يوماً، وبعدها بشهر تصدر النتائج، ولا نعلم كيف كان الطلاب خارج دمشق، يعلمون بنتائجهم، لأن إفادة الأستاذ عبد الله محمود داغستاني الذي كان مدرساً في أواخر العهد الحميدي تؤكد أن هناك وسيلتين: الأولى بوساطة المذياع (الراديو)، وهذا غير متوافر بشكل يؤمن النتائج إلى طلاب الولاية، والوسيلة الأخرى، مراجعة المدرسة أو فروع مديرية التربية في الولاية.

وبحسب نظام مديريات التربية كانت المدارس الرشدية قد تحوّلت إلى المدارس الإعدادية، والإعدادية إلى مدارس ثانوية، كما هو معمول به الآن في معظم دول العالم وبخاصة البلاد العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى(٢).

ومن أهم المواد التي كانت تدرَّس في المرحلة الإعدادية قبل سنة (١٨٩٠م) وحتى عهد المشروطية الثانية (١٩٠٨م)؛ أي أيام السلطان عبد الحميد الثاني:

القرآن الكريم، والعلوم الدينية (عقائد، فقه، الصوم، الصلاة وكتاب الحج)، والمنطق، وحفظ الصحة، وخلاصة القوانين، والكيمياء (العضوية والمعدنية)، وحسن خط، وقواعد الكتابة الرسمية، وقواعد، وإملاء، وقراءة،

---

(١) لم يكن الطربوش محبوباً لدى بعض طلاب العرب، كما كان موضع سخرية خارج دمشق، وبما أن معظم الأعيان من القولوغلية الأقرب إلى العثمانيين، فإن أبناءهم كانوا يعتزون بلبس الطربوش للمزيد: محمد عزه دروزه، مذكرات، ج ١ ص١٣٧.

(٢) سورية سالنامه سي، لسنوات ١٣٠٩ و ١٣١٠هـ ص ٥ وص ١٢٢.

واللغة العربية، (صرف، نحو، ترجمة، تطبيقات)، واللغة العثمانية وأدبياتها، وقواعد الكتابة الرسمية (الرسائل الديوانية)، وجغرافية عامة، وجغرافية الولايات العثمانية، وتاريخ عمومي، وفيزياء، ومكانيك، والمواد الثلاثة (المعادن وطبقات الأرض، النباتات، علم الحيوان)[1].

وبعدما فصلت المدارس الرشدية وسميت مدارس إعدادية، والمدارس الإعدادية سميت مدارس ثانوية، نظمت صفوفها بشكل يحدد الاختصاص المناسب للناجح في الشهادة.

عمدت مديريات تربية الولايات إلى إعادة النظام التعليمي للمدارس ولاسيما بعد مؤتمر باريس

الذي ترأسه عبد الحميد الزهراوي الذي فشل - بحسب واقعها - وقد بدأت مديرية دمشق بتنظيم مدارسها، وأقرت المديرية اعتماد أربع سنوات للمرحلة الإعدادية بأربعة صفوف[2]:

١- الصف التمهيدي ويدرَّس فيه: عربي، وإملاء، وحساب (جبر، هندسة، فيزياء، كيمياء) ورياضيات، وفرنسي أو إنجليزي، وقراءة عربية، وعقائد إسلامية، وهو أشبه بالصف التمهيدي كما اعتمد في المراحل الابتدائية.

٢- الصف الأول يدرس: عربي، وفارسي، وحسن خط، وفرنسي أو إنجليزي، وهندسة، ورياضيات، وجغرافية، ورسم.

٣- الصف الثاني: عربي، وتاريخ عمومي، وجغرافية ولايات، وقواعد عثمانية، وهندسة، وفرنسي، وحساب، وعلم حيوان، ورسم.

---

(١) إن القارئ للمواد التي تدرس، يلاحظ أن ولاية سورية كانت ومازالت، ترتدي رداء القومية على ظهرها، ولا يعجز القارئ النبيه عن فهم خلفية هذه الظاهرة (المؤلف).

(٢) الدستور، مصدر متقدم، ج ٢ ص ١٦٣-١٦٤.

٤- الصف الثالث: عربي، وجغرافية صناعية وتجارية، وبلاغة عثمانية، وهندسة مجسمة، وفرنسي أو إنجليزي، وأصول مسك الدفاتر[١].

وبالرجوع إلى عدد الساعات، نجد أن عدد ساعات اللغة العربية قليلة في المنهاج التدريسي ليس قياساً إلى اللغة العثمانية بل إلى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية حتى في مدارس بيروت وحلب، علماً بأن تأسيس المكاتب الإعدادية في الولايات يعود الفضل فيه إلى السلطان عبد الحميد، أما في العراق وسورية وبيروت، فالفضل يعود للوالي مدحت باشا الذي شجع مديريات المعارف فيها على الفصل بين المرحلتين، لكن القرار الفعلي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني سنة (١٣٠٦هـ/١٨٨٨م)، وعلى الفور افتتح في مديرية دمشق مكتبان، وفي ولاية بيروت مكتبان ثم تلاه مكتب آخر. وبتوالي السنوات بدأ افتتاح المكاتب الإعدادية في مدينة دمشق سنة (١٣١٦هـ/١٩٠٠م) حيث ارتفع العدد إلى (٣٧٠) طالباً[٢].

وقد لوحظ تزايد الطلاب على التعلم بمختلف مراحله، واضطرت مديرية المعارف إلى الإكثار من المعاهد التخصصية مثل: معهد الطب، معهد البيطرة، ومعهد الزراعة، ومعهد الهندسة المسطحة والميكانيك، والمعاهد العليا لتخريج معلمين ومعلمات نظراً لتزايد الحاجة، وقد أسهمت جمعية المقاصد في تقديم مساعدات مالية إلى مديرية المعارف لافتتاح مدارس من مختلف المراحل[٣].

لقد تألف الكادر الإداري للمكاتب الإعدادية سنة (١٣٠٩هـ-١٣١٠هـ /١٨٩١و١٨٩٢م) في المدارس الرشدية قبل افتتاح المكاتب (المدارس الإعدادية)، يساعده رئيس مبصرين عدد /٢/ وموظف دوام وضبط الشغب،

---

(١) فخري البارودي، جزءان، بيروت ١٩٥١-١٩٥٢ ص ٣٠-٣٢.
(٢) سورية سالنامه سي، لسنة ١٣١٢ هـ دفعة ١٦ ص ٣٣٠.
(٣) سورية سالنامه سي، لسنة ١٣١٨ هـ دفعة ١٤ ص ٢٤٥.

وكاتب وخازن كتب، وأمين مستودع، وموظف مبيعات وطبيب، ومهمة الطبيب الحضور يومياً للمحافظة على سلامة طلاب المعهد، كما أن المكاتب (المدارس) الخاصة تتعاقد مع طبيب ليشرف على سلامة طلاب الدراسة الليلية (الداخلية[1])، أما الكادر التعليمي، فيضم ١٦ مدرساً وأحياناً (٢٠) مدرساً، إذا توافر مدرسون متخصصون، وثلاثة موظفين والمدير ونائبه.

لم يقتصر نظام المكاتب الإعدادية على مديرية دمشق؛ بل هو نظام أقرته نظارت المعارف العمومية في استانبول، وعلى مديرية الولاية إعلام إدارة المعارف العمومية التي أوجدها السلطان عبد الحميد بدلاً من نظارت المعارف بالمشكلات التي تواجهها، وحمّل السلطان عبد الحميد الإدارة العمومية للمعارف مسؤولية ضبط المسألة التعليمية في الولايات، وحذرها من ممارسة مضايقات على طلاب المدارس، تخوفاً من حدوث انفلات طلابي، قد يتحول إلى مظاهرات، لهذا كان الطلاب يعاملون معاملة حسنة من قبل الجانب الرسمي في الولاية.

د – المكاتب (المتخصصة) في ولاية دمشق (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م):

لقد اعتادت البلاد العربية منذ العصر النبوي وحتى القرن السادس عشر على التعليم الديني، وقد أدت المدارس الدينية دوراً متميزاً في إعداد كوادر علمية مؤهلة للتأقلم مع كل مرحلة تفرضها الظروف الداخلية والخارجية، وقد تجسد هذا التأهل يوم بدأت الدول بما فيها الدول الإسلامية باعتماد تعليم مدني تماشياً مع العصر وتطوراته، ولهذا كانت نسبة المواد العلمية أكثر من المواد الدينية، كانت أوروبا قد اتجهت إلى التعليم المدني إذا لم نقل العلماني منذ صلح وستفاليا (١٦٤٨م) الذي أنهى حروب الثلاثين عاماً، حيث دفعت أوروبة من جرائها أرواحاً وضحايا وخسائر قد يعجز

---

(١) سورية سالنامه سي، لسنة ١٣١٢ هـ دفعة ١٤ ص ٢٤٩.

العقل عن تقديرها أو القلم عن إحصائها، ومن روائع الطبقة الدينية الإسلامية أنها لم ترتكب الجشع الذي ارتكبته الطبقة الكهنوتية المسيحية في أوروبة، بل كانت عقلانية.

لهذا فإن التطور بكل مناحيه لم يكن انقلاباً على الحياة وواقعها، كما حدث في الغرب والشرق، ولا يخفى أن العقلية العسكرية العثمانية جسدت عبودية قرار الفرد بموجب نظام (اليسا)[1] الذي عاشت القبيلة العثمانية تحت ظلاله وحولت القائد أو السلطان الحاكم إلى تابو ممنوع اللمس، يضاف إليه خنوع العرب لهذه الإرادة الفردية، وانسياقهم خلف الفرمانات السلطانية إلى أن تدخل الأوروبيون رسمياً بإداراتها ومؤسساتها لحماية المسيحيين فيها ظاهرياً وتأمين مصالحها الاقتصادية فعلياً.

ومن الصعب الدخول في تفاصيل المراحل التي سبقت الإصلاحات والتنظيمات لما فيها من شطحات تاريخية ومواقف جمود وخنوع عربي مخيف في ظاهره ومدهش في باطنه ومؤسف في نتائجه.

إن دخول التعليم مجال التطور العلماني القائم على دراسة مواد غير دينية؛ وضع القيمين على محك التجارب، ودفعهم إلى خوض التجربة دون سابق إنذار، وإذا كانت الدولة العثمانية قد واجهت معارضة من رجال الدين لديها، فإن الولايات العربية لم تواجه معارضة بل تقبلاً طبيعياً لهذا التطور، ويعود الفضل في هذا التقبل للمدارس المسيحية التبشيرية وغير التبشيرية حيث عرف الفرد العربي وبخاصة ولاية دمشق وحلب وبيروت مواد غير دينية مثل: علم الحيوان وعلم المسطحات، وهذا لا يعني أن الإسلام كمبدأ وعقيدة لا يعرفها، بل إن جهالة العثمانيين تتحمل مسؤولية ذلك.

---

(١) نظام اليسا، هو النظام الذي وضعه جنكيز خان،وهو نظام سلطة القائد وهو معتمد لدى معظم الشعوب السلجوقية وما تفرع عنهم من قبائل، وقد عمل به العثمانيون حتى عهد التنظيمات، وبصدور الدستور حُطم هذا المبدأ الفردي الدكتاتوري (المؤلف).

١- دار المعلمين:

كانت الدولة العثمانية قد باشرت بافتتاح المكاتب الابتدائية بناء على (فرمان كلخانه خطي (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م)، واستمدت موادها من التعليم الأوروبي وبعضها من مفردات المدارس الدينية الإسلامية والآخر من الحاجة إليها علمياً.

وقد لجأت إلى تأمين الكادر التعليمي لتلك المدارس ابتدائية كانت أم رشدية إلى خريجي المدارس الدينية، وقد واجهت مدارس الولايات العربية مأساة جهل المعلمين العرب للغة العثمانية وجهل المعلمين أصحاب القرار للغة العربية[١].

لقد افتتحت دار المعلمين في ولاية دمشق سنة (١٣١٢هـ/١٨٩٤م)، وكانت مدة الدراسة في هذا المعهد سنتين، وقد ضمت الآتي :

٤٦ طالباً من خريجي المدارس الرشدية.

٤٥ طالباً يحملون شهادتنامه موقعة وممهورة رسمياً[٢].

٢٦ طالباً لا يحملون شهادتنامه، فهم تلقوا علومهم في مدارس ذات صبغة دينية.

وقد اضطرت مديرية المعارف خلال المراحل الأولى لافتتاح دار المعلمين إلى غضِّ النظر عن الشهادة وعن العمر، نظراً لحاجتها إلى التسارع في إعداد كوادر تعليمية للأجيال المقبلة، وقد أقامت توازناً من حيث الراتب بين من يحمل شهاتنامه ومن لا يحملها، كما جمعت وقبلت طلاباً من المدارس القديمة شريطة أن يحملوا ما يدل ويثبت أنهم طلاب في المدرسة، والوثيقة يجب أن تمهر من القيمين عليها (أشخاص - جمعيات)[٣].

---

(١) سورية سالنامه سي، لسنة ١٣١٢، ص ٤٨.

(٢) مجلة التربية والتعليم بدمشق، السنة الثانية، العدد الثاني، ص ١٣٣٨.

(٣) سجلات المحاكم بدمشق، مشوش دفتري رقم ١٤١، ص ٥٢.

وقد اقتصر دور «دار المعلمين» على إعداد معلمين للمراحل الابتدائية، ولهذا كلف المنتسبون إلى دار المعلمين بدراسة المواد التالية:

علم المواليد (نبات، حيوان، معارف، وطبقات أرض)، بلاغة تركية، عربي ورسم، تاريخ عمومي، رياضيات، جغرافية، فرنسي أو إنجليزي، أصول دفاتر، فارسي، خط رقعي(1).

وكانوا في كل سنة يزيدون عدد المواد على طلاب دار المعلمين حتى أصبح عدد المواد التي يدرسها طلاب دار المعلمين يشمل معظم ما يُدرَّس في المرحلة الابتدائية، وكان الخريجون قادرين على تنشئة جيل مثقف؛ لأن المدرسين أصبحوا على دراية بالمواد علمية كانت أم أدبية حتى أن بعض المدرسين كلفوا بالتدريس في المدارس الإعدادية(2).

٢- مكتب الصنائع (الإصلاحخانه):

مكتب دمشق الصناعي: يعود الفضل في افتتاحه إلى الوالي مدحت باشا حيث افتتح في بغداد عدة مكاتب صناعية، وحينما قدم إلى دمشق كوالٍ اهتم بالتعليم وافتتح مكتب الصنائع سنة (١٢٩٦هـ/١٨٧٨م)(3)، ولم يكن بادئ الأمر يملك برنامجاً منظماً، لهذا لم تحدد مهامه ومواده التدريسية، فلقد صرف إلى جميع الأيتام مصاريف إيوائهم وتعليمهم (مبادئ القراءة والكتابة والحساب)، إضافة إلى تعليمهم حرفة معها، يرغب العمل بها مثل الحدادة والنجارة، وتجليد الكتب تجليداً عربياً أو تجليداً عثمانياً، وخياطة، وسبك الحروف، وإصلاح الآلات الميكانيكية، وصناعة الكبريت والصابون وغيرها من الحرف الأخرى.

---

(١) سورية سالنامه سي، لسنة ١٣١٣هـ ص ١٨٦، دولت عثمانية سالنامه س لسنة ١٣٠٤هـ ص ٣١١-٣٢١.

(٢) لطفي، مصدر متقدم، ج٨، ص ٥٥٨ .

(٣) مدحت باشا، مذكرات، مصدر متقدم، ص ١٥٦-١٥٧.

وقد ضمَّ المكتب كادراً تألف من مدير وعضوين ومدير أعمال، وموظف داخلية، ومحاسب، وأمين مستودع، وحراس، وأذنة، ومراقب دوام، كذلك فقد وجد في المكتب (١٢) أستاذاً، وثلاثة مدرسين لتدريس وتعليم المواد التعليمية و١٠ إلى ١٥ معلم مهنة.

وقد أوردت ولاية سورية سالنامه سي أسماء العاملين في المكتب، نوردها نقلاً عنه[١].

أحمد أفندي الشمعة	رئيس الإدارة
علي أفندي دالاتي المدرس	عضواً
عمر أفندي بن طاهر أفندي	عضواً ثانياً
جمال أفندي	مديراً عاماً
إسماعيل حقي	مدير الأعمال
أحمد وهبي أفندي	كاتب
موسى أفندي	كاتب أعمال
علي آغا	موظف داخلية.

وأعضاء الهيئة التدريسية في المكتب هم:

علي رضا أفندي	معلم أول
أحمد أفندي	معلم ثانٍ
حاج يوسف أفندي	معلم خط

أما معلمو الحرف المهنية فهم: صالح أفندي، حسن أفندي، خليل أفندي، سيد سليم، بكر أفندي، محمد أفندي، مصطفى أفندي، يوسف أفندي.

---

(١) سورية ولايتي سالنامه سي، ١٢٩٨هـ ص ١٢٩، وسورية سالنامه سي، سنة ١٢٩٩م ص ٥٢

لقد ضم مكتب الصنائع منذ سنته الأولى (٥٠٠) طفلٍ، غير أن أعداد الأطفال بدأ يتناقص بسبب إهماله بعد مغادرة مدحت باشا لولاية سورية، ففي سنة (١٢٩٨هـ/١٨٨٠م) انخفض عدد الطلاب إلى ٢٠٠ طفل، وبدأت تنخفض أعداد الطلاب المنتسبين إليه لدرجة أنهم أصبحوا في سنة (١٣٠٢هـ/١٨٨٤م) (٩٦) تلميذاً وبعد أربع سنوات أي في سنة (١٣٠٦هـ) ارتفع إلى (٢٨١) طالباً(١).

لقد تحول مكتب الصنائع في سنة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، وهي مرحلة المشروطية الثانية، إلى معهد عالٍ لمن يحمل شهادتنامه، وكانت مدة الدارسة فيه سنتين، ونتيجة إهمال الأطفال الأيتام اقتدى بعضهم بأقرانه السابقين، وبحث من تلقاء نفسه لتعلم مهنة، وقد عُرفت دمشق باحتضانها لهواة المهن الحرة، وهي منظمات لها دستورها الخاص ونظامها لدرجة أن المتعلم فيها يتعرض إلى اضطهاد شديد من معلمه بهدف تلقينه المهنة، وعندما يتأكد من أنه أتقن المهنة، يعطى ورقة (وثيقة) من شيخ الكار (المهنة)(٢).

لم يقتصر افتتاح مكاتب صنائع على مدينة دمشق، فقد افتتح مكتب في حلب وآخر في أورفه ، وثالث في بيروت(٣).

٣- التعليم الزراعي:

أفادت المصادر والوثائق أن حاجة الولاية إلى مختصين تتزايد يوماً بعد يوم، فبوشر بإرسال عدد من الطلبة الشبان ممَّن تخرَّج من المدارس الرشدية إلى فرنسة سنة (١٣٠٣هـ/١٨٨٥م)، ليتعلموا أصول تربية دود القز، وقسم منهم ليتعلم تربية النحل وما شابهها. تم افتتاح مكاتب في دمشق وبيروت، كما

---

(١) سورية ولايتي سالنامه سي، ١٢٩٨هـ ص ١٢٩، وسالنامه سي، سنة ١٣٠٣ ص٢٣٦.

(٢) عبد الكريم رافق، دراسة اقتصادية واجتماعية في بلاد الشام، دمشق ٢٠٠٢ ص ١٣٥.

(٣) دليل بيروت، تقويم الإقبال، ١٩٠٩-١٩١٠م، ص ١١٠-١١١.

افتُتح مكتب آخر في منطقة السلمية سنة (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م) طابعه زراعي، لكنه أهمل ولم يستفد من خبراته ونتائجه[١].

هـ – التعليم العالي في ولاية دمشق (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م):

لم تألُ الدولة العثمانية جهداً إلاّ بذلته لتأمين حياة آمنة لرعاياها من جهة، وتعليمهم وتدريبهم من جهة أخرى، وقد نجحت في ذلك وظلت لقرون تخيف العدو والصديق على حدٍّ سواء، وكلنا يعلم أن فقدان الأمن يسهم في الاضطراب وخلق فوضى لا تبقي ولا تذر، وفي هذه المرحلة لم تكن قادرة على تفهم التعليم الحديث ولا حتى القوانين المدنية، وحينما علمت بذلك، حتى لو كان الأمر استيراداً، طبقت مختلف بوادر التطوير والتحديث[٢].

١– الأوضاع الطبية لولاية دمشق:

لم يكن العرب جهلة في مجال التداوي، فلقد أدوا دوراً بارزاً في تخفيف الآلام ومداواة المرضى، ولكن هذه المداواة لم تكن أكثر من تخمين، ويرجع النجاح أو الصوابية في التخمين إلى بداهة ودهاء هذا الطبيب أو ذاك المداوي، وقد كانت العقاقير والأعشاب هي المادة الأساسية، غير أن البعثات والإرساليات التبشيرية المسيحية، كانت قد تسللت إلى الوطن العربي، وتركز التسلل بالدرجة الأولى على المناطق التي تقطنها غالبية مسيحية، وقد أسهمت تلك الإرساليات في تطوير الطب وطرق المعالجة من خلال افتتاحها للمشافي، غير أن المناطق خارج مدن بلاد الشام (حلب، بيروت، دمشق) ظلت تعيش على تداوي التخمين والأدعية والشعوذة، ولا يخفى أن الشعوذة مادة دسمة ووسيلة سريعة للغنى على حساب آلام ومصائب الناس.

---

(١) محمد جميل الشطي، أحمد شوكت، تاريخ الطب عند العرب في العصور الحديثة، جامعة دمشق، ١٩٦٠ ص ١١ وما بعد.

(٢) اثناسيو، مرجع متقدم، ج ٨ ص ٥٨٧.

وتفيد الدراسات أن الدكتور الأمريكي «يوحنا وريبات» قَدِم إلى حلب سنة (١٢٧٩هـ/١٨٦٢م)، والتقى مع عدد من الأطباء وهواة الطب وألقى عليهم محاضرات لمدة زادت عن ثلاثة أشهر في كيفية كشف المرض وكيفية التداوي والعلائم العلمية التي تشير إلى أن المريض بحاجة إلى عمل جراحي(١).

وقد أسهم عمله في منح عدد من الراغبين بدراسة الطب السعي لدراسته في الكلية الأمريكية التي ستفتتح في سنة (١٨٦٦م) أو الذهاب إلى الآستانة أو مصر أو إلى إحدى الدول الأوروبية(٢).

٢- المكتب الطبي في دمشق (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م):

أشرنا من قبل إلى أن السلطان عبد الحميد الثاني أظهر اهتماماً زائداً بولاياته ولاسيما العربية منها، وقد أدرك من خلال التقارير المقدمة إليه ضرورة افتتاح مكاتب للطب لتدريس الشبان على احتراف مهنة الطب بهدف مداواة المرضى، ففي سنة (١٣١٩هـ/١٩٠١م) أصدر فرماناً سلطانياً يقضي بإنشاء مكتب طبي في مدينة دمشق، وكان السلطان عبد الحميد قد أمر بإنشاء مشافٍ في استانبول ودمشق وطرابلس الغرب، سماها «مشفى الغرباء» ومكانها في دمشق حالياً بجوار رئاسة جامعة دمشق، وكان المشفى للعسكر، لكنه سمح للرعية بالتداوي فيها، كما أمر بتأمين الأدوية اللازمة للمصابين بمرض عضال.

ولم تكن معارف مدينة دمشق قادرة على تأمين بناء مناسب لطلاب الطب، ولهذا تم استئجار شقة (جناح) من بناء «زيور باشا» الكائن في منطقة الصالحية حيث تستقر الغالبية الحاكمة والمقربة من استانبول.

---

(١) لقد عمل يوحنا وريبات مدرس في الكلية الأميركية السورية وبعد تخرجه عاد ليعمل في الكلية الأمريكية في بيروت كمتخصص في علم التشريح والفيزيولوجيا. جرجي زيدان وتراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر جزءان، مطبعة الهلال ١٩١٠م، ج ٢ ص ٣٦٥ وما بعد.

(٢) مجلة المقتبس، المجلد الثاني لسنة ١٨٩٧م ص ٦١١ وما بعد.

اشترطت مديرية المعارف على الطلاب الراغبين بالالتحاق بالمكتب الطبي ضرورة الحصول على شهادة الإعدادية، لكن الحاصلين على الشهادة الإعدادية قلة، فاضطرت لقبول من يدرس في الصف الأول للمدرسة الإعدادية التركية أو في مدرسة خاصة معترف بها رسمياً من قبل نظارت المعارف العمومية، شريطة نجاح الراغبين في امتحان القبول الذي تحدده المديرية للراغبين.

انتسب إلى المكتب الطبي خلال افتتاحه سنة (١٣١٩هـ/١٩٠١م) أربعون طالباً، وبما أن لدمشق تراثها الطبي المنظم والشعبي، فقد بدأ أعداد طلاب المكتب يزدادون سنة بعد سنة إلى أن زادت سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م عن ٥٤٠ طالباً، وكان الخريجون منه يمارسون مهنة الطب في المشافي الرسمية التي بنيت سابقاً ومشفى الغربا(١) التي أمر السلطان ببنائها.

حددتْ مدة الدراسة في المكتب الطبي بست سنوات، والسنةُ الأولى منها تحضيرية، وفي السنة الخامسة والسادسة يكلف طلاب الطب بالذهاب إلى المشافي لممارسة المهنة ميدانياً. وقد درَّس في المكتب عدد من الأساتذة الأوروبيين والأتراك العثمانيين والعرب.

ومن المواد التي كانت تدرَّس في المكتب المواد الآتية:

- الصف الأوَّل: والتحضيري: يدرس عمومية المواد الطبية، مثل الأدوية بأنواعها، اللغات (إنجليزي، فرنسي، عثماني) علم الحيوانات، أنواع الجراثيم.
- الصف الثاني: الحكمة الطبيعية (طبيعة الحكمة)، علم الأرض والمعادن، كيمياء عضوية وغير عضوية، فن العمليات، علم النبات، (إنجليزي، فرنسي) عربي باللهجة العامية.

---

(١) مشفى الغربا، بناها السلطان عبد الحميد من ماله الخاص، وأعد لها صيدلية، وكانت مؤلفة من طابقين ضمت أكثر من ٨٠ سريراً، وأعدّ لها طواقم إدارية وطبية، وقد اتخذت مقراً لرئاسة جامعة دمشق حالياً.

- الصف الثالث: لغات أجنبية (فرنسي، إنجليزي، عثماني)، علم التشريح، وتشريح مرضي فيزولوجي، عربي، علم الأخلاق.
- الصف الرابع: مفردات الطب، حفظ الصحة، أمراض عمومية (داخلية وأطفال)، أمراض خارجية (عصبية، سريريات، جلدية).
- الصف الخامس: إضافة إلى ممارسته الطب ميدانياً، مواد عينية، ومواد أذنيه.. وحنجرة.
- الصف السادس: إضافة إلى ممارسته الطب ميدانياً، عمليات جراحية، مداواة، ضغط شرياني، نوبات قلبية مفاجئة، وما شابهها مثل: المصطلحات العلمية، وعلم الأدوية.

يشترط على الخرّيج من المكتب الطبي: الهدوء، وحسن الاستماع، والابتسامة مع مرضاه، وحلاوة اللسان، والنجاح في أعماله في المشافي[١].

وهكذا يتضّحُ أن ولاية دمشق كغيرها من الولايات قطعت أشواطاً بعيدة في تطوير العلم وتحديثه نظراً لتوافد الطلاب على المدارس بمختلف مراحلها، فضلاً عن ذلك فإن مميزات الخريجين وتوافر فرص العمل لهم بعد تخرّجهم شكلت دافعاً قوياً وبخاصة أن الأوضاع الاقتصادية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت خانقة نتيجة للصراع الدائر في استانبول بين الدينيين برئاسة السلطان عبد الحميد الثاني والعلمانيين برئاسة جمعية الاتحاد والترقي[٢].

إن خدمات السلطان عبد الحميد للولايات العربية كانت كبيرة جداً، وكان يولي ولاية دمشق أهمية أكثر من غيرها، ولهذا فقد نال تأييداً شعبياً؛

---

(١) Topal mcisefer. mektep topiye sistemi, Istanbul.1989.S.175.

(٢) اتخذت جمعية الاتحاد والترقي شعاراً (الحرية الإخاء والمساواة) وهو شعار الماسونية وهو شعار الثورة الفرنسية أيضاً، وقد بدأ الاتحاديون يرددون شعارات مليئة بالحقد على العروبة والإسلام، كما اتخذوا مصطلح الطورانية تيمناً باسم الجبل (التو نطاع) جبل الذهب، الذي يعده الترك التورانيون بلادهم الأصلية.

لأنه تمسك بالدين في حين كانت جمعية الاتحاد والترقي قد التزمت بالجانب العلماني المناهض للدين من جهة والطوراني من جهة أخرى[1].

استمرت المسيرة العلمية في ظل السلطان عبد الحميد الثاني بتطوير التعليم، ففي السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر أمرت نظارت المعارف بتنظيم شؤون المؤسسة العلمية في الإمبراطورية، وذلك انسجاماً مع متطلبات العصر وتأمين خريجين ناضجين.

ومن الإجراءات التي اتخذت على صعيد المسألة التعليمية، إجراءٌ تجسد في إلغاء مرحلة الرشدية، وضمت إلى المرحلة الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، مرحلة التعليم العالي.

كذلك فقد أحدثت مدارس الإعدادية سميت (بالسلطانية) وحددت الدراسة فيها اثنتي عشرة سنة، وذلك على النحو الآتي[2]:

السنوات الخمس الأولى: تقتصر على التعليم الابتدائي.

السنوات السبع الباقية تقسم إلى دورتين:

- دورة تمتد أربع سنوات
- دورة تمتد ثلاث سنوات وتتفرع هذه الدورة إلى:

أ - فرع الفنون

ب - فرع الأدبيات

وصدرت إرادة سلطانية بإلغاء دار المعلمين القديمة، واستعيض عنها بمدارس حديثة قائمة على أسس جديدة، كما زاد الاهتمام بمدارس البنات وأنشئت دار للأيتام[3].

---

(١) السلطان عبد الحميد، كان ومازال متهماً من قبل العثمانيين اتهامات كثيرة، غير أن الكثير من العرب أحبوه لأسباب يرونها كافية لمحبته والإعجاب به.

(٢) النشرة العثمانية الصادرة عن نظارت المعارف، استانبول لسنة ١٣٠١هـ دورة السادسة عشرة.

(٣) أحمد سامح الخالدي، أنظمة التعليم في بيت المقدس١٩٣٣ م، ص ٣٥٧.

عمدت نظارت المعارف العمومية إلى إضافة مواد تدريسية لبعض المراحل، مثل الموسيقا والأعمال اليدوية وتدريس اللغات الأجنبية، وأضيف التدريب العسكري إلى جميع المدارس في السنوات الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وسيطرت جمعية الاتحاد والترقي على صياغة القرار كمحاولة من السلطان عبد الحميد لكسب ودِّ الجمعية.

٣- مصروفات التعليم في مديرية معارف دمشق:

تعرض التعليم في ولايات الدولة العثمانية إلى تبدل في المنهج والمواد والشهادات تبعاً للمستجدات التي تفرضها المسألة العلمية المرتبطة بتحول ديوان المعارف العمومية إلى نظارت المعارف العمومية سنة (١٢٥٣هـ/١٨٤٧م)، وتضمن التحول الإداري جمع المخصصات الأميرية والإعانات السنوية التي يتبرع بها الأهالي والإعانات المتفرقة وتسليمها إلى صندوق نظارت المعارف؛ لأن الدولة العثمانية غير قادرة على تأمين الأموال اللازمة لتحويل نظارت المعارف العمومية إلى مراقبة التعليم وتحسين أوضاعه.

لم يكن بإمكان نظارت المعارف صرف (٩٠٠) قرش كل شهر إلاّ بعد موافقة مجلس شورى دولت، وقد تمت الإشارة إلى تلك المصروفات سابقاً، لكن هذه المصروفات ازدادت بانهيار العملة العثمانية من جهة، وبازدياد عدد المدارس والمدرسين، من جهة ثانية ازدادت المصروفات في دمشق من ٤٢% إلى ٤٨% بمبالغ زادت عن ٢٢ مليون قرشٍ، بعدما كانت بالآلاف، وقد أسهم الدمشقيون وجمعية المقاصد في بناء مدارس بجهود محلية، وفي مرحلة المشروطية الثانية (١٩٠٨م)، انفصلت مديرية معارف دمشق عن نظارت المعارف العمومية في استانبول، وأصبحت مديرية معارف دمشق مسؤولة عن المدارس التابعة لها في المركز والألوية والأقضية والنواحي، لكن القرى ظلت حتى الأربعينيات من القرن العشرين تعيش حالة جهل مدقع.

استنتاج الفصل الثالث

اتسمت الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر باضطراب في فرمانات سلاطين الإصلاحات والتنظيمات، وقد اعتاد السلاطين العثمانيون على إصدار فرمانات معاكسة تماماً لفرمانات أسلافهم، وهذا ناتج عن أن بطانة كل سلطان تمتاز عن بطانة السلطان السالف بأنها تحمل مضمون التراجع والتقهقر حيناً والتجديد أحياناً أخرى، وهذا بحدّ ذاته مرتبط بوالدة السلطان والدولة المنتسبة إليها زوجه.

لسنوات بل لعقود ظلت إمارة البندقية صاحبة القرار داخل القصر، لأن زوج السلطان الحاكم كانت من الولايات الإيطالية التي امتازت بناتها بشدة الولاء لبلدانهم الممزقة منذ (٤٧٦م).

تربى السلطان سليم الثالث على يد أمه التي علَّمته اللغات، لكنها لم تكن مدعومة من دولتها التي قدَّمت لها امتيازات في عهد ابنها السلطان سليم الثالث؛ لكن رأسه قُطع لمحاولته تنفيذ الإصلاح الشامل لبلاده، رغم أنه لم يتمكن من القضاء على الإنكشارية، وتلاه مصطفى الرابع، ثم وصل إلى العرش السلطان محمود الثاني، الذي شجعته والدته الفرنسية إيميه، على الإصلاح من خلال الانتقام من الإنكشارية، التي قطعت رأسي سليم الثالث ومصطفى الرابع، وإذا لم يبادر، فرأسه سيكون الرأس الطائر عن جثته بسيوف الإنكشارية، فتفرّغ للإنكشارية، ورتبت فرنسا فرصة ضربها وذلك سنة (١٨٢٦م) قبل موقعة نافارين لتؤكد هزيمته وواليه محمد علي.

إذا كانت هزيمة يلدرم بايزيد أمام تيمورلنك سنة (١٤٠٢م) وشماتة زوجه نيلوفر به وهو في قفصه الحديدي أدتّا إلى موته قهراً، لذا قرر الأتراك العثمانيون عدم الزواج من الحرائر وباشروا الزواج بالمستوردات الأجنبيات من مسيحيات ويهوديات، وحرمت النساء المسلمات من الزواج بأي سلطان من سلاطين آل عثمان، كذلك فإن الإطاحة بالإنكشارية الذين تجرؤوا على القوانين حيناً وعلى أصول الشريعة أحياناً أخرى، قد هددت العرش العثماني أكثر من مرة، فالسلطان محمود الثاني تجاهل رجال الدين الذين قبضوا على زمام الدولة بشكل محكم لأكثر من أربعة قرون، وجاء ابنه عبد المجيد الذي تجاهل العثمنة بكاملها، فأصدر قوانين مترجمة عن الفرنسية، وأيده الإنكشاري فؤاد باشا، وهو مسيحي من اليونان، أعلن إسلامه في عهد السلطان سليم الثالث، فأصدر كلخانه خطي، وحينما أدرك أنه غير قادر على تفتيت العقلية العثمانية، لجأ لاستصدار شريف همايون خطي سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م)، فدمَّر المؤسسة التعليمية القديمة، وخلق بنية علمية جديدة، لكن المنية وافته.

وخلفه السلطان عبد العزيز الذي أدرك أن تبذير الأموال على المؤسسات كافة قد يوصل التنظيمات إلى تطوير يخرجها عن إرادته السلطانية، وهذا ما أراده، جاء السلطان عبد الحميد الثاني سنة (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، ولأن عرشه كان مضطرباً، بدأ بإشغال خاصته بقراراته لتطوير التعليم وتحديثه، إلا أن جمعية الاتحاد والترقي تجاهلت إصلاحاته، ونظمت تجمعاً سياسياً سمته الاتحاد والترقي، إزاء ذلك لجأ السلطان إلى مجاملة العرب معتقداً أنهم قد يساعدونه في الوقوف إلى جانبه، وكان الأتراك الجدد يدركون متانة مؤيديه العرب، إلا أن تزايد المدارس وإيجاد التعليم العالي والمكاتب الزراعية والطبية، زادت من شدّة الحملة عليه، خاصة أنها مدعومة من الصهيونية العالمية التي

أدركت أن السلطان عبد الحميد الثاني لن يؤيدها ويمنحها ما وعدتها به بريطانيا سنة (١٩١٧م).

وفي ضوء ذاك الصراع المحموم والتسابق على التقرب من الأهالي كسبت مديريات المعارف الكثير من التطور القسري من قبل عبد الحميد رغم حاجتها إليه، وأيقن السلطان أن هذا الإصلاح قد يثمر ويخلد اسمه في مجال التعليم، والحق يقال إن السلطان عبد الحميد لم يترك نافذة إصلاح تعليمي ولا إداري إلا وقدمها لبلاده أولاً ثم للولايات العربية ثانياً، وهذا عمل جيد أسهم في تطوير مديرية معارف ولاية دمشق، ومنحها القوة للسير بكوادرها وتلاميذها وموظفيها، وعندما احتدم الخلاف بين العرب والعثمانيين الذين أفشلوا أول محاولة وحدوية قام بها العرب في مؤتمر باريس سنة (١٩١٣م)، غدت الحرب الإعلامية بين الطرفين علانية ولاسيما بعدما طُرد عبد الحميد من عرشه، وعُين أخوه محمد رشاد الذي حبس في الغرفة الحديدية من قبل السلطان عبد الحميد مدة (٢٩) سنة.

الفصل الرابع

الأنظمة والقوانين في مديرية معارف دمشق ومدارسها

(١٢٧٨-١٣٢٧هـ/١٨٦١-١٩٠٩م)

١- تطبيق قانون المعارف لسنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م).

٢- أنظمة المدارس الرسمية والأهلية (الخاصة) .

٣- شروط افتتاح مدارس رشدية وإعدادية .

٤- شروط قبول المدرسين للتعيين .

٥- واردات المدارس ونفقاتها .

٦- رواتب المعلمين والموظفين العاملين في مديرية المعارف بدمشق .

٧- التعليم الخاص في ولاية دمشق (١٢٧٨-١٣٢٧هـ/١٨٦١-١٩٠٩م) .

٨- المدارس الأجنبية في ولاية دمشق .

- استنتاج الفصل الرابع .

مُقدِّمة

تفرّد سلاطين الدولة العثمانية بالقرار، وأرغموا من حولهم على الدوران في دائرة رضاهم، وإذا كانوا قد أحالوا صياغة القرار إلى الباب العالي، (الصدر الأعظم)، فإن الصدر الأعظم كان صورة طبق الأصل لوحدانية القرار والتفرد به، ولهذا قلما تجرأ والٍ على التلكؤ في تنفيذ ما يصدر عن استانبول حتى لو كان كبير البوابين، لأن مسؤولي استانبول مهما كانت مسؤوليتهم، فهم يمثلون السلطان.

لقد دأب العثمانيون على عدم التساهل في تنفيذ قرارات سلاطينهم، وفي الوقت نفسه فقد قسَّموا العثمانيون إدارة مؤسساتهم وحمّلوها مسؤولية العبث بأنظمتهم، فالمؤسسة الإسلامية التقليدية تحملت مسؤولية التعليم الذي يبدأ بالمدرسة، وقد نظمت هذه المؤسسة كيفية التحاق الطالب (التلميذ) بالمدرسة ليحقق هدفه في تحصيل العلم الذي كفلته الدولة له، ولكن حالما يحصل على شهادتنامه عليه أن يشتغل في إحدى الوظائف الدينية أو التعليمية أو القضائية أو غيرها من المسؤوليات والمناصب التي أُهّل لها وبحسب شهادته العلمية.

صحيح أن الشهادة والمقررات العلمية كانت مضطربة، إن لم نقل عشوائية، ولم تنظّم إلاّ في العقد الأخير من القرن السابع عشر، حيث حددت المقررات والدرجات، علماً بأن القرن السابع عشر عُرف بمرحلة الضعف، واختلطت شؤون الدولة، وكادت أن تفقد بوصلة الإدارة لولا وجود سلاطين أقوياء نسبياً حاولوا المباشرة بإصلاح جزئي، بحيث لا يثير حفيظة الإنكشارية والحرس القديم الذي كان يثور إذا حاول ولاة الأمر إحداث تغيير جوهري في بنية الدولة.

وعند قراءة الروزنامات المتراكمة بكثافة في دور الأراشيف العثمانية والعربية، نجد دفاتر كان يشرف عليها قضاة العسكر، الذين أنيطت بهم مسؤولية مسك الدفاتر بموجب القانون الذي أصدره السلطان محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ/١٤٥١-١٤٨١م) والسلطان سليمان القانوني (٩٢٧-٩٧٤هـ/١٥٢٠-١٥٦٦م) حول إدارة فئة أهل العلم من حيث تسجيل التعليم بمختلف مراحله، وتعيين المدرسين أو عزلهم أو ترقيتهم وزيادة رواتبهم أو نقلهم من مرحلة إلى مرحلة، وقد عدّت الروزنامات المراجع الرئيسة للتعليم وللكتب، وقد جمعت في مكتبة نور العثمانية بدءاً من الرقم ١٨٦ وحتى الرقم ٣٦٧٨ فضلاً عن السجلات الموزعة في استانبول في محاكمهم الشرعية، وتحتوي المحكمة الشرعية في دمشق على كمٍّ هائل من الوثائق لو درست لأميط اللثام من الحقائق الموثوقة بدلاً من التخمين بوجودها.

أشرنا في مواضع كثيرة من الكتاب إلى أن العثمانيين منحوا أرباب القلم المنخرطين بين صفوف العسكر امتيازات لم تحظَ بها طبقة أو جهة حتى العسكر لم يحظوا بها؛ لأن العثمانيين عدّوا العلم الخطوة الأولى والرئيسة في بناء الدولة، ويمكن معرفة حجم الامتيازات الممنوحة لهم من الضرائب والجزاءات والامتيازات الممنوحة لأبنائهم.

أسس العثمانيون نظام الملازمة وهي القاعدة الأساسية التي أوجدت التشكيلات للهيئة العلمية، ولفظة «ملازمة» تعني الارتباط أو المداومة على تنفيذ عمل معين أنيط بشخص ما أو هيئة أو مجموعة[1].

وبموجب نظام الملازمة تمّ تسجيل المقبولين في الملازمة في دفاتر خاصة بها سمتها المصادر (دفاتر روزنامجي قاضي عسكر)، وكما ذكر سابقاً

---

(١) أكمل الدين إحسان أوغلو، الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح السعداوي، استانبول ١٩٩٩ ج١ ص ٢٨٧.

فقد تقاسم مسؤوليتها قضاة العسكر خلال القرن السابع عشر، وفي العقد الأخير من القرن الثامن عشر قاسمهم مشايخ الإسلام هذه المسؤولية، ولهذا بدأ بعض رجالات العلم من خارج المؤسسة التسلل إليها عن طريق الرشوة والمحسوبية، وقد أسرف قضاة العسكر ومشايخ الإسلام كثيراً في ترهّل المؤسسة العلمية، حين كان الأتراك يعتزون بتماسك المؤسسة العسكرية وسلامة ونجاح المؤسسة العلمية، ويشير إحسان أوغلو في مؤلّفه إلى أن نظام التعليم عند العثمانيين وضُعت له أربعة أنماط أولها:

- الأندرون[1]، وفيه يتم تعليم وتنشئة الكوادر الإدارية للدولة العثمانية، وهذا الباب هو الذي عمّق تأثير الكتبة والعاملين في النظام البيروقراطي.
- الأقلام أو الدوائر الحكومية جوهر البيروقراطية خلال القرن السابع عشر.
- القضايا التي أعدت لإعداد الدراويش وتربيتهم وتنشئة المتصوفة.
- نظام المدرسة الذي يتولى مسؤولية تنشئة رجال العلم، بمصطلح القرن التاسع عشر، وتعد مدرسة "إزنيق" التي أنشأها الغازي أورخان نقطة بداية تشجيع نظام الأوقاف حيث اعتمدتها الدولة في سياستها التعليمية.

اعتمد العثمانيون بحسب واقع تلك المراحل على التعليم التقليدي، لكنهم وضعوا أسساً لتنشئة أجيال تدرس وتُدرّس، ووضعوا شروطاً لانتقاء المدرسين منذ القرن السادس عشر، وإذا حدث خلل آنذاك في اختيار المدرسين، فهذا يعود إلى سببين:

---

(١) الأندرون Enderun اسم أطلق على باب السعادة الذي يعد الباب الثالث من أبواب القصر العثماني (قصر + طوب قابي Top Kapi Saray) ويشمل: غرفة العرض، والغرفة الكبيرة، والخزينة الهيمايونية، والمستودعات، وغرف الأمانات المقدسة، والمطبخ السلطاني، ومنه يمكن الدخول إلى الحرم السلطاني، وكان يقف على الباب الذي يصل إلى الحرم السلطان خصيانه الذين امتازوا بالبأس والقوة وطول القامة وهم غلاظ أشداء للمزيد:

- Midhat sertoglu, Resimliosmanli tarihi, Ankara.

أولهما: قلة الخريجين من المدارس بكل اتجاهاتها من عسكرية ودينية وتكايا وزوايا.

ثانيهما: الحاجة الماسة لهؤلاء الخرّيجين؛ لأن معظم المدارس آنذاك كانت تفتقر إلى معلمين، فالأطفال من مختلف الأعمار تتوافد إلى طلب العلم دون حسبان النتائج أو العواقب، وعندما تزايد عدد الخرّيجين لجأت الدولة إلى تطبيق شروط الانتقاء والاختيار بموجب امتحان يعقد ضمن المساجد الكبرى، مثل جامع الفاتح، وجامع السليمانية، ويحضره قاضي الروميلي، والقاضي العسكري، وتؤكد دفاتر روزنامجي أن المحسوبية ظلت المعيار الرئيس لاختيار المدرسين، فضلاً عن الرشوة وما شابهها من مخالفات أساءت إلى التعليم، وظل الأمر يسري في كيان الدولة حتى تنفيذ التنظيمات، وإنشاء نظارت معارف وإدخال العلم الحديث إلى المؤسسة التعليمية، وإقصاء شيخ الإسلام عنها، وإسناد أمرها إلى الخريجين الذين تلقوا دروسهم وعلومهم في الخارج، والفضل في إعداد هذه الكوادر يعود إلى سلاطين النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومن أبرزهم السلطان محمود الأول (١١٦٨-١١٨٨هـ/١٧٥٤-١٧٧٤م) والسلطان عبد الحميد الأول (١١٨٨-١٢٠٤هـ/١٧٧٤-١٧٨٩م) والسلطان سليم الثالث (١٢٠٤-١٢٢٢هـ/١٧٨٩-١٨٠٧م). وبصدور فرماني كلخانه خطي وشريف همايون خطي ألغيت الكثير من التجاوزات، وتصدرت الكفاءة والجدارة شروط انتقاء المدرسين المعلمين، كما ألغيت المدارس التي لا تتوافر فيها الشروط التي نصّ عليها نظام المعارف[1].

لم تكن مدارس دمشق، سواء المذهبية أو المدارس الخاصة التي بنتها شخصيات مسؤولة أو أعيان أو رجال برٍّ، أفضلَ مما كانت تعانيه مدارس الدولة

---

(١) هذا خارج عن نطاق بحثنا هذا، ولذا ندرس أنظمة مديرية معارف ولاية دمشق وقوانينها من خلال أنظمة وقوانين نظارت المعارف العمومية لمقاربة الحقيقة والالتزام بالنهج العلمي الذي تعهدنا السير بموجبه (المؤلف).

العثمانية، ويمكن القول: إن المدارس العثمانية كانت تخضع لرقابة صارمة من قبل قضاة العسكر من جهة وشيخ الإسلام من جهة أخرى، أما مدارس دمشق فرقابتها، إن وجدت، ضعيفة وغير مؤهلة لأسباب يصعب تعدادها، فضلاً عن ذلك فهي تابعة لقضاة العسكر ومشايخ الإسلام، ولا يمكن لها أن تتصرف بما يحلو لها أو كما شاءت، لهذا من الخطأ دراسة واقع مدارس مديرية المعارف في ولاية دمشق بمعزل عن تعليمات استانبول وتوجيهاتها سواء قبل التنظيمات أو أثناءها، ويجوز دراسة ذلك بعد مؤتمر باريس سنة (١٩١٣م).

١- تطبيق قانون المعارف لسنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م):

لقد هيأ شريف همايون خطي (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م)، لإدخال الدولة العثمانية في عهد جديد، ولاسيما أن الفرمان الهمايوني صدر عقب انتهاء حرب القرم، حيث تخلص العثمانيون من تهديد الروس، أما بشأن تزايد نفوذ الفرنسيين والإنجليز في شؤون الدولة العثمانية فهذا أمر يطول شرحه.

إن الساسة العثمانيين يدركون جيداً أن الفرنسيين والإنجليز لا يطمعون في استانبول وأنقره وبقية المدن العثمانية، بل يطمعون بممالك الدولة العثمانية أي (الولايات العربية) بالتحديد، بعكس أطماع الروس التي تتركز على استانبول بالتحديد لأنها ملك للروم الأرثونكس والروس هم الأحق بورثة الروم[1].

أكدت الوثائق العثمانية أن فرمان كلخانه خطي (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) لم يُقدِّم للعثمانيين أي امتيازات، وإنما الذين استفادوا منه هم المسيحيون، ولولا أن معاهدة باريس سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٦م) نصّت على خضوع الإصلاحات في الدولة العثمانية لرقابة الدول الأوروبية لما شهد التعليم بكامل مؤسساته وكوادره ما شهده من تقدم وتطور[2].

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء، مجلس والا رقم ١١ ص ٧.

(٢) جودت، مصدر متقدم، ج ٩ ص ٥١٧.

إذا كان المسلمون قد افتتحوا مدارس خاصة بهم، اقتداء بغير المسلمين الذين أجاز لهم القانون حرية الثقافة وحرية افتتاح المدارس، فإن مدارسهم لم تنجح لأن رقابتها الدينية شلّت نشاطها وحدّت منه كثيراً، وواقع الأمر أنّ العثمانيين رغم صدور الفرمانات الإصلاحية، كانوا يدركون حاجتهم لتطوير مؤسساتهم العلمية، وذلك بإنشاء مؤسسة معارف مركزية، لكن هذه المؤسسة ليست مؤهلة للقيام بتلك المهمة؛ لأنها لن تحظى باهتمام الديوان الهمايوني، فرئيسها لا يحق له حضور جلسات الديوان الهمايوني، فتقرر في سنة (١٢٧٤هـ/١٨٥٧م) إنشاء نظارت المعارف العمومية بتوجيه من مجلس الوكلاء(١).

إن إنشاء نظارت المعارف العمومية رسمياً، عُدّ أول خطوة فعلية بتحديث التعليم وتطويره وذلك على النمط الأوروبي، وبهذا الصدد يقول لطفي أفندي في مؤلفه (إنها نظارت أنشئت لتعليم الفنون الغربية، والعلوم العقلية الجديدة، والفنون النافعة للصناعة والتجارة الرسمية، كما تتطلب الحاجة)(٢).

لم يعد بمقدور السلطان عبد العزيز، الذي ورث أخاه السلطان عبد المجيد، مقاومة فساد المؤسسة التعليمية التي ظلت أكثر مؤسسات الدولة تخلفاً وابتعاداً عن ركب الإصلاح الذي يعم الدولة، فلجأ في سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م إلى إصدار قانون المعارف كأفضل حلّ ينهي هذه التجاذبات بين رجال الإصلاح ولاسيما التعليم المطبّق من قبل قضاة العسكر بالتقاسم مع مشايخ الإسلام، وأبرز ما ورد فيه :

ما يخص التعليم وإلغاء مؤسسات المعارف المركزية، وكما ذُكر سابقاً بأن مديرها وبحسب نظام الديوان الهمايوني لا يحق له حضور جلساته، وهذا

---

(١) معظم المؤرخين يعلمون هذه الحقيقة، ولكنهم يبتعدون عن ذكرها، لأسباب خاصة بهم (المؤلف).

(٢) Ahmet lutfi, tarihi lutfi, Istanbul.1913.S.537.

يعني أن هذه المؤسسات لن تحظى بتنفيذ طلباتها أو توصياتها، واستعيض عنها بما يلي:

- نظارت المعارف العمومية، وبذلك يخصص لها ميزانياتها وكوادرها التي تهيؤها كنظارت مسؤولة عن إدارات داخل مركز الدولة وخارجها.
- مجلس المعارف الكبير: ويضم: مدراء المعارف في الأناضول والروميلي واستانبول وبورصه وإزمير، إضافة إلى ممثل مسيحي وأربعة أعضاء دائمين، اثنان منهم عن المسلمين واثنان عن المسيحيين، وكاتب ومفتش وأمين صندوق، وهناك أعضاء غير دائمين يتراوح عددهم بين أربعة أعضاء وعشرة أعضاء من مسلمين ومسيحيين، وذلك بناء على تقرير ناظر المعارف العمومية المقدم إلى السلطان(١).

أبرز مهام مجلس المعارف:

- تنفيذ قرارات نظارت المعارف، والتأكد من تطبيق أسس التعليم.
- تطبيق نظام المعارف في الولايات.
- الإشراف على ميزانية المعارف بالولايات.
- التفتيش على المدارس ومؤسسات المعارف في الولايات.
- إصلاح أحوال المعارف في الولايات، وإجراء ما يلزم، وتقديم التقارير اللازمة عن هذه الأعمال إلى نظارت المعارف(٢).

أدرك السلطان عبد العزيز عندما أصدر قانون الولايات (١٢٨١هـ / ١٨٦٤م) أن التعليم في الولايات التابعة للدولة العثمانية ظل

---

(١) للمزيد، يمكن مراجعة فرمان شريف همايون خطي وما تضمنه من توصيات، قسم الملاحق.

(٢) جودت، مصدر متقدم، جلد ٥، ص ٤٤-٤٦.

كما كان قبل التنظيمات، وأن هذه الولايات تعيش حالة جهالة قاتلة، وأن خطباء المساجد والجوامع أشاروا في خطبهم إلى أن المدارس لم تتطور وأن القضاة رفعوا تقارير بذلك إلى استانبول، ولمّا كانت نظارت المعارف لم تمنح صلاحيات واسعة، فقد ظلت عاجزة إزاء الولايات، لذلك أصدر السلطان عبد العزيز قانون الولايات[١]، وأمر بتوسيع صلاحياته ليتمكن من تأمين ما يلزم الولايات من أبنية وكوادر تدريسية، وبناءً عليه اتخذ المجلس إجراءات عدّة، أهمها:

١- تعيين مدير للمعارف في الولايات وحتى استانبول.

٢- تشكيل مجلس معارف مصغر في الولايات، مهمته مراقبة العملية التعليمية والتأكد من توافر الكوادر التدريسية بشكل منظم في كل ولاية من ولايات الدولة.

٣- تعيين مفتشين، مهمتهم القيام بجولات فجائية على مدارس يختارها المفتشون، وعليهم تقديم تقرير عن جولاتهم التفتيشية[٢].

وبالرجوع إلى النشرة العثمانية الصادرة عن نظارت المعارف، تبين أن اللجنة التفتيشية قدمت إلى حلب في السابع عشر من شهر شباط سنة (١٢٧٦هـ/١٨٥٩م) وتجولت على مختلف المدارس المفتتحة في ولاية حلب، ورأت أن مدارس حلب منظمة من مختلف النواحي مقتدية بالمدارس المسيحية البالغ عددها /١٦/ مدرسة لمختلف البعثات التبشيرية وقد أوصت اللجنة بالتدقيق في الكتب التي تدرّسها مدارس البعثات التبشيرية[٣].

---

(١) Aziz beker, turkiyede bir kogrtim, Ankara.1945.

(٢) هاووتش، مرجع متقدم، ص ١١٨.

(٣) تقرير اللجنة المنبثقة عن مجلس المعارف، سجلات المحاكم الشرعية، دمشق، حلب، استانبول رقم ٣٦ و٣٣ و٤٠ لسنة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩ م.

وفي العاشر من آذار وصلت دمشق، وجالت على مختلف المدارس القائمة في المدينة، وذكرت أن المدارس الخاصة ومدارس الجمعيات الدينية والخيرية لا تمتلك المواصفات الحديثة، وهي ما تزال تدرّس على الطرق التقليدية القديمة، وقد أوصت بإغلاق بعضها، غير أن نفوذ أصحاب العلم كان أقوى من توصيات اللجنة(١).

ومن مهام مجلس معارف الولايات:

ضرورة إعداد سجلات خاصة بكل مدرسة يدوّن فيها أسماء طلاب المدارس ودرجاتهم النهائية في الامتحان، ولا يحق لإدارة المدرسة منح وثيقة في منتصف السنة، وعليها مراجعة مديرية المعارف في الولاية والحصول على موافقة ممهورة ومختومة أصولاً ويحتفظ بها ضمن وثائق المدرسة(٢)، كذلك فقد قسَّم نظام المعارف المكاتب الرسمية أو العمومية إلى:

١- مكتب للصبيان مدة الدراسة فيه أربع سنوات

٢- مكتب الرشدية ومدة الدراسة فيه أربع سنوات

٣- المكاتب الإعدادية مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات

٤- مكاتب سلطانية، مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات، ولم نعثر في الولاية على مكاتب سلطانية، وبحسب الوثائق فإن هذه المكاتب كانت وقفاً على استانبول ولأبناء الأعيان وتحديداً ممن ينحدرون من أصول تركية.

٥- المكاتب العليا وتنقسم كبقية المدارس إلى مدارس للمسلمين وغير المسلمين(٣).

---

(١) جودت، مصدر متقدم، ج ١٠ ص ٣٧.

(٢) هاووتش، مرجع متقدم، ص ١٣٥.

(٣) تحدثنا السالفاً عن تلك التقسيمات في عهد سلاطين بني عثمان في الفصول الالسالفة.

إن الخطوات التي بدأها مجلس المعارف العمومية أسهمت في وضع المدارس أمام واقع عملي، لا مجال فيه للتخمين وبخاصة بعدما أمرت مديرية المعارف في ولاية دمشق باعتماد دفاتر خاصة بكل مدرسة ممهورة ومختومة ومرقمة من قبل مديرية المعارف للولاية(١).

٢- أنظمة المدارس الرسمية والأهلية (الخاصة) في دمشق:

عرضنا سابقاً ممَّ تتشكل إدارة معارف الولاية، لم تكن مديرية المعارف قادرة على تنفيذ توصيات مجلس المعارف الكبير؛ لأن مديرية دمشق، كانت تواجه صعوبات أبرزها منافسة المدارس المسيحية والمدارس الخاصة لها(٢).

فالمدارس المسيحية تتوافر لها إمكانيات مادية ومعنوية كبيرة، فأبنيتها مهيأة لاستقبال الأطفال، كما أن أطباءها يقومون بفحص طلابها بشكل دائم ومستمر، أما المدارس العمومية، فليس لها إمكانيات مادية، وأبنيتها قسم كبير منها تم استئجاره نظراً لتوافد الأطفال إليها ولاسيما المرحلة الابتدائية، كما أن القرارات صدرت قبل تهيئة أماكن (أبنية) ومستلزماتها، فضلاً عن أن معظم مدراء المدارس كانوا من العثمانيين ممن لا يعرفون العربية، وهذا ولدّ بحد ذاته تنافراً ومشادات بين المدرسين، كما أن المدراء أهملوا واجباتهم وتقاعسوا كثيراً عن الحضور إلى المدرسة، ولم يكن بإمكان مديرية المعارف توجيه عقوبات بحقهم(٣).

وتفيد السجلات أن مديريات المعارف كانت تدار من قبل شخصيات تركية عثمانية، لدرجة أنها كانت تعّين الخريجين من المدرسين في قرى

---

(١) Osman ergin, turkiy medrese umumu deruri, Ankara 1979.1978.S.189.

(٢) جودت، مصدر متقدم، ج ١١ ص ١٥٧.

(٣) جريدة المقتبس، العدد ٦٧٨ لسنة ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م.

لا يوجد فيها مدارس، فضلاً عن الروتين القاتل حتى أن مديرية المعارف، كانت لا تجرؤ على تعيين معلم أو نقله من مكان إلى مكان دون موافقة نظارت المعارف في استانبول. والبريد قد يحتاج إلى أكثر من شهر أو شهرين، وهذا أثّر في نفسية المعلمين، ولاسيما تعيينهم في أماكن لا مدارس فيها(١).

إذاً حالةٌ من الروتين المعقد كان يعصف بمديرية معارف دمشق على الرغم من صدور قانون المعارف، وما أفرزه من لجان، وبخاصة المادة (١٤٨) من نظام المعارف المتضمن تحديد مهمة المحققين ودورهم في ضبط المسألة التعليمية داخل الولاية، في حين نصّت المادة (٢٤٩) من نظام المعارف على تحديد مهام لجان التفتيش (السابقة الذكر) على النحو الآتي:

١- لجان التفتيش لمدارس اللواء تجول على المدارس كل ثلاثة أشهر كحد أدنى.

٢- التأكد من تنفيذ الإصلاحات التي تحتاجها (المدارس) بقدر المستطاع وضمن إمكانيات المديرية والمساعدات التي تقدم لها.

٣- إبلاغ مديرية المعارف عن حضور الاجتماعات والتوصيات التي كانت تسفر عن هذا الاجتماع، وإرسال صورة عنها إلى مديرية المعارف في الولاية التابعة لها، وهي بدورها تعلم نظارت المعارف العمومية في استانبول(٢)، علماً بأن المفتشين كانوا يتقاضون رواتب مجزية قياساً بمدراء المعارف وبالمعلمين حيث لم يتجاوز راتبهم الشهري قبل وصول السلطان عبد الحميد إلى

---

(١) الدستور، مصدر متقدم، ج ٢ ص ١٧٨.

(٢) Ahmet selim efendi, egitim nasidir, Ankara 1987.S.354.

العرش ٩٠٠ قرش سوري وقد ضاعفه السلطان عبد الحميد، فأصبح بحدود ألفي قرش شهرياً.

وقد نصَّ نظام المدارس العمومية استناداً لإدارة المكاتب، وهم من معلمي الرشدية[١] على ما يلي:

بالنسبة للمعلمين، مهمتهم المحافظة على سير العملية التعليمية، ومعاقبة الطلاب الذين يحدثون ضجة وشغباً، وحضور دروس معلمي التعليم الابتدائي وإقصاء المعلم الذي لا تتوافر فيه الكفاءة العلمية[٢]، وبعد ذلك إعلام مديرية معارف الولاية عن أوضاع المعلمين من حيث الالتزام بالحضور، والخدمة، وإعطاء الدروس لكل صف، وما يحدث في كل مدرسة من أعمال تعيق التدريس.

وحدّدت المادة (١٤٩) من نظام المعارف واجب المعلمين بما يلي:

١- التقيّد بالدوام، وإعلام المعلم الأول عن الغياب باليوم، لتلافي عدم وجوده.

٢- قراءة سجل الدوام اليومي (التفقد)، قبل البدء بإعطاء الدروس.

٣- الالتزام بمفردات المنهاج المقرر والمحدد من قبل المديرية، ولا يحقُّ للمعلم إعطاء معلومات من خارج المقرر البتّة.

٤- إنهاء المنهاج المقرر قبل الامتحان العام.

٥- إخراج التلميذ المشاغب من القاعة، وإعلام الإدارة عنه[٣].

---

(١) الدستور، مصدر متقدم، ج ٢، ص ٧٩.

(٢) للمزيد، البند السابع والسبعون من نظام التعليم الحديث في الولايات، أحمد لطفي، ص ٥٣٧.

(٣) الدستور، مصدر متقدم، ج ٢ ص ٢١٥.

وبحسب المادة (١٥٧) أُلزم المراقبون (المبصرون) بالآتي:

١- ضرورة التواجد الصباحي يومياً والإشراف على التفقد الصباحي.

٢- مساعدة المعلمين في دخول الطلاب إلى قاعات الدرس بهدوء.

٣- على المراقب إعلام المعلم الأول (المختار من المكاتب الرشدية) بما رآه من اعوجاج أو عدم انضباط.

٤- الحضور في أوقات الصلاة، وعليهم تأدية الصلاة في الصفوف الخلفية.

أما مهامّ البوابين فهي:

١- فتح الأبواب الرئيسة للمدرسة (للمكتب) مبكراً.

٢- فتح قاعات الدراسة بكاملها.

٣- عدم السماح للطلاب بالخروج من المدرسة إلا بإذن من المعلم الأول[1].

أما بالنسبة للتعليم الخاص فهو ينقسم إلى:

١- التعليم الأهلي:

لم يقتصر التعليم الأهلي على المسيحيين الذين أسهمت كنائسهم وكهنتهم وأساقفتهم وبعثاتهم الدينية التبشيرية في افتتاح مدارس خاصة بهم، كما أقام المسلمون مدارس تابعة بمعظمها إلى جمعيات خيرية وطنية، ومثلتها الطائفة الإسماعيلية والطائفة الموحدية (الدرزية)، التي لم تقتصر على دمشق، بل افتتحت في ألوية خارج ولاية دمشق، ففي دمشق شكلت جمعية خيرية سنة (١٢٩٦هـ/١٨٧٨م) زمن الوالي مدحت باشا، وقد

---

(١) مجلة الكلية، العدد الخامس، المجلد الرابع ص ١٣٠.

حضّها الوالي مدحت باشا على توجيه اهتماماتها إلى التعليم وتأمين تعليم الأطفال ورعايتهم(١).

ونظراً لتجاوزات بعض الجمعيات حدودها في التصرف والانحراف عن أهدافها، عمدت استانبول إلى إغلاق مكاتبها وذلك سنة (١٢٩٩هـ/١٨٨١م)، وبالرجوع إلى أرشيف رئاسة الوزراء في استانبول نجد أن هذه الجمعيات العربية الإسلامية كانت جزءاً لا يتجزأ من دعاة النهضة العربية، ولا شك أنّ بعضها كان مؤيداً للسلطان عبد الحميد الثاني ووقف في مواجهة جمعية الاتحاد والترقي، وبعضها كان معادياً للسلطان عبد الحميد(٢).

إن المدارس التي افتتحها الأهالي المسلمون لم تكن بدافع التنور بحسب إفادات بعض الشهود نقلاً عن آبائهم، بل كانت تحدّياً للمسحيين الذين افتتحوا مدارس، وقد افتتح أهالي دمشق ما يزيد عن ٢٠ مدرسة، حتى مسلمو بيروت افتتحوا مدارس خاصة كتحدٍ للمدارس المسيحية؛ التي بلغ تعدادها في مدينة بيروت سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٤م (١٧) مدرسة ضمت (١٢٧٠) طالباً(٣) قسم منها كان علمياً وتعليمياً بامتياز، والقسم الآخر، كان تباهياً وسعياً لكسب المال والشهرة.

كذلك فقد افتتحت مدارس رشدية وإعدادية، ففي مدينة دمشق افتتحت مدرسة إعدادية خاصة، أما النظام والهدف من إنشاء هذه المدارس فهو إعداد أجيال علمية(٤).

---

(١) مجلة المقتبس، العدد ٨٦٣، مجلد ٥ ص ٥١٢.

(٢) المرجع السالف، العدد ١٠٩٩ ص ٣.

(٣) بيروت ولايتي سالنامه سي، لسنة ١٣١١هـ دفعة ١٣ ص ١٥٧.

(٤) تم العثور على وثائق في مشوش دفتري تؤكد ذلك.

٢- التعليم الخاص:

تفيد بعض الشخصيات أن رؤية مدحت باشا للمسلمين وقوله عنهم: (إنهم أكثر جهالة) أثار لدى الأعيان فكرة إنشاء جمعيات مثل «جمعية المقاصد الخيرية» التي افتتحت مدارس في جميع ألوية دمشق وبيروت وحلب، والهدف من إنشائهم للمدارس، في الغالب كان تنشئة جيل مسلم متمسك بعقيدته، يتحلى بالأخلاق الحميدة، ويكون ناضجاً عاقلاً كتهيئة له ليكون قائداً للأمة في نهضتها الدينية، وقد أدت المدارس الدينية دورها في تعليم الأطفال في مختلف المراحل (ابتدائية، رشدية، إعدادية) إضافة إلى التعليم التحضيري.

ومن المواد التي كانت تدرس في مدارس التعليم الأهلي:

القرآن الكريم، وعلم التجويد، وعلم الفقه، وعلم التوحيد الإسلامي، والعلوم المدنية والأخلاقية، والقراءة العربية، والصرف والنحو، والمحادثة، والإملاء العربي، والمحفوظات العربية، والخطابة، واللغة الفرنسية، والحساب والجبر، والهندسة والجغرافيا، والتاريخ، والعلوم الطبيعية، والزراعة، والخط، والنشيد والموسيقى، والرياضة. وهذه المواد تدرَّس على مدار كل يوم ما عدا يوم الجمعة بساعات قد تصل إلى ٩ ساعات وذلك لقسمي الابتدائي والتجهيز اللذين اعتمدا في السنوات الأخيرة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني.

لقد زودت المدارس الأهلية بمكتبة تضم كتباً قيّمة(١).

---

(١) مقابلة مع حفيد صلاح الدين بن عبد الرحمن نقلاً عن عبد الجبار الحاج عثمان في بحثه الذي أعده للحصول على الماجستير سنة ١٩٨٠ ص ٢١٨.

ومن أبرز المدارس الخاصة التي بنيت بمعظمها في العهد الحميدي:

١- **المدرسة الجوهرية**: بناها أبو بكر بن محمد بن أبي طاهر بن عباس التيمي الجوهري في زقاق المحكمة، بدأ التدريس بها سنة (٦٢٦هـ ١٢٢٨م)[(١)].

٢- **المدرسة السفرجلانية**: أسسها الشيخ محمد عبد الرحمن السفرجلاني سنة (١٢٨٧هـ /١٨٦٨م) وقد افتتحها في مدرسة السليمانية[(٢)].

ومن أبرز الجمعيات التي افتتحت مدارس:

١- جمعية الإحسان: تأسست في حي الخراب سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، وقد بلغت وارداتها ١،٩١١،٢١٠ قرش وقد بلغ عدد أوقافها من القرى ٣٢،٩٨٧ قرشاً.

٢- جمعية النداء الخيري: تأسست في حي القيمرية سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، وقد كفلت (١٢) طالباً في المدارس العثمانية ثم زادت من كفالتها للطلاب الذين يدرسون في المدارس الرسمية، وهناك جمعيات خيرية عدة ظهرت أعمالها بعد سنة ١٩٠٩م ولن نتعرض لها لأنها خارجة عن نطاق البحث.

٣- ومن مميزات المدارس الخاصة أو المدارس الأهلية أنها تدرس اللغة العربية واللغة الأجنبية، بعكس المدارس الحكومية العمومية التي تدرس اللغة العثمانية أكثر من /١٦/ ساعة أسبوعياً، في حين لا تدرس العربية إلا ساعتين أسبوعياً.

---

(١) عبد القادر بدران، منادمة الأطلال، ومسامرة الخلاّن، المكتب الإسلامي بدمشق ١٩٦٠م ص ١٦٤.

(٢) الحاج عثمان، مرجع متقدم، ص ٢١٩.

لم يكن التعليم الأهلي والخاص يختلف في مناهجه أو سنوات الدراسة كثيراً من حيث المواد أو سنوات الدراسة عن التعليم الرسمي، إلا أن المواد الدينية كان لها الغلبة في هذا الصنف من التعليم، وكانت المرحلة الابتدائية خمس سنوات سنتان منهما تحضيريتان، أما الرّشدية فمدة الدراسة ثلاث سنوات، والمرحلة الإعدادية ثلاث سنوات، أما المواد التي تُدرَّس في كل مرحلة مع عدد الحصص الأسبوعية لكل مادة فيوضحها الجدول الآتي:

المرحلة الابتدائية	عدد الحصص	المرحلة الرشدية	عدد الحصص	المرحلة الإعدادية	عدد الحصص
القرآن الكريم	١٦	القرآن والتجويد	٧	العلوم الدينية	٦
العلوم الدينية	٦	العلوم الدينية	٦	اللغة التركية	٤
الإملاء والقراءة العربية	٢٧	النحو والصرف والإنشاء	٢٦	اللغة العربية	٤
اللغة التركية	٦	الحساب والهندسة	٧	منطق وفلسفة	٢
اللغة الفرنسية	٥	الهندسة المسطحة	١	علوم طبيعية	٢
الحساب	١٦	المنطق	١	علوم الحيوان	٢
			١	تاريخ وجغرافية	٢
حسن الخط	٩	مبادئ الجغرافية	٢	عربي	٣
		التاريخ	٢	فارسي	٢
		حفظ الصحة	٤	فرنسي	٢
		أموال الدفاتر	٦	معلومات أخلاقية	٢
		حسن خط	٧	معلومات حقوقية	٢
		اللغة التركية	١٠	أصول مسك الدفاتر	٣
		اللغة الفرنسية	١١	رسم وحسن خط	٢
		المعلومات المدنية	٢	غناء وموسيقى	٢
		مبادئ العلوم	٣	رياضيات	٥
		علم الحيوان	٣	طبقات الأرض	٤

ما يمكن قوله: إن المؤسسات التعليمية المختلفة قامت بتدريس العلوم الدينية الشرعية كافة خلال هذه المرحلة التي تفاوتت فيها الفرص الخاصة أو المتعلقة بتلك المؤسسات التعليمية، وتولى فيها التدريس مدرسون ضليعون في اختصاصاتهم، ولديهم خبرة كافية في معارفهم العامة؛ لأن هؤلاء العلماء أو المدرسين لم يكونوا يكفون عن المطالعة والقراءة وتوسيع مداركهم العلمية.

دأب العلماء آنذاك على التبحر بعلوم اللغة العربية وآدابها والعلوم الدينية، وسعوا إلى ترسيخ معلوماتهم العلمية في أذهان طلابهم، ولهذا فقد ظهر عدد كبير من علماء اللغة العربية، متأسّين برجال الدين الذين أتقنوا علوم اللغة، كذلك فإن علماء اللغة أجادوا علوم الدين، ومن هذا المنطلق أجاد الطلاب العرب في مختلف الولايات، نظراً لما يمتلكونه من قاعدة علمية متميزة، بل تفوقوا في العلوم الدينية وغيرها.

لم تقتصر الإجادة في العلوم الحديثة على علماء مسلمين، بل وُجد عدد من العلماء المسيحيين ممن أسهم في الإبداع العلمي ولاسيما مسيحيو بلاد الشام، وتجلى ذلك في الحركة النهضوية التي برزت كقوة منذ منتصف القرن التاسع عشر.

وظلت ثلاثة تيارات تتحكم بميدان الفكر العربي: هي تيار العلوم الدينية وتيار التصوف وتيار العلوم اللغوية، وشاركها منذ أوائل القرن التاسع تيار رابع هو تيار العلوم العقلية.

أجمع الباحثون العرب والأوروبيون على أن هذه المرحلة اتصّفت بالجمود العلمي والعقلي؛ لأنها لم تنجح في ميدان العلم بشيء يستحق الذكر علمياً أو يتجاوز بعض الحوليات والشروح، ويوازي ما قدمته الحضارة العربية الإسلامية، والمقصود بالعلوم العقلية: علم الرياضيات، وعلوم الفلك، والطب، والفيزياء، والكيمياء، واللغات، وعلم الحيوان وغيرها.

ويرد معظم الباحثين أسباب التخلف العلمي الذي عانى منها سلك التعليم، إلى لجوء الدولة العثمانية في معظم البلاد العربية إلى إسناد المناصب العلمية إلى شخصيات تركية أرضيتها عسكرية لا تعنى بالعلوم ولا بالعلماء وهدفها إعداد القضاة وكبار الإداريين المدنيين والعسكريين على الأقل خلال المرحلة الأولى، لذلك بدأ الجمود والترهل يتسرب إلى العقلية، ولتأكيد هذا الجمود وذاك الترهل الذي تم من خلال إرغام العلماء على تقديم الولاء إلى العسكريين الذين أسندت إليهم المناصب جميعها.

من الخطأ بمكان تصور بعض الباحثين أن الدولة العثمانية من خلال قانون المعارف الذي أصدره السلطان عبد العزيز سنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) أسهمت في تطوير التعليم وتطويرها. والحقيقة أن ما قدمه إصدار قانون المعارف هو السماح للمدارس بالبروز على الساحة، وغدا سكان مدينة دمشق وأهلها يعلمون أن هناك مدارس تدرّس كل العلوم وبإذن من الدولة، ولتأكيد ذلك فقد عرفت مدينة دمشق أربع مدارس لتعليم الطب[١]، وقد درس خريجو هذه المدارس في بيمارستانات مثل (النوري والقيمري والصغير[٢]).

غير أن هذه المدارس توقفت منذ مطلع القرن الخامس عشر بقرار من السلطان بايزيد الثاني سنة (٨٨٨هـ ١٤٨٣م)، دون أن تفيدنا مصادر ومراجع تلك المرحلة عن سبب توقفها، علماً بأن كتب التراجم أفادتنا بأنه وجد في بلاد الشام مشيخات للطب، كذلك فقد وجدت طبيبات، وأن إحداهن تسلمت مشيخة الطب في القاهرة في دار الشفاء المنصوري بالقاهرة بعد وفاة والدها[٣].

---

(١) كرد علي، خطط الشام، مرجع متقدم، ج ٦ ص ١٠١.

(٢) أحمد عيسى بك، البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٣٥٧هـ/١٩٣٩م ص ٢٠٤.

(٣) محمد أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء القاهرة ١٢٨٤هـ/١٨٦٨م ج ١ ص ٢٠٤.

٣- شروط افتتاح المدارس:

لم تفدنا مصادر ومراجع القرنين الخامس عشر والسادس عشر وما قبلهما من قرون، أن المدارس بناها أصحابها أو مؤسسوها ضمن شروط ومواصفات كما حدد في القرن التاسع عشر وما تلاه، حيث برزت الحضارة بكل تفرعاتها من أبنية وطرق معبدة وشوارع وغيرها، مما فرضتها المدينة التي بدأت تزداد ازدحاماً يوماً بعد يوم، بعكس مدارس النواحي والقرى التي يشكو طلابها من عواصف الشتاء وبرده وحرارة الصيف؛ لأن المدارس بنيت في منطقة مكشوفة.

لم يدر في خلد نظارت المعارف العمومية أي ظاهرة غير ظاهرة توافر الجو الملائم لطلاب المدارس، ولهذا حددت المنطقة وطبيعتها ومساحة المدرسة وموقعها، فإذا توافرت هذه المواصفات لم يعترض القيّمون على بناء المدرسة المزمع بناؤها في المنطقة المذكورة في طلب البناء.

إذا كانت نظارت المعارف العمومية قد زودت مديريات المعارف في الولايات بالشروط الواجب توفرها في بناء المدرسة ولإعطاء الإذن على الموافقة، فإن القيمين على الأمر في مديرية معارف دمشق لم يلتزموا كثيراً بهذه الشروط متذرعين بحجج واهية ومقابل رشوة أو أن المدرسة لأحد الأعيان، غير أن المدارس الرسمية طبقّت الشروط المطلوبة خوفاً من الرقابة أو لجان التفتيش[١].

ومن أبرز الشروط الواجب توافرها في بناء المدرسة:

١- المكان مساحة وموقعاً.

٢- أن يكون البناء فسيحاً، وأمامه فسحة للطلاب أثناء خروجهم للتنفس.

---

(١) مجلة المعارف بمديرية دمشق، عدد ١ ص ٤١٣ - ٤١٨.

٣- أن تكون غرف بناء المدرسة صالحة للتهوية[١].

ومن الشروط الصحية الواجب توافرها في الجلوس الصحي:

١- توافر المقاعد المناسبة لطلاب كل مرحلة.

٢- تأمين وسائل الإيضاح التي تساعد الطلاب على فهم الدروس.

٣- عدم السماح للطلاب بالجلوس على الأرض، كما كان سابقاً واستبدال ذلك بمقاعد خشبية.

٤- مراعاة الدقة في بناء المدارس الابتدائية، وتعيين آذنة لضبط خروجهم من الباب الرئيس.

٥- تتحمل الإدارة مسؤولية تأمين الأطفال في حال حدوث عواصف شتائية[٢].

لم تراعَ الدقة في الشروط وبخاصة في المدن الكبرى مثل دمشق وحمص وبيروت وطرابلس وحلب، كذلك فإن الوضع التعليمي للأهالي لم يكن مهيأ للتدقيق في شروط البناء، وكان جلُّ همهم ذهاب أبنائهم إلى المدارس وتلقيهم العلوم، وتخرجهم وتعيينهم في الوظائف لمساعدتهم في المعيشة وتعليم إخوتهم وأخواتهم.

بالطبع من الصعب قراءة واقع مدارس المرحلة العثمانية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لأن تلك المراحل بما فيها مرحلة الاستعمار الفرنسي اتسمت بالاضطراب من جهة والفقر وعدم الوعي الحالي من جهة أخرى[٣].

---

(١) ساطع الحصري، فن التربية الجسمية، تعريب، كامل نصري، ١٩٣٥ ص ٩١-٩٣.

(٢) للإطلاع على حيثيات التعليم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ساطع الحصري، فن التربية الجسمية، مرجع متقدم، ص٧٧ و ٨٢ و٨٣.

(٣) أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، تقديم يوسف جميل نعيسه ١٩٧٦، ص ١٩٦.

٤- شروط قبول المدرسين للتعيين:

لم تكن الشروط التي وضعت للتعيين في القرن التاسع عشر من الشروط الواجب توافرها في الراغب بممارسة مهنة التدريس في المراحل الثلاثة (المرحلة الابتدائية، المرحلة الرشدية، المرحلة الإعدادية) وحتى في المعاهد العليا.

ومن هذه الشروط الواجب توافرها في مهنة التدريس:

١- توافر الشهادة المطلوبة للتدريس في مهنة التعليم حسب المراحل.

٢- خضوعه لامتحان (اختبار) من قبل الجهات الرسمية وحصراً مديرية المعارف.

٣- ألا يكون قد ارتكب جرماً أو جناية.

٤- ألا يكون مرتبطاً بعمل خاص.

ومن ضمن الوثائق التي يبرزها قبل مباشرته للامتحان (الاختبار) الرسمي:

١- شهادة حسن سلوك.

٢- شهادة صحية لإثبات خلوه من الأمراض.

٣- الإعلان عن المسابقة في الصحف الرسمية وسابقاً كانت جريدتا (الطنين والصباح) مسؤولتين عن نشر الإعلان.

ومن شروط النجاح في الاختبار:

١- أن يحصل على ٦٠% من الدرجات في الاختبار الكتابي.

٢- أن يحصل على ١٥ و٢٠ و٤٠ في الاختبار الشفهي، والمقابلة(١).

---

(١) يمكن مراجعة النشرة العثمانية لسنوات ١٢٧٣-١٢٧٤هـ وما بعدها للإطلاع على شروط التعيين في مهنة التدريس.

٥- واردات المدارس ونفقاتها:

آ- واردات المدارس الرسمية:

لم يكن هناك ميزانية مخصصة للتعليم في الدولة العثمانية، وإنما كانت مكرمة سلطانية بدأها السلطان محمد الفاتح، حينما بدأ بإنشاء مدارسه، حيث أمر مدير ماليته (الدفتردار) بتخصيص مبالغ مالية تكفي حاجات الطلاب والمدرسين، وكان هذا المبلغ قابلاً للزيادة والنقصان بحسب مزاجية السلطان محمد الفاتح، ورضاه عن شيخ الإسلام، والتقارير المقدمة إليه من قضاة العسكر الذين تحملوا لقرون مسؤولية التعليم، واقتداء خلفائه من بعده.

عندما تولى السلطان سليمان القانوني وتفرغ من الحروب الضرورية التي انتهت حسب رؤية زوجه روكسلانه[1] سنة (٩٤١هـ/١٥٣٤م) أي بفتح العراق الذي يُعد الخروج الرسمي النهائي للسلطان سليمان القانوني وبعدها سلم الخاتم إلى الصدر الأعظم الذي أدار الدولة عنه، ركز سليمان القانوني أنظاره على التعليم، وخصص ميزانية خاصة للمدارس ومدرسيها.

ظل العثمانيون يديرون المدارس بصورة مزاجية، ففي أحيان كثيرة يعود الفضل في تنظيم المسألة التعليمية إلى قضاة العسكر ومشايخ الإسلام، أما في الولايات فقد كانت وقفاً على زعماء المذاهب الدينية

---

(١) روكسلانه يهودية بولونية المولد، تربت تربية روسية، أهداها ملك القرم إلى السلطان سليم الأول فزوجها لابنه سليمان، وهي التي أشارت على زوجها السلطان سليمان أن يفعل كملوك أوروبة، ويحيل الأمر إلى الصدر الأعظم فقبل وسلم الخاتم إلى الصدر الأعظم آ نذاك رستم باشا وهو كرواتي الأصل تزوج ابنة سليمان «مهرماه» أي خلاصة الشهر أو خاتمته.

وأصحاب الطرق الصوفية، وكان التعليم بغالبيته يعتمد على المواد الدينية، وإذا وجدت مواد عقلية (علمية) قد درستها بعض المدارس الخاصة التي بناها علماء سياسة أو جهود فردية، إما من ولاة أو أعيان، إلا أن العثمانيين لم يولوا تلك المدارس إن كانت رسمية أو خاصة أو أهلية أية عناية، ولم يقدموا أية مساعدات مالية ولا حتى أي اهتمام وظلت تدار كيفياً إذا لم نقل عشوائياً، وإذا وجدت مدرسة بنتها الإدارة العثمانية، وهذا لم نعثر عليه ما قبل القرن التاسع عشر، فإن نفقاتها تدفع من واردات الولاية(١).

أما بشأن الواردات، فلم يتم العثور على مدارس حكومية لها واردات غير المخصصات التي تحددها الجهة المسؤولة عن التعليم، فالمدارسُ الطائفية من إسلامية أو مسيحية خُصصت لها أوقافٌ تُحوّل نفقات تلك الكتاتيب أو المدارس الطائفية مسلمة كانت أم مسيحية إلى الجهات التي بنتها، أما واردات المدارس الأجنبية فتأتي من الدول التي افتتحتها، وقد وجد في دمشق مدارس أجنبية لعدة دول والأمر نفسه في حلب وفي بيروت(٢).

أما المدارس التقليدية الدينية (المذهبية) فقد خصص لها بُناتها أوقافاً تكفيها ما يلزمها من نفقات، ولهذا فقد اتبعت هذه المدارس نماذج إدارية خاصة بها، ومنحت طلابها إجازات متعددة مثل إجازة بحفظ القرآن الكريم وتجويده، والطالب يخضع لاختبار أمام شيخ تعينه المدرسة، وهذا غير جائز في المدارس الرسمية(٣)، فالامتحان يكون

---

(١) أرشيف رئاسة الوزراء، تصنيف جودت نافعة، وثيقة ٣٤٥٧ لف ١ ولف ٢.

(٢) النشرة العثمانية الصادرة عن نظارت المعارف، لسنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م.

(٣) عبد القادر بن محمد نعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، بيروت ١٩٩٠م ج ٢ ص ٣٢٠.

بمجموعة مواد درسها الطالب خلال العام الدراسي، ومن قِبَل لجنة من المدرسين، وبعدها يحصل على شهادة إنهاء مرحلة دراسية إما ابتدائية أو رشدية أو إعدادية(١).

ب – واردات مديرية معارف ولاية دمشق:

أشرنا في أكثر من موضع إلى أن ديوان المعارف العمومية الذي أقره كلخانه خطي سنة (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م)، لم يأخذ شكلاً اعتبارياً مكنه من القيام بالمهام المكلف بها؛ لأن رئيسه لا يحق له حضور جلسات الديوان الهمايوني، ولهذا فإن إنجازاته حتى داخل المركز لم تكن تستحق الذكر، ولهذا منحه السلطان فرماناً خاصاً حولّه بموجبه إلى وزارة سنة (١٢٦٤هـ/١٨٤٧م)، وأصبح له مخصصات من الخزينة العامرة ومخصصات الأميرية، والإعانات سنوية من أهل الخير والأعيان، إضافة إلى واردات الأوقاف، بالطبع ما نالته نظارات المعارف العمومية، نالته مديرية معارف ولاية دمشق، وأصبحت وارداتها السنوية تصلها من الجهات الآتية:

١- مخصصات مالية من مالية نظارت المعارف في استانبول.

٢- مخصصات من مال الأوقاف الذي أمر السلاطين بتخصيصها.

٣- الإعانات المالية من المؤسسات الخيرية.

٤- تبرع الأهالي، وتقديمهم مساعدات عينية لبعض المدارس، في النواحي والقرى.

وقد أفادت التقويمات السنوية، (دولت عليه سالنامه سي أو سورية ولايتي سالنامه سي) أن نفقات مديرية المعارف في ولاية دمشق كالآتي:

---

(١) راجع الفصل الثالث من البحث، التعليم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

١- من الخزينة العامرة ٦٠,٣٥٤ قرشاً سنوياً، وأحياناً تصل إلى ٧٠,٠٠٠ قرش.

٢- من مخصصات الأوقاف بحسب الفرمانات السلطانية القاضية بذلك قرابة ١١٣,٠٠٠ ق.س

٣- من الضرائب، ضرائب العوارض وضريبة الزواج والطلاق التي تقدر ٥٠,٠٠٠ ق.س

٤- جزء من المواريث والوصايا وتقدر بـ ٣٥,٠٠٠ قرشاً سنوياً[١].

بالطبع إن واردات مديرية ولاية دمشق، تعد قليلة وغير كافية لتأمين التعليم لكل الراغبين بالانتساب إلى المدارس بكل مراحلها، وبخاصة المرحلة الابتدائية التي بلغ تعدادها سنة (١٢٩٤هـ/١٨٧٧م) (٣٦) مدرسة ابتدائية تحوي ما يزيد عن خمسة عشر ألف طالبٍ[٢]، مضافاً إلى ذلك الكتب المدرسية التي أقرها شريف همايون خطي سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٣م) بأن الدراسة مجانية في المرحلة الابتدائية، في حين شرّع الفرمان لطلاب الرشدية والإعدادية والتعليم العالي شراء الكتب على نفقتهم الخاصة[٣].

٦- رواتب المدرسين والموظفين العاملين بها:

لم تكن رواتب المعلمين الذين يدرسون في المدارس العثمانية، أو التابعة لها، ثابتة لدى البحث فبعضهم بالغ فيها والبعض الآخر أفاد: أن مدير

---

(١) الأرشيف العثماني وقسم يلدز، تصنيفي رقم ٣٧ ظرف ١٢٨ كرتون ١١٧ لسنة ١٢٩٠هـ.

(٢) أشرنا السالفاً في البحث إلى ذلك.

(٣) أجمعت الفرمانات على أن طلاب المرحلة الابتدائية، يتلقون تدريسهم وكتبهم مجاناً، لأن قسماً من واردات الأوقاف، تقدم إلى مديرية معارف دمشق.

المعارف يتقاضى راتباً قدره ٢٠٠٠ قرش، وهو مبلغ كبير بالنسبة لتلك المرحلة، فالمساعي العثمانية لم تكن بادئ الأمر متوجهةً لتخريج جيل عالم، بسبب اليأس المسيطر على البعض، علماً بأن إمكانات الدولة العثمانية لم تتجاوز خطاً مرسوماً هو أو يتمثل بنشر المكتبات الابتدائية، والقضاء على الجهل بين المسلمين، وذلك من خلال تعليمهم القراءة والكتابة، وهذا يعني بالتأكيد أن العثمانيين اهتموا بالتعليم لكن دون الإنفاق عليه بما يتعلق بعامة الناس، ولاسيما في الولايات العربية الإسلامية.

ويذكر المؤرخ بيرم كودمان: «أن المدارس الابتدائية في الإمبراطورية العثمانية سنة (١٢٩٤هـ/١٨٧١م) زادت عن (٢٠٠) مدرسة[١]، وقد ارتفعت سنة (١٣١٦هـ/١٨٩٨م) إلى (١٨٤٢) مدرسة[٢]، ويعود الفضل في هذا إلى السلطان عبد الحميد الثاني، وهناك ٣٥٧ مدرسة تعتمد النظام القديم (كتاتيب، مدارس دينية تقليدية) ونصيب سورية بكامل ألويتها وأقضيتها (٢٣٢) مدرسة على النظام القديم و(٥٩) مدرسة على النظام الحديث (تعليم رشدي عسكري، وتعليم مدني)»[٣].

بقي القول: إن النفقات المنظمة تركَّزت، بمجملها، على المدارس التي تعتمد النظام الحديث، وإن مدرسيها تقاضوا رواتب تزيد عن ٩٠٠ قرش[٤]، أما المدارس التي تعتمد النظام القديم، فلم نعثر على وثائق تفيد البحث، وبالاستناد إلى السجلات التي أوردتها

---

(١) Bayram Kodman, Abdul Hamid devriegitim system, Ankara 1988.S.79

(٢) جريدة الطنين، عدد ٣٢٨، ٢٢ تموز ١٩١٣م.

(٣) سجلات المحاكم الشرعية، دمشق، رقم ٢٥٠، وثيقة ١٧٠ لسنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م، ص ١٥.

(٤) سجلات المحاكم الشرعية، دمشق رقم ٢٨٧، وثيقة ٥٧ لسنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م، ص ٣٧.

أوردتها السجلات الإحصائية العثمانية بشأن رواتب العاملين في مديريات معارف ولاية دمشق، أفادت الآتي:

السنة	المهنة	الراتب الذي يتقاضاه	المهنة	الراتب الذي يتقاضاه
١٢٧٣ هـ	معلم	٢٠٠ قرش	المستخدم	٧٥ قرشاً
١٢٧٧ هـ	معلم	٤٠٠ قرش	المستخدم	١٢٥ قرشاً
١٢٨٣ هـ	معلم	٩٠٠ قرش	المستخدم	٣٥٠ قرشاً
١٢٩٠ هـ	معلم	١٣٠٠ قرش	المستخدم	٥٠٠ قرش(١)

٧- التعليم الخاص في ولاية دمشق (١٢٧٨-١٣٢٧هـ / ١٨٦١-١٩٠٩م):

أشرنا من قبل إلى أنظمة التعليم الخاص بشكل مقتضب؛ إلا أننا لم نعثر على وثائق تفيد البحث بشكل أكبر، وبالاستناد إلى ما أوردته السجلات الإحصائية، فإن واقع البحث يحتم استعراض موسع للتعليم الخاص الذي هو في الأصل غير تابع لإدارة المعارف في الولاية، فالتعليم الخاص له نظامه وبرامجه الخاصة به، وهو على نوعين:

أ - المدارس الوطنية- وهي مدارس أسسها أفراد أو جماعات من الأهالي:

بيّن جودت باشا الذي شارك في حركة الإصلاح منذ سنة (١٢٦٥هـ/١٨٤٨م)، في تقريره المطوّل الذي رفعه إلى السلطان عبد المجيد

---

(١) لزيادة الاطلاع على رواتب المستخدمين والمدرسين، راجع السجلات الإحصائية لسنة ١٢٩٤هـ.

بعد تعيينه عضواً في مجلس المعارف سنة (١٢٦٦هـ/١٨٤٩م) لمدة ستة أشهر؛ واقع التعليم قائلاً:

«إلى مولانا ومرشدنا وسيدنا جلالة السلطان المصلح عبد المجيد خان بن محمود خان دام عزه، إن التعليم لدى المسلمين في ولاياتنا التابعة لعتبة معاليكم، لا تزال تدرس العلوم الدينية المتوارثة، وهذا وإن كان جيداً وسليماً، لكنه من الصعب أن يخلق جيلاً مدركاً لواقعه، ولا يمكن أن يوازي المدارس المسيحية التي أخفقت في مساعيها من حيث تنصير المسلمين؛ لأن الدين الإسلامي يمتلك مقومات تجمع ما بين الدين والدنيا.

إن واجب مجلس المعارف تنمية ما يسمى بالمدارس المحلية التي توازي المدارس المسيحية، إذا قدمنا إليهم المساعدات وقدمنا المطبوعات اللازمة، وإن الخطوة التي قام بها عالي باشا بدعم من عتبتكم الهمايونية المكرمة، غلطه سراي سنة (١٢٦١هـ/١٨٤٤م) بني في الأساس على خطوات علمية متطورة، في حين أن المدارس الإسلامية الدينية كانت ولا تزال غير متطورة، ولهذا فإن الأمر يقتضي من نظارات المعارف تأمين مطبعة في كل ولاية لطباعة الكتب تحت إشرافها وبمعرفتها لتنمية التعليم الخاص الذي يواجه التعليم المسيحي، كما يقتضى الأمر من نظارات المعارف تقديم أموال وهبات إلى جميع المدارس ليتسنى لها التدخل في شؤونها متى شاءت.

وأضاف جودت في تقريره: «إن الدارسين في المدارس المذهبية غير مؤهلين لممارسة التدريس حتى في المدارس الدينية، لأنهم تربوا على تعلمٍ ذي اتجاه واحد، ولهذا فإن الأمر يقتضي من الدولة إغلاق المدارس المذهبية ومراقبة المدارس الدينية لمختلف الأديان من إسلام ومسيحيين ويهود، وبهذا

السلوك قد تستطيع الدولة مستقبلاً صد هجمة عارمة، وعلى الأغلب، ممّن قد يتحولون إلى أعداء لدولة مولاي»(١).

بعد أن تحدّثنا باقتضاب عن المدارس المذهبيّة، لابدّ من الحديث عن المدارس غير الدينيّة التي عدّها الباحثون مدارس وطنية، غير أن قسماً منها بني لتحقيق مكاسب متعددة الاتجاهات والأهداف، وهناك مدارس بنيت لأسباب إنسانية، وهنا يجوز لنا تسميتها بالمدارس المدنية.

ومن أبرز المدارس غير الرسمية التي أنشئت في مدينة دمشق(٢)، مدارس نوضحها فيما يلي:

بلغ عدد الكتاتيب في ولاية دمشق سنة (١٢٨٨هـ/١٨٧٣م) ما يزيد عن ٣٠٠ مكتب للذكور والإناث، وقد بلغ عدد كتاتيب الذكور ٢٧٠ مكتباً والإناث ٣٠ مكتباً موزعين على النحو الآتي:

١- لواء الشام: مدينة دمشق ٧٤ مكتباً يدرس فيها ١٢٥٧ طفلاً. ناحية الغوطة مكتبان ويضمان (٤٠) طفلاً. ناحية القلمون (١٨) مكتباً وتضم ١١٩٥ طفلاً، منها مكتبان في قرية يبرود ويضمان ٢٠٠ طفل، بعلبك مكتبان ويضمان

---

(١) عُدّ جودت باشا من أفضل المصلحين ممن اهتموا بالتعليم، وعملوا بجد، ونشاط لدى تأمين نفقات مديريات المعارف، وحدد الجوانب التي يمكن أن تسهم في تقديم نفقات من إيراداتها وقد عمل بها السلاطين الذين خلفوا السلطان عبد المجيد، إلا أن محمود نديم باشا شن حرباً على بعض الرجالات وفي مقدمتهم مدحت باشا وجودت باشا فأوصل مدحت باشا إلى الإعدام، ودفع بجودت للعمل كوالٍ. للمزيد

Ismail Hakki, Ilmiye teskilati, Ankara, 1987.S.77

(٢) العلاف، مرجع متقدم، ص ١٨١-١٨٩.

(٤٥) طفلاً. حاصبيا مكتبان يضمان (٤٠) طفلاً. القرى التابعة لقضاء حاصبيا (٥) مكاتب وتضم (٦٧) طفلاً. قضاء راشيا (٥) مكاتب، منها (٤) مكاتب في راشيا وتضم (١٤٥) طفلاً[١].

٢- كتاتيب الإناث في مدينة دمشق لسنة (١٢٨٩هـ/١٨٧٤م):

بلغت كتاتيب الإناث /٢٨/ مكتباً وتضم (٢٩٤) طفلة وضم قضاء صيدا[٢] مدرسة واحدة للإناث، وقد ارتفع عدد الكتاتيب في ولاية سورية سنة (١٢٩٨هـ/١٨٨٠م) إلى /٣٠٧/ مكتباً للأطفال وضم /١٠٤٤٧/ طفلاً وطفلة وزعت على النحو الآتي:

لواء الشام	١٨٠	مكتباً	وتضم	٥٣٠٠	طفلاً
لواء بيروت	٤٦	مكتباً	وتضم	٢٥٨٥	طفلاً
لواء عكار	٧١	مكتباً	وتضم	١٨٣٧	طفلاً
لواء طربلس الشام	١٠	مكاتب	وتضم	٧٢٥	طفلاً

١٠،٤٤٧ المجموع

وبقراءة محايدة، فإن ما يزيد عن عشرة آلاف طفل عاشوا في حلقة دينية شديدة الإحكام، فلا رهبنة في الإسلام، ولم يدرسوا اللغات الأجنبية ولا العلوم العقلية، فما قاله جودت يمكن أن يشكل أرضية علمية لبناء مدارس على الطراز الأوروبي، وقد أكد ضرورة مراقبة هذه المدارس تحسباً من تزايد البدع؛ لأن أصحاب الطرق الصوفية بالغوا في إضفاء صفات شبه ألوهية على أوليائهم، وهذا لا يبشِّر بقبول الإصلاح في ولاية دمشق أو

---

(١) سورية سالنامه سي، لسنة ١٢٨٨هـ ص ١٣٢-١٦٢.

(٢) سورية سالنامه سي، لسنة ١٢٩٨هـ ص ١٤٨.

غيرها من الولايات؛ لأن الإصلاح علماني بامتياز؛ بدءاً من المظهر الخارجي إلى لغة التخاطب إلى صفة الطعام والشراب وحتى السير في طرق المدينة، وبالطبع هذا التبدل الجذري لهوية المسلم من الناحية الاجتماعية والعلمية والاقتصادية، سيتصدى رغماً عنهم لحركة الإصلاح لأن قوى بشرية تأتمر بإمرتهم ...الخ[١].

ب- المدارس الدينية:

إن المدارس الدينية بعيدة عن نظام الصفوف، وليس بها سجلات بأسماء الطلاب، وليس لها دوام محدد والدراسة منذ الفجر وحتى العشاء، وفي رمضان حتى الفجر وعلى الطلاب أداء صلاة التراويح مع ساداتهم.

قد يدرس الطالب شهراً أو شهرين، ثم يمتنع عن الذهاب إلى الكتاتيب ليس عليه رقيب أو حسيب إلا أولياء أمره، والمجتهد منهم قد ينتقل من مدينة إلى مدينة ومن ولاية إسلامية إلى أخرى، ليتبحر في العلوم الدينية وينال شهرة في مجال العلوم الدينية، ويصبح من كبار العلماء، والمجال مفتوح أمامهم وغالباً ما تكون إقامة مثل هؤلاء العلماء في المساجد أو الزوايا وغيرها من الأماكن المعدة لهم سابقاً[٢].

وقد قسّمت المدارس الدينية عدة أقسام:

---

(١) تقرير جودت إلى السلطان عبد المجيد: مكتبة نور عثمانية رقم ٧٦٥٤، وبالرجوع إلى سجلات المكتبة فهناك ثلاثة تقارير لجودت باشا عن حركة الإصلاح وتحديداً الناحية العلمية وكيفية إدارة المدارس الرسمية وغير الرسمية.

(٢) محمود شكري الألوسي، المسك الاذخر، تراجم علماء بغداد في القرن الثاني والثالث عشر، بغداد، الآداب ١٣٣٠ ج ١ ص٨.

١- دور القرآن: وهي مدارس متخصصة بتعليم القرآن الكريم وتلاوته، وفي الغالب يتخرج منها رجال الأناشيد الدينية وخطباء الجوامع.

٢- دور الحديث : أعدت خصيصاً للخطباء الدينيين ومدرسي علم الحديث.

٣- دور الفقه : أعدّت المدارس المذهبية دوراً لتدريس الفقه وكانت كل واحدة منها تدرس حسب مذهبها(١).

وكان الطالب في هذه الدور أو المدارس الدينية لا يحق له السؤال وعليه قبول ما ألقي إليه دون أية مساءلة، فضلاً عن ذلك فإن المدارس الدينية لم تكن وقفاً على مذاهب السنة، حيث كان للمذاهب الجعفرية على اختلاف طرقها مدارس دينية، لكن رأي الطالب فيها محترم وقائم، وتلقين المعلومات فيها مستند إلى الإقناع(٢).

ج – الزوايا:

الزاوية: هي المكان المعد للعبادة والأفعال الصالحة، وهي تشبه صومعة الراهب المسيحي، والزاوية: هي وقف على الطرق الصوفية، وقد كثرت الزوايا في الولايات العربية منذ العصر العباسي، فالطريقة النقشبندية لها عدة زوايا في دمشق، وكذلك الطريقة الشاذلية اليشرطية، ومئات الطرق التي عجّت بها حارات دمشق ومحالّها، وكانت الطرق الصوفية هذه تقبل في زواياها كل طالب راغب شريطة ألا يكون مبتدعاً ولا سكيراً(٣).

---

(١) مجلة التربية والتعليم بدمشق، ج ١٣ ص ١٩٢. (وقد أشار البحث إلى ذلك في الفصل الأول).

(٢) مجلة الهلال، السنة التاسعة، ص ٢٣٦.

(٣) المرادي، مصدر متقدم، ج ٤، ص ٩١٥.

٨- المدارس الأجنبية في ولاية دمشق:

١- المدارس الفرنسية:

تأسَّست في دمشق سنة (١٢٥١هـ/١٨٣٥م)، وهي أول مدرسة فرنسية في مدينة دمشق، وقد تراوح عدد طلابها بين ٨٠ إلى١٠٠ طالب، وكان الطلاب المسيحيون يتوافدون إليها بشكل خاص، وكان الطلاب (ومنهم قلة من الطلاب المسلمين) من أبناء الإقطاع والرأسمالية وكبار المسؤولين المسيحيين، وقد أنشأت فرعاً للإناث، حيث يتعلمن فيها القراءة والكتابة والخياطة، وتراوحت أعدادهن بين ٣٠ إلى ٣٥ طالبة، ونقلاً عن أنيس النصولي فإن المدارس الفرنسية كانت على نوعين:

١- مدارس إرسال البعثات إلى باريس، أو إلى بعض المدن الفرنسية، كما عدت مقدمة للجمعيات العلمانية.

٢- مدارس يديرها الرهبان والراهبات.

ونلاحظ حسب إحصاء أنيس النصولي، كيف توزعت هذه المدارس:

المدرسة	عدد المدارس	عدد الطلاب
ابتدائية	٤	١٣٦٠
ابتدائية ذكور	٣٤٨	٦٩٩٥
ابتدائية إناث	٨	٥٣٢

لم يقتصر النشاط الفرنسي على مدينة دمشق، فمن بيروت امتد إلى مختلف مدن بلاد الشام، وقد ركزت تلك المدارس على موادّ القراءة، والكتابة، والتعاليم الدينية المسيحية، وكانت فرنسا تقدم مساعدات سنوية تزيد عن ١٠٠،٠٠٠ فرنك فرنسي(١).

---

(١) دولت عثمانية عليه سالنامه سي، نظارات معارف عمومية، ج ٣ لسنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م ص ١٣٨٥.

٢- المدارس الأمريكية:

تُعد البعثات الأمريكية من أكثر البعثات الغربية نشاطاً، وقد بلغ عدد المدارس الأمريكية في دمشق قرابة ٤٦٥ مدرسة، وفي مختلف بلاد الشام زاد عن ١٢٠٠ مدرسة ما بين رشدية، وإعدادية[١]، والدولة العثمانية في جميع ولاياتها لم تتمكن من افتتاح عدة مئات أو أقل من ذلك؛ لأن اهتمام الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر كان منصباً على السير بالإصلاح دفعة واحدة وهذا ما أرهقها وأرهق نُظُمها التي استوردتها من دول أوروبة[٢].

٣- مدارس الإيرلنديين البروتستانت:

ذكرت التقويمات السنوية أن البعثات البروتستانتية الإيرلندية افتتحت خمس مدارسَ للذكور واثنتين للإناث، وبلغ عدد طلاب مدارس الذكور ما يزيد عن مئة طالب، تلقوا فيها مختلف أنواع العلوم العقلية وبعض التعاليم المسيحية، وفي السنوات الأخيرة تحولت أهدافها إلى استخباراتية عن واقع البلاد وواقع الدولة العثمانية، وأفادت المصادر العثمانية أن الإيرلنديين كانوا مدركين عدم قدرتهم على تكوين نفوذ لهم في الولايات العثمانية؛ لأن فرنسا وأمريكا وبريطانيا تصدرت لائحة النفوذ والسيطرة.

أما مدارس الإناث، فقد بلغ عدد طالباتها (٩٧) طالبة، درسْنَ اللغة العربية، والفرنسية، والإنجليزية[٣].

---

(١) سورية ولايتي سالنامه سي، لسنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م ص ١٥٥.

(٢) اثناسيو، مرجع متقدم، ج ٩ ص ٥٨٠.

(٣) سورية سالنامه سي، ١٣٠١هـ/١٨٨٤م ص ١١٨.

٤- المدارس الإنجليزية:

أقام الإنجليز أول مدرسة لهم في مدينة دمشق سنة (١٢٧٧هـ/١٨٦٠م) مستغلين الحرب اللبنانية ومآسيها والنزوح الكبير للبنانيين إلى سورية، فأنشئت مدارس للإناث داخلية، وتراوحت أعدادهن ما بين ٧٠ إلى ٨٠ طالبة، وقد اهتمت الحكومة البريطانية بمدارسها بحسب خططها الاستعمارية، وبلغ عدد المدارس الإنجليزية في دمشق (٥٩) مدرسة، وفي سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) قامت بريطانيا ببناء مدرسة للإناث في دمشق، وبلغ عدد طالباتها (٣٥) طالبة، لكن مدحت باشا، والذي كان آنذاك والياً على دمشق، بدأ باتخاذ خطوات عملية في مقاومة هذا التغلغل الأوروبي، فشجع الدمشقيين على تقديم المساعدات للطلاب المسلمين الغارقين في جهالة قاتلة، فنشأت آنذاك جمعية «المقاصد الخيرية الإسلامية» وبدأت بممارسة نشاط علمي جيد.

٥- المدارس الروسية:

ركَّزت البعثات الأرثوذكسية الروسية نشاطها على فلسطين، ومنها بدأت تتمدد باتجاه الشمال فبلغت دمشق وحمص وحماه واللاذقية، وقد ركزت نشاطها العلمي على مدينة اللاذقية، وقدَّمت خدمات جلية للمواطنين عامة والمسيحيين بخاصة[١].

(١) أسعد داغر، المدارس الروسية في سورية، مجلة المقتطف مجلد ٢٦ ج ١ لسنة ١٩٠١م، ص ٩٠٣ وما بعد.

بعض الاستنتاجات الأولية

تطور التعليم في مرحلة التنظيمات بعدما أصدر السلطان محمود الثاني قراره بضرب الإنكشارية، والتخلص منها، وظهر هذا جليّاً فيما عُرف بـ «الوقعة الخيرية» سنة (١٢٤٢هـ/١٨٢٦م) التي قدمت للدولة خدمات جُلى، ورفعت اسمها إلى مصاف الإمبراطويات العالمية، وأرغمت ملوكَ أوروبه وأمراءها على تقبيل العتبة الهيمايونية طالبين رضا سلطانها، ومحققين بذلك نجاحات متميزة.

وقد يئس العثمانيون من الشهرة العسكرية، ووقفوا من جراء ذلك؛ خلف دول تمتلك حضارات، كما تطلَّعوا العثمانيون بأسى إلى النهوض العام الذي حققته الدول الأوروبية.

سنوات يأس خيمت على السلاطين والإداريين وطلاب التقدم الحضاري في دولة غدت مرتعاً سياسياً واقتصادياً للنشطاء من السياسيين الأوروبيين، رواد الاستعمار ورواد الانتقام من العثمانيين، فعمدوا أولاً إلى التخلص من الإنكشارية، التي وإن خمدت جذوتها، لكنها ظلت قادرة على استعادتها إذا دُربت وجُهزت بسلاح حديث، لكن رواد الاستعمار وسادته، أقنعوا (سليم الثالث) ومن بعده (محمود الثاني) بإخفاق الإصلاح لتلك القوة، فاستجاب دون مساءلة، وسحقها دون رحمة ودون أن يشفع لها تاريخها، وبقيت الدولة من دون جيش يدافع عنها، وللتأكد من نجاح خطوتهم دفعوا محمد علي باشا لمهاجمتها، ووصل كوتاهية سنة (١٢٤٩هـ/١٨٣٣م)، وغدا الطريق إلى استانبول مفتوحاً أمامه.

بهذا تخلص الأوروبيون من تراث كان وجوده يقلقهم، وبقي عليهم التخلص من القوانين العثمانية التي لم تكن صالحة للقرن التاسع عشر حسب زعمهم، وغير قادرة على استيعاب مصطلحات القرن ولا على فهم التطور الحديث، وخطا العثمانيون خطوة فعلية نحو التطور وذلك باستبدال تلك القوانين والأنظمة المهترئة بنظرهم بأخرى حديثة، ولم يتخلف السلطان محمود الثاني، والسلطان عبد المجيد عن الإطاحة بتلك القوانين والأنظمة، وكلف فريقاً من مؤيديه باستنساخ القوانين الفرنسية بصورة خاصة والقوانين الأوروبية بصورة عامة، وأصدر فرمانين: الأول سماه «كلخانه خطي» (١٢٥٥هـ/١٨٣٩) والثاني سماه «شريف همايون خطي» سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٦).

انتهى العهد القديم من الجيش ومن القوانين والأنظمة، وكان السلطان محمود والسلطان عبد المجيد قد أزاحا كل قديم، وتركا دولتهما وولاياتهما نهباً لأنظمة فرضها الأوروبيون بدافع الإصلاح والخوف على الأتراك المسلمين رغم كراهيتهم لهم، لأنهم يسيطرون على مناطق فيها قلة مسيحية متمسكة بأرضها وتراثها.

لم يجد السلطان عبد العزيز بُدّاً من متابعة الإصلاح، فطبَّق قانون المعارف سنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) على صعيد التعليم مقتدياً بأسلافه الذين أدركوا أن إصلاح التعليم يسهم بصورة فعالة في قبول العلمانية المستوردة، وكان استيرادهم للإصلاح العلمي بادرة خير على الولايات العربية الإسلامية التي أكلتها المدارس المذهبية والمدارس الدينية والتكايا والزوايا والربط، وأكثر هذا السلطان المصلح من دفع الأمور إلى الأمام، تطلعاً إلى افتتاح مدارس لتعليم أبناء رعيته، فطبع الكتب وقدمها إلى أطفال المرحلة الابتدائية مجاناً، وأقام مدارس مختلطة ما بين جميع الملل والطوائف؛ وما بين الذكور والإناث بحسب المناطق، وشدد في فرض العقوبات على الأهل الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدارس، وحدد سن دخول الذكور إلى

المدرسة وكذلك الإناث، لكن الطورانيين الذي بدؤوا يتطلعون إلى استلام العرش بالتدريج اتهموه بالإسراف، فعزلوه بفتوى، ثم دبروا انتحاره، وحكموا على مراد الخامس من خلال أطباء ومشايخ وعلى رأسهم مفتي الإسلام بالخلل العقلي، وأقاموا السلطان عبد الحميد الثاني، الذي اشترطوا عليه قبل استلامه العرش تطبيق الدستور ومجلس المبعوثان، فاستجاب لهم مبدئياً ثم تنكر لهم، وقام بإصلاحات من تراث أعمامه عبد العزيز وعبد المجيد، ووصل بالبلاد من الناحية العلمية إلى مرحلة متطورة، ولم يترك وسيلة إلا قدمها، إذا كانت تؤدي إلى خير الطلاب ذكوراً وإناثاً مسلمين ومسيحيين وحتى يهوداً، ومنها:

تطوير التعليم، وإدخال المطابع، وكانت إصلاحاته واضحة على الولايات العربية، وأيضاً على مركز دولته، لكن أعداءه أضاعوها في مشادات استمرت أكثر من ثلاثين سنة، ختمت بعزله عن العرش، وانقلبت الأوضاع للمتصرف بالبلاد العربية بما يناسب مصالحه، لأن رواد النهضة بالغوا باللامركزية، وتحول الجدال مع الأتراك الجدد المتفرنسين والمتأنجلزين انتداباً، تماماً كما فعل السلاطين الأوائل من القرن التاسع عشر الذين استعانوا بالقوانين والأنظمة الأوروبية للتخلص من التخلف، كذلك العرب استعانوا بسلاح الغرب وجيشه للتخلص من التخلف العثماني.

وفي الختام يمكن القول:إن العثماني يظل عثمانياً حتى ولو كان مصلحاً، وهذا لا يختلف بالنسبة للبلدان العربية بين زمن الاتحاديين وزمن العثمانيين، فالاتحاديون تستّروا بالطورانية، والعثمانيون تستّروا بالدين، والعرب تستّروا بـــ (بمعكم وعليكم) كما قال السلطان عبد الحميد قبل موته سنة ١٩١٨م.

رؤية محايدة في الإدارة العثمانية

إن تطور المسيرة العلمية التي عاشتها دمشق كولاية عثمانية جاء بالتقسيط الممل، والتدرج غير المنتظم، فالسلطان محمود الثاني (١٢٢٣-١٢٥٥هـ/١٨٠٨-١٨٣٩م) عمد إلى إشراك العلماء المؤيدين للحركة الإصلاحية، فأصدر سنة (١٢٤٠هـ/١٨٢٤م) فرماناً يسهم في إصلاح التعليم، وقد اطمأن العلماء العثمانيون لمنهجه الإصلاحي والتعليمي، إلا أنه ما لبث أن قلب على المعادين له من العلماء طاولة الإصلاح، وأطاح بالحرس القديم، المستفيد من الترهل العسكري، بضرب الإنكشارية في وقعة "الخيرية" سنة (١٢٤٢هـ/١٨٢٦م) وبذلك أزاح أعداء التوجه الغربي أمام ابنه عبد المجيد، الذي أصدر فرماناته الإصلاحية لمّا أزاح هو الآخر العقبات والصعاب أمام أخيه السلطان عبد العزيز، الذي دأب أيضاً على الإصلاح ولاسيما في المجال العلمي والتعليمي، فأكد على بناء المدارس، وزاد من رواتب المدرسين، وحُددت الكتب والمطبوعات، واعتمد على عباقرة الإصلاح، وأسس إدارة المعارف العمومية، لكن هذه الإدارة لم يُهيأ لها الفرصة للنهوض بالمهام الموكلة إليها، وظلت لسنواتٍ غيرَ مجدية، فدفعها السلطان عبد العزيز إلى مصاف نظارت المعارف، وحمّلها مسؤولية إصلاح التعليم بكل مراحله الابتدائية والرشدية والإعدادية والمعاهد العليا ودور المعلمين، وهي خطوات بدأها السلطان عبد العزيز وتابعها السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)، فطوّر التعليم الابتدائي وأمر بإيجاد مكاتب خاصة بالصبيان ومكاتب خاصة بالبنات، وبالاستناد إلى

التقارير المقدمة إليه والمتضمنة أن المسلمين رغم فرمانات عمه عبد العزيز الإلزامية وما بعدها من الفرمانات التي تفرض السجن على كل أب ظلّ على عناده بعدم إرسال أبناءه إلى المدارس، إلا أنهم لم يلتزموا بها التزاماً دقيقاً، ولم يكن بمقدوره فرض عقوبات على من يتخلف عن إرسال ابنته إلى المدرسة خوفاً من الاختلاط؛ وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، فأمر بافتتاح المكاتب المهنية لتعليم الإناث مبادئ القراءة والكتابة والخياطة والتطريز وما شابهها، ثم توسع في إصدار فرماناته، وألغى المدارس الرشدية وضمها إلى المرحلة الابتدائية التي أصبحت خمسة صفوف بدلاً من ثلاثة، وأصبحت المرحلة الإعدادية ثلاثة صفوف، والثانوية ثلاثة صفوف، وافتتح المعاهد العليا، والمعهد الطبي، وبنى المشافي (مشفى الغرباء) لتدريب طلاب الطب على ممارسة الطب ميدانياً، وأوجد مدارس العشائر حتى أنه أمر بإيجاد مدارس متنقلة ترافق العشائر البدوية في حلها وترحالها.

كما اهتم السلطان عبد الحميد الثاني بالولايات العربية، لأن المرحلة التي يعيشها هي مرحلة صراع داخلي بين طرفين- طرف يمثّل التراث العثماني وطرف يمثّل اجتياز المراحل للوصول إلى القومية الطورانية، - اشتد الصراع في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، لكن المعلمين الذين كلفهم السلطان عبد الحميد الاهتمام بالتعليم، أوجدوا نظماً جديدة حددوا فيها مصروفات المدارس الليلية للطلاب الذين يدرسون ليلاً، وقد أفادت المصادر والمراجع أن التعليم الليلي كان وقفاً على القطاع الخاص الذي سمحت له مديرية المعارف في دمشق بافتتاح مدارس خاصة به؛ تحت إشراف مديرية المعارف، وحددت له المواد الواجب تدريسها للطلاب.

والحقيقة أن المدارس الرسمية أسهمت في الحد من المدارس المذهبية والدينية، ولم يكن العصر مهيأ لتطويرها؛ لأن القرن التاسع عشر عصر علم وتنوير كما كان عصر اقتصاد وأموال، والمدارس المذهبية لم تبدّل برامجها

بشكل ملحوظ، علماً بأنها أدخلت العلوم العقلية في برامجها، أما المدارس الوطنية التي بناها أفراد، فترجع لأسباب مادية أو رغبة في تخليد أسمائهم، ورغم ذلك وبناء على تقارير مقدمة إلى نظارت المعارف باستانبول، كانت تدرس علوماً عقلية.

لم يكن أمام الدولة العثمانية إلا توثيق القرارات والفرمانات من خلال دستور يؤكد صحة ما صدر، ويكون بمقدور المسؤولين الاعتماد على دستور يحميهم من التعرض للمخالفة القانونية، وقد صدر سنة (١٢٩٣م/١٨٧٦م). أما الفرمانات التي أصدرها السلاطين، فقد تراكمت في درج الأرشيف العثماني، وقد اعتمدنا على بعضها في البحث؛ لأنها هي الصورة الصادقة التي أكدت حركة الإصلاح العلمي في الدولة العثمانية وولاياتها وبخاصة ولاية دمشق التي تطورت تطوراً علمياً مدفوعة إلى ذلك بعوامل عدة.

ومن الإنجازات التي حققتها التنظيمات على صعيد التعليم في مديرية معارف دمشق،: أنها أسهمت في تحديث التعليم تطلعاً لمواكبة التقدم الغربي وللصمود في وجه الأطماع التي يسعى إليها الساسة الغربيون مستغلين عدم تطور العلم لدى العرب، علماً بأن تطور التعليم هو صورة صادقة وفعالة للنهضة العربية التي شهدتها بلاد الشام، وذلك من خلال تزايد المدارس بمراحلها كافة، ونمو المدارس الأهلية التي تسعى إلى إعداد أجيال مثقفة ووطنية، كما تتطلع إلى خلق نماذج بين مختلف المدارس الطائفية من جهة والمذهبية من جهة أخرى.

إن تسارع الحركة العلمية في بلاد الشام عامة ودمشق خاصة أسهم في تنامي الوعي الذي قاده الشباب من خلال الدور الفعال الذي قدمته مدينة دمشق خلال القرن التاسع عشر في نشر المعرفة والثقافة في المدن والولايات العربية، كما أسهم الطلبة العرب الذين توافدوا إليها في الحركة النهضوية التي عرفتها بلاد الشام وقتئذٍ، وحينها ظهرت مجموعة من الصحف والجمعيات

التي تدعو إلى الإلفة والاتحاد بين أبناء الطوائف والمذاهب المختلفة، ومن الجمعيات التي ظهرت حينها، الجمعية العلمية السورية التي ولدت ونشطت في أواخر الستينيات من القرن الماضي، وضمت مجموعة متميزة من النهضويين منهم: سليم رمضان وحسين بيهم وحنين الخوري وسليم البستاني وإبراهيم اليازجي، وعشرات الشبان من كل الطوائف والمذاهب. وشهدت هذه المدّة ولادة الجمعيات السرية على يد إبراهيم اليازجي والأمير عبد القادر الجزائري وابنه محي الدين وأديب اسحاق وغيرهم، ووصل التضامن القوي والفعّال فيما بينهم حدَّ الثورة على العثمانيين باسم القومية لا باسم الدين، كما ساهم رواد الصحافة وقتئذٍ، إلى حدٍ كبير في الفعل النهضوي، وكان لهم الدور المهم والمؤثر في ذلك، فقد كانت الصحيفة هي المنبر الإعلامي الوحيد يومئذٍ، ولذا أصدر المعلم بطرس البستاني وخليل الخوري ويوسف الشلفون ويعقوب صرّوف «الجنان» و«الجنة» و«حديقة الأخبار» و«التقدم» و«المقتطف» وأسهم الرواد جميعهم في هذه الصحف والدوريات، وكانت كتاباتهم جميعاً تدعو إلى الوحدة والتآلف والتعاضد ونبذ الفرقة والطائفية والابتعاد عنهما، ففيهما الخراب للوطن والشعب، وبالابتعاد عنهما ومحاربتهما، يُبنى المجتمع القوي والمتماسك. والحقيقة أن روّاد النهضة الأوائل مارسوا الفعل النهضوي قولاً وفعلاً، وليس أدلَّ على ذلك من الموقف الفذِّ للأمير عبد القادر الجزائري والذي عارض فيه فتنة الستين، وأنقذ الآلاف من المسيحيين في دمشق من الهلاك. ولعلَّ من أهم الأسماء المؤثرة والفاعلة في الحركة النهضوية، والذي ترك أثراً عميقاً وشاملاً، غير محدود بزمان أو مكان، المفكر والمناضل عبد الرحمن الكواكبي، والذي أزعجت آراؤه الكثيرين من عملاء الطغاة والمستبدين، فدسّوا لهم السمَّ وأخفوا عدداً من آثاره المهمة كـ «العظمة لله» و«صحائف قريش»، وعقب انتقاله من حلب إلى القاهرة، بدأ الكواكبي بنشر أفكاره النهضوية الإصلاحية في الدين والمجتمع والدولة، في أبرز مطبوعتين

إسلاميتين عربيتين هما: مجلة «المنار» للشيخ محمد رشيد رضا، وجريدة «المؤيد» للشيخ علي يوسف. وهكذا أسهم رجال الدين المسيحيين والمسلمين جنباً إلى جنبٍ مع الصحفيين والكتاب بالفعل النهضوي والحضاري، الذي عرفته بلاد الشام في تلك المرحلة من تاريخها.

صحيح أن الحركة التعليمية والثقافية التي شهدتها بلاد الشام ورعتها دمشق بالتساوي مع بيروت ولّدت النهضة والثقافة، وإن كانت مستقاة من الغرب الأوروبي إلا أن المثقفين العرب في بلاد الشام عرّفوا بأخلاقية العرب وتراثهم الحضاري، وذلك عندما انكب الشباب المثقف على دراسة لغات وأدبيات تلك الدول التي قطعت شوطاً كبيراً في المجال العلمي والثقافي.

ولهذا فإن فئة الشباب المتقنين للغات الأوروبية أعادت الجدية إلى البلاد العربية، وطرحت ما لديها من تطوُّرات علمية، وقد تنامت تلك التطورات على الأرض الخصبة للعرب، وتقبّلت كل جديد يلائم واقعها وقوميتها من ليبرالية واشتراكية، وإن القارئ لتطور المؤسسات العلمية لدى سكان بلاد الشام، يلاحظ التغيير الاجتماعي والسياسي الذي تدافع الشباب العربي المثقف لتعريبه رغم الخلافات التي ولّدها هذا التغيير، غير أن هذا الخلاف كان ظاهرة صحية، لقّن الأجيال الناشئة محتوى القومية العربية ونمّى لديها جدية الدفاع عن هذه القومية التي جعلها العثمانيون أولاً، والغرب الأوروبي ثانياً موضع تجاذب ومشادات حسمها شباب القرن العشرين إثر الإرهاصات السياسية التي ولّدتها مسألة تدافع الأوروبيين إلى الأرض العربية عقب خروج العثمانيين من بلاد الشام، ومن المكان نفسه الذي دخلوا منه إليها، وهي منطقة مرج دابق.

أخيراً لابد من القول: إن تعايش العرب مع الأتراك العثمانيين لمدة تزيد عن أربعمائة عام، لم تكن أكثر من مرحلةٍ لتقديم الخدمات لسلاطين بني عثمان، سواء عن رغبة أو رهبة، كما أن العثمانيين نقلوا عن حضارة

العرب وآدابها وتراثها الكثير من الفنون الأدبية، والمهن الصناعية، الأمر الذي مكّن الحكام العثمانيين من بناءِ حضارتهم على أنقاض التراث والحضارة العربية التي نهبوها خلال مدّة احتلالهم له، والحقيقة أنهم لم يكن بإمكانهم بناء ما تمَّ بناؤه وصناعة التطور لولا اختلاطهم بالأمم الأخرى وسرقة ما سرقوه. وثمة سؤال مركزي لكل باحثٍ في التاريخ العثماني أو العربي خلال المدّة العثمانية وهو: هل قدَّم العثمانيون للعالم العربي في أثناء احتلاله أكثر من مساجد ومدارس، لم يكن بناؤها بتوجيه من السلطان بقدر ما كان اجتهاداً من الوالي، ثمَّ أيُّ تقدم معرفي وفكري تركته الحقبة العثمانية على الوطن العربي؟ الحقيقة أن العثمانيين لم يسهموا بأي تطور حضاري أو فكري في الوطن العربي أثناء احتلالهم له، كما أنهم اعتمدوا تراث من سبقهم في هذا المجال وأسّسوا بناءهم للمدارس والجوامع على خبرات سابقة ومتراكمة، وبالتالي يمكن القول: إن الوجود العثماني في الوطن العربي يشبه إلى حدٍّ كبير مد البحر وجذره، وليس أدلَّ على هذا من انعدام الآثار الايجابية للمرحلة العثمانية في الوطن العربي.

مصادر البحث ومراجعه

١- المصادر

آ- المخطوطات:

- إجازة بالقرآن الكريم، دلائل الخبرات، من محمد الدسوقي إلى مصطفى العلي، مكتبة الأسد الوطنية رقم ١١٣٤٣.
- تراجم مشاهير فضلاء القرن الثالث عشر الهجري، لمؤلف مجهول الاسم، مكتبة الأسد الوطنية رقم ٦٩٧ .
- تقرير قوجي بك، مكتبة نور عثمانية، استانبول، رقم ٣١٨٥ .
- مذكرات خير الدين التونسي، استانبول، مكتبة نور عثمانية رقم ١٥٧٨ .
- مجموعة إجازات لعدة مؤلفين، لمؤلف مجهول الاسم، مكتبة الأسد الوطنية رقم ٢٩.
- إيستاستيق عمومي إدارة سي، استانبول ١٩٠٢م.

ب - وثائق المحكمة الشرعية، دمشق(١) .

- سجل المحاكم الشرعية، سجل رقم ١٦٠ وثيقة ٢١ لسنة ١٢٤١ هـ.
- سجل المحاكم الشرعية، سجل رقم ٢٩٥ وثيقة ٦٠٤ لسنة ١٢٥ هـ.
- سجل المحاكم الشرعية ، سجل رقم ٢٩٥ وثيقة ١٧٤ لسنة ١٢٤٢ هـ.
- سجل المحاكم الشرعية، سجل رقم ٣٣٦ وثيقة ٣٣٨ لسنة ١٢٥٠ هـ.
- أوامر سلطانية، مجلد ١، وثيقة ٦١ سنة ١٢٣٧ هـ.

---

(١) لقد تم الاعتماد على وثائق المحكمة الشرعية في دمشق، ووثائق استانبول، وتجنباً من الإطالة في ذكرها آثرنا الاختصار منها (المؤلف).

- أوامر سلطانية، مجلد ١، وثيقة ٦١ سنة ١٢٣٧ هـ.
- أوامر سلطانية، مجلد ١، وثيقة ٤٧ لسنة ١٢٣٧ هـ.
- أوامر سلطانية، مجلد ٣، وثيقة ١٧٧ لسنة ١٢٥١ هـ[١].

ج – وثائق أرشيف رئاسة الوزراء، استانبول[٢].

- أرشيف رئاسة الوزراء ، إرادة داخلية رقم ٣٦٨٥
- أرشيف رئاسة الوزراء، إرادة داخلية ، ٣٩٥٧ .
- أرشيف رئاسة الوزراء، فرمان رقم ٨٥٤ .
- أرشيف رئاسة الوزراء، تصنيف جودت نافعة وثيقة ٣٨٨٧ .
- أرشيف رئاسة الوزراء، معارف نظارتي رقم ١١ .
- أرشيف رئاسة الوزراء، سجلات نظارت المعارف رقم ٧١ .
- أرشيف رئاسة الوزراء، سجلات الديوان الهمايوني، مجلس معارف لسنة ١٢٦٠هـ.
- أرشيف رئاسة الوزراء ، سجلات الديوان الهمايوني سجل رقم ٦٣ .
- سجلات المعارف العمومية الصادرة لسنة ١٢٨١ هـ.
- سجلات المعارف العمومية، لسنة ١٢٨٢ هـ .

د – التقويمات السنوية (سالنامات) سورية ودولت عثمانية[٣]

- دولت عثمانية سالنامه سي لسنة ١٢٧٢ هـ/١٨٥٥م.
- دولت عثمانية، معارف عمومية ج٣ لسنة ١٣١٨ .
- سورية سالنامه سي لسنة ١٣٠٠ هـ /١٨٨٣م.
- سورية سالنامه سي لسنة ١٢٩٨ هـ.

---

(١) لقد تم إثبات ملحق عن وثائق المحاكم الشرعية من مشوش دفتري وملحق رقم /٤/
(٢) قدم البحث قسماً منها في ملحق رقم ٢ مأخوذة من مكتبة الدكتور محمود عامر.
(٣) تم انتقاء ما تم الاعتماد عليه في التقويمات السنوية، أما ما قرئ فيها لاستكمال البحث فهي كثيرة جداً، فضلاً عن الاختصار الذي تعمدنا اختصاره (المؤلف).

- سورية سالنامه سي لسنة ١٣١٧ هـ.
- النشرة العثمانية الرسمية لنظارت المعارف لسنة ١٢٥٨ هـ [١].
- النشرة العثمانية الرسمية لنظارات المعارف لسنوات ١٢٥٩ و١٢٦٦ و ١٢٦٧ و ١٢٧٣ و ١٢٧٥ و ١٢٨٠و ١٢٨١و ١٢٩٣ هـ.

هـ - المصادر بالعربية:

- الألوسي، محمود شكري، المسك الأذخر، تراجم ، بغداد في القرن الثاني والثالث عشر، بغداد ، ١٣٣٠هـ.
- البستاني، فؤاد أفرام، المعلم بطرس البستاني، تعليم النساء بيروت ١٩٢١م.
- بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال ومسامرة الخلاّن، دمشق ١٩٦٠.
- البغدادي، أديب التقي ، مناهج التربية والتعليم، دمشق ١٣٣٧ هـ.
- عيسى، أحمد، البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٣٥٧ هـ.
- الحصني، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات التواريخ تقديم، كمال صليبي بيروت ١٩٥٩ .
- الحصري، ساطع، الحولية الثقافية العربية، القاهرة ١٩٥٩ .
- تقارير عن أحوال المعارف في سورية بيروت ١٩٧٢ .
- فن التربية الجسمية ، تعريب كامل نصري، ١٩٣٥م.
- خوري، خليل، حديقة الأخبار، مجلة شهرية تحولت إلى ربعية بيروت ١٩٢٠.
- الخالدي، أحمد سامح، أنظمة التعليم في بيت المقدس ١٩٣٣م.
- الشطي، محمد جميل، روض البشر في أعيان القرن الثالث عشر، دمشق ١٣١٣هـ.
- كردعلي، محمد، خطط الشام، دمشق ١٩٨٧ .
- العلاف، أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين. تقديم يوسف جميل نعيسة ١٩٧٦ .

---

(١) لقد تم الاعتماد على النشرة العثمانية لأكثر من ٦٠ من أعدادها ، واكتفيتُ بذكر السنوات منها، وجميع الأعداد موجودة صورة عنها في مكتبة الأسد.

- مذكرات فخري البارودي، دار الحياة، جزءان بيروت ١٩٥١ .
- مذكرات مدحت باشا، حياته ، مذكراته، محاكمته، تقديم يوسف كمال بك حتاته، صديقي الدملوجي بيروت ٢٠٠٢ .
- المحامي محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ترجمة إحسان حقي، القاهرة ١٩٨١ .
- المحبي محمد المرادي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر – القاهرة ١٢٨٤ هـ.
- النعيمي عبد القادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسين، ط١ – دمشق – بيروت ١٩٩٠ .
- رضا، نور، عثمانلي تاريخي، استانبولي ١٩٢٤ م.
- ياغي جميل أحمد، التعليم في دمشق في العصر الحميدي، بغداد ١٩٦٣ .

و- المصادر بالعثمانية:

- أوغلو، محمد سامي الدين، المجلس المخصوص ودورة في التنظيم ١٨٣٨-١٨٦٨م أنقره ١٩٩٤ .
- بينارحاريتس ، الحركة العلمية في الأناضول ١٣٠٧ .
- بلقين، عمر، المؤسسة العلمية في بورصة أنقرة ١٩٦٨ .
- ثروت، رجب سليمان، الحركة العلمية والسلاطين ا|الأوائل إزمير ١٣١٧ هـ.
- جودتن باشا أحمد، تاريخ جودت، استانبول ١٣٠٩ هـ.
- شارنين زاده ، تاريخ شارني زاده استانبول ١٢٩٠ هـ.
- صولاق، باشا زادة، تاريخ صولاق ، استانبول ١٣٢٩ .
- طاشا، أحمد سليم، المدارس ومهامها العلمية، أنقره ١٣٢٩ .
- عطا، أحمد، تاريخ عطا، استانبول ١٢٩٣ هـ.
- عاصم، باشا، عاصم تاريخي، استانبول ١٢٨٤ هـ.
- لطفي، أحمد، تاريخ لطفي ، استانبول ١٣٢٩ هـ.

٢- المراجع:

أ- المراجع بالعربية:

- أثناسيو، الأب متري هاجي، موسوعة بطريركية أنطاكية التاريخية والأثرية - ٩ أجزاء - دمشق ٢٠٠١
- البحراوي، محمد عبد اللطيف، حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨ - ١٨٣٩ م - دار التراث، القاهرة ١٩٧٨
- حريتاني، محمود، تاريخ اليهود في حلب، شعاع للنشر والعلوم، حلب ٢٠٠٨
- حطيط، أحمد، قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، الفلرات للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣.
- الحافظ، محمد مطيع، دار الحديث الضيائية ومكتبتها بصالحية دمشق، دار البيروتي، دمشق ٢٠٠٦.
- الحمصي، أسماء، المدرسة الظاهرية (دار الكتب الوطنية)، ط١، دمشق ١٩٦٧، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- المنجد، صلاح الدين، دور القرآن الكريم بدمشق، دار البيروني، ط١، دمشق، ٢٠١٠
- دليل كنيسة الروم الملكية الكاثوليكية في العالم ١٩٨٨ م.
- داغر، أسعد، المدارس الرسولية في سورية، مجلة المقتطف مجلد ٢٦ لسنة ١٩٠١م.
- رافق، عبد الكريم، دراسة اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث - دمشق ٢٠٠٢ .
- الشطي، محمد جميل ، أحمد شوكت، تاريخ الطب عند العرب في العصور الحديثة ، منشورات جامعة دمشق ١٩٦٠
- أبو عز الدين سليمان، إبراهيم باشا في سورية ، بيروت ١٩٢٩ م[١] .
- عامر، محمود ، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها ، دمشق ٢٠٠٣ م.

---

(١) أجمع النحاة والمؤرخون على عدم احتساب (الـ) التعريف وابو وابن في قائمة الأبجدية وتؤخذ الأسماء التي تليها (المؤلف)

- عبود، مارون، رواد النهضة الحديثة، بيروت ١٩٦٤ م.
- طاشكبري زاده، أحمد، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية استانبول ١٣٩٥ هـ.
- العطار، نامي ، تاريخ سورية في العصور الحديثة ، دمشق ١٩٦٢ م.
- العمري، صلاح راجي، المذاهب الإسلامية في الإسلام، بغداد ١٩٦٧م.

ب - المراجع بالتركية الحديثة المعرّبة:

- أنجلهارت، التنظيمات العثمانية، ترجمة محمود عامر ، دمشق ٢٠٠٧
- أوغلي، المارون، كلخانة خطي وتأثيراته، ترجمة محمود عامر، بيروت ٢٠٠١
- طوبال، أحمد سليم، مرحلة المشروطة، أنقرة ١٩٧٧
- كمال، نامق، الطرائق، مجلة الترقي، عدد ٩١ لسنة ١٨٧٣
- مدنيات، مجلة العبرة، العدد ٢٨ لسنة ١٨٧٣[١]
- كوجوك، أورمان ، التعليم الأوروبي ودوره في تحديث الدولة - استانبول ١٩٤٦
- هاوونتش، أورهان، تطور المدارس في عهد السلطان عبد الحميد الأول أنقرة ١٩٦٨.
- الخطوات العلمية للسلطان عبد العزيز ، استانبول ١٩٤٨.

ج - المراجع بالإنكليزية والتركية الحديثة:

- Moveley, the life of willam ewart cladstone voll (1801-1857) 1903
- Ismail Hakki , osmanli tarihi, Ankara 1954
- Ismail hakki ilmye Teskilati Ankara 1965
- Som ozxan, milli egitim kwulus Istanbul 1953
- Agas nazet , milli egitim ve tarlhe celer ankava 1948
- Enver zeki kaval, osmanli tayihi ve nizam cedid devrl ankava 1980
- Bag Bayram kodman, egitim sistemi Ankara 1986

---

(١) اختلف المؤرخون بشأن مقالات نامق كمال، وأجمعوا على أنها مراجع وليست مصادر (المؤلف).

- Selim topal, ilmye Teskilat aakarq 1966
- Raci ahmet Gulhane Hati lstanbul 1945
- Adnan sisman galpt savay mek teli devyi Istanbul 1987
- Atilla xetin maarif Nazayer Egitim islahali Istanbul 1987
- Suligman Topt Asker mektepler aakara 1969

د – الدوريات:

– النشرة العثمانية، نظارت المعارف لسنة ١٢٥٥ هـ.
– جريدة المقتبس العدد ٢٥٤ لسنة ١٣٢١ هـ.
– دليل بيروت، تقويم الإقبال لسنة ١٩٠٩ – ١٩١٠ م.
– مجلة الكلية العدد الرابع لسنة ١٢٩٥ هـ.
– مجلة الكلية، العدد الخامس، المجلد الرابع لسنة ١٢٩٧ هـ.
– مجلة الجوائب ، عدد ٩٩ ٣ صفر ١٢٩٤ هـ.
– مجلة الترقية والتعليم دمشق، السنة الثانية لسنة ١٣٤٧.

فهرس الأماكن والأعلام

١- فهرس الأماكن:

٢- فهرس الأعلام:

المحتوى

الصفحة

الفصل الأول

الصفحة

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

المؤلف في سطور

- كاتب صحفي – عضو اتحاد الكتاب العرب جمعية البحوث والدراسات.
- يحضر للدكتوراة في التاريخ الحديث.
- له عدة كتب مطبوعة وعشرات المقالات والحوارات والتحقيقات في الصحف والمجلات السورية والعربية والدولية.
- من مؤلفاته:
  - القوميون والإسلاميون من الصدام إلى الحوار.
  - أقنعة الاستبداد ومحنة التحديث في العالم العربي.
  - التغلغل الإسرائيلي في العراق من الثورات الكردية إلى الحكومات الانتقالية.
  - عولمة التعذيب.. خفايا سجون الديمقراطية الأمريكية.
  - الاختراق الصهيوني لأفريقيا السودان أنموذجاً.

له تحت الطبع:

- دور إسرائيل في ثورات الربيع العربي.. سوريا نموذجاً.

الطبعة الأولى / ٢٠١٥م

عدد الطبع ١٠٠٠نسخة

لم يترك الاحتلال العثماني في الوطن العربي أي أثرٍ علمي، أو حضاري تستذكره الأجيال اللاحقة، بل على العكس من ذلك، عمد العثمانيون إلى تجهيل المجتمع العربي، وتدمير تراثه الحضاري، والإنساني، محاولين بناء حضارة وهمية هشّة وعلم خرافي، يعتمد على الزوايا، والتكايا وتقديس الأشخاص، وقد اعتمدت الدولة العثمانيّة على البداوة العثمانية المغلفة بغلاف التدين المذهبي، والعرقي واستنهاض العصبيات، وإثارتها بالفتن، وإدامة الفوضى، مع حرص عثماني كبير على تغييب العروبة عن الوعي العام، وإضعاف لغة القرآن الكريم، وطمس الذات العربية الإسلامية النهضوية، وتعويم تراث التخلّف والتبعيّة.





www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٥م

سعر النسخة ٥٠٠ ل.س أو ما يعادلها